القرين

© حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: القرين
تأليف: بشرى طاهري
مراجعة لغوية: رنا أبوالغيط
تصميم داخلي: سالم عبدالمعزسواح
النـــاشــــــــر: دارالزيات للنشر والتوزيع
القـطــــــع: 21X14
سنة النشر: 2025

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 17113 / 2025
الترقيم الدولي (ISBN): 0 - 647 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-647-0
9 789778 446470

القرين

رواية

بشرى طاهري

الإهداء

إلى سبب وجودي وسر ابتسامتي، من كان

يذوب ليضيء دربي، وآمن بي ودعمني حين

تخلى عني جميع الخلق، أبي حبي

مُقَدِّمَة

لا أحب المقدمات، غالبًا ما تكون كاذبة.

أفضل أن أغوص مباشرة في التفاصيل

الفصل الأول

الزمن الرابع والعشرون من نوفمبر عام ١٩٧٠

المكان: الجزائر، في أعالي جبال جرجرة، وبالتحديد في قلب قرية بني يني، حيث تتعانق الجبال مع الأشجار لتبهر بجمالها القاطنين والزوّار. وتنبعث كل يوم أصوات الطيور بتغريد عذب شجي، كأنها نوتات موسيقية أمازيغية. هناك كانت كوثر تشدو مع الطيور في سعادة وبراءة، مرددة أغنيتها المفضلة "أفافا ينوفا". وجهها الوضّاء كأنه شقّة من قمر، وملامحها البريئة يتملكها الخجل، فتصبح عندما تضحك ما بين احمرار الوجه وبياضه، كأنها الشمس والقمر. وعيناها فنجالي بن غامقين، وشعرها الكستنائي هفاف، كأنه صديق الريح، يحب كلٌّ منهما اللهو مع الآخر. وكانت علاقة الطبيعة مع كوثر كالأم الحنون المعجبة بجمال صغيرتها، فتحب ما بين حينٍ وآخر أن تربت على رأسها وتداعب شعرها بريح الصبا العَطر، وتُقبلها بالنسائم. وكانت كثيرًا ما ترفع شعرها بغطاء رأس أمازيغي، حتى لا تحجب خصلاته القاتمة السواد الرؤية عن عينيها النجلاوين. ومع جمالها الباهر، كانت كوثر قوية وشجاعة ومتعاونة مع محيطها العائلي، كما أنها سخية ومتحركة، فقد كانت ترعى الأبقار والثيران في

الجبال دائمًا. فأي روح كانت تملكها تلك الزهرة البرية لتزاول كل هذه الأعمال الشاقة، التي كانت تقوم بها أسرتها وأجدادها من قبل؟

ولا زالت أساطير القرية تروي أن لكوثر جدًّا من الأجداد قد صارع وحش الغابة فقتله، ولكن هذا الوحش أصابه بجراح تسببت في وفاته. وآخرون يقولون إنهم وجدوا الوحش مقتولًا، ولكنهم لم يجدوا جدها الأزرق العينين بعد هذه الحادثة. كما يروي الناس أنه كان لها جدّة تستطيع أن تشفي الأمراض عن طريق الرقية واللمس، لذلك فإن أهل القرية يعتقدون حتى الآن أن عائلة أمزيان تملؤهم طاقة إيجابية عجيبة توارثوها عن أجدادهم، ومن بينهم نجد كوثر، التي كانت قد تعلمت مهنة الدلك من أبيها، فكان بإمكانها معالجة آلام العظام والكسور والتواء الكاحل، وذلك عن طريق الدلك باستخدام قليل من زيت الزيتون المسخّن والمقروء عليه آيات الشفاء، فيشفى المريض في خلال أيام قليلة ببركة الدعاء مع الاعتناء به.

ولقد تعلمت كوثر هذه الطريقة وغيرها منذ سن الرابعة عشرة، بسبب كِبر سن والدها الذي أقعده عن الخروج لعلاج الناس، كما أن قواه لم تعد تسمح له بالدلك.

ولقد كان والدها معالجًا وعشّابًا ماهرًا، مما جعل له معارف كُثر، لكن رغم ما حصلته كوثر من معارف، فقد كانت ممتازة في دراستها، يثني عليها مدرّسوها دائمًا أمام أبيها وأمها. ولكنها رأت أن تهتم بشؤون عائلتها وبأرض والدها بعد تخرجها من الثانوية وتحصلها على شهادة البكالوريا، لكنها لم ترد أن تلتحق بالدراسة الجامعية في المدينة؛ لأنها رأت أن أخاها ما زال صغيرًا، وأن أمها لا تستطيع أن تتحمل عبء الأرض والحقل لوحدها، وخاصة أن أم كوثر كانت تعاني من مشاكل صحية.

وبالرغم من موقف كوثر الطيب الذي اتخذته حيال عائلتها، إلا أن تركها للدراسة الجامعية أحزن والدها ووالدتها كثيرًا، مما جعل والدتها تتمنى أن يتقدم لكوثر خاطب من عائلة راقية ومتعلمة، فيتزوجها ويساعدها على إكمال تعليمها في المدينة أو في بلد أوروبي متقدم مثل فرنسا، ولكن الأم كانت تخشى أن تدعو بذلك في صلاتها؛ لأنها لا تحتمل ابتعاد صغيرتها عنها في يوم من الأيام.

وكانت كوثر أيام دراستها تستيقظ باكرًا كل يوم، فتذهب إلى الحقل وتقوم بالعمل فيه هي وأخوها الصغير، ثم تذهب لمدرستها في الضحى، ثم تعود بعد انتهاء الدراسة إلى الحقل مرة أخرى، فإن حان اقتراب المساء تُحلّ الأبقار والثيران من مرابضها بالحقل، ثم

تسوقهم إلى بيت أبيها لتدخل البيت مع غروب الشمس، وكانت تسوقهم وهي تحمل جرّة الماء فوق رأسها.

فكانت جميلة وفاتنة، وهي تتبختر في زيها القبائلي الزاهي، وهي تحمل على رأسها جرّة الماء.

وها هي كوثر قد دارت واستدارت مع الأيام، فصارت في طور النساء، وأصبحت خريطتها تثير إعجاب الرجال والشباب، فكانوا يتقدمون لخطبتها من أبيها، وكانت النساء تحدث أمها عنها بإيعاز من المعجبين والخاطبين.

ولكن، كما هو معروف، فإن لدى هذه القبائل العريقة الكثير من العادات والتقاليد الموروثة عندما يتعلق الأمر بزواج فتياتهم، ولذلك فإن عائلة الفتاة لا تقبل إلا من يكافئها في الأصل والمكانة، ويجب أن لا تتزوج الفتاة الأمازيغية إلا من أمازيغي مثلها.

وكانت قبيلة بني يني تتمسك بتلك العادات والتقاليد أكثر من أي قبيلة أخرى، لذلك كان والدها يُرجئ خُطّابها لعل وعسى أن يتقدم لكوثر من يكافئها في الأصل الطيب، ومن يكون متعلمًا وذو مكانة مرموقة، كي يعوضها ذلك عما لاقت في بيت عائلتها من تعب وحرمان من التعليم العالي بسبب رعايتها لأسرتها.

ولكم كان هذا الأب الحنون يتألم لحال ابنته، رغم أنها لم تشتكِ له يومًا، ولم تنبس بكلمة اعتراض واحدة على حالها، وما آلت إليه من تأخر في دراستها الجامعية.

وذات يوم، بينما خرجت كوثر للعمل في الحقل، قابلت شخصًا غريبًا يُدعى عبد الله، وكان لقاؤهما بسبب قصة عجيبة، وذلك أن عبد الله ينحدر من إحدى القبائل الأمازيغية البعيدة، وكان عشّابًا وصائغًا ماهرًا، كما أنه كان من العلماء المهتمين بالحضارة الأمازيغية القديمة. وقد كان، قبل أن يأتي إلى قرية كوثر، طالبًا في كلية التاريخ والأدب بفرنسا، وقد تعرّف هناك على صديق فرنسي اسمه جاك ريمو، ونمَت بينهما صداقة حقيقية ووطيدة، لأنهما كانا يملكان نفس الميول والطموحات. لذلك، فقد خطّطا سويًّا من أجل رحلة علمية غرضها استكشاف الحضارات الأمازيغية في كل بلاد المغرب العربي، ودراسة اختلاف لهجات وعادات الأمازيغ في أنحاء المغرب ومصر. ولكنهما كانا يفتقران لجهة تموّل مشروعهما العلمي، ولذلك فقد قاما بعرض مشروعهما على عدد من الجهات العلمية والاستثمارية في باريس، وفي مرسيليا، وفي ليون، وفي كل أنحاء أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، فوافقت جهة باريسية تابعة لجامعة السوربون على تمويل مشروعهما، وكان ذلك من حسن حظهما، فبعد عناء طويل حصلا على الدعم المطلوب، فكانت فرحتهما

كبيرة جدًّا. وبالفعل قاما بالرحلة التي شكّلت مخاطرة كبيرة جدًّا، فقد اقتضت الخطة بأن تبدأ مسيرتهما من واحات سيوة بمصر، مرورًا بليبيا، ثم موريتانيا، فالجزائر، صعودًا نحو تونس والمغرب. ولكن، يبدو أن جاك ريمو انبهر بالحضارة المصرية في سيوة والفيوم، فأراد أن يستقر لوقت أطول في جنوب مصر لدراسة العلاقات الأمازيغية الفرعونية، ولم يُعجب ذلك ميسيو فرانسوا، رئيس المشروع والمشرف على التمويل، فأرسل لجاك يطلب مقابلته في باريس، هو وعبد الله. ولكن، عندما كان يستعد جاك وعبد الله لمقابلة ميسيو فرانسوا في باريس، وصلت أنباء لعبد الله من الجزائر أن والده وأخاه قد أُصيبا في حادث تصادم مروّع بمدينة الجزائر، ولذلك حمل عبد الله أمتعته وسافر مسرعًا نحو الجزائر، فوجد أخاه مصابًا بجروح خطيرة، ولكن الأطباء قالوا إن هناك أملًا كبيرًا في نجاته، وأخبروه أيضًا أن حالة والده سيئة للغاية، ولكنه يجب أن يتحلّى بالأمل والصبر، لعلّ وعسى أن يشفيه ربّه.

وكم قضى عبد الله من أيام قلقة، وهو ينتظر ويدعو الله أن يُنجي والده وأخاه، حتى إنه نسي كل شيء يخص أمر مشروعه العلمي، وشاء الله أن يستجيب لدعاء عبد الله، فاتصلوا به من المستشفى وأخبروه أن والده قد أفاق وتحسّنت حالته، فوضع عبد الله سماعة التليفون فورًا، وانطلق نحو المستشفى التي كان يُعالج فيها والده،

فزاره وقبّل يده وحمد الله على سلامته. ولكن، والده أشار إلى إخوته الصغار أن يتركوهما بمفردهما، وعندما انفرد بو عمر بابنه، قال له: اسمع يا عبد الله، أحمد الله أني رأيتك سالمًا يا ولدي، من بعد طول غياب في فرنسا.

أما آن لك، يا ولدي، أن تنتهي من دراستك وتعود للإقامة في وطنك، بين إخوتك وبني جلدتك؟

فرد عبد الله قائلًا: استرح أنت يا أبتي، وسيكون كل شيء على ما يرام.

فسعل الرجل العجوز سعلة خفيفة، وقال: لم تُجبني يا ولدي؟

فوجد عبد الله نفسه مضطرًّا أن يُجيب والده، فقال له: شارفت على النهاية، فلم يبقَ لي يا أبتي إلا مشروع الماستر، وقد رأيت أن أعدّه أنا وصديق لي، وهو مشروع يتحدث عن أحوال الأمازيغ عبر التاريخ، واختلاف لهجاتهم وعاداتهم حسب الأراضي والأوطان التي أقاموا فيها، من أول صحراء سيوة بمصر حتى آخر المغرب.

فرد العجوز قائلًا: ولكن، ما فائدة هذه الدراسة غير الدرجة العلمية التي ستحصل عليها، يا دكتورنا العزيز؟ فضحك عبد الله، وقال: عهدتك ذو دعابة دائمًا يا أبتي، ولكن لم أكن أعرف أنك ستزداد مرحًا بعد أن تركتك! ولكنني سأؤجل الإجابة على هذا السؤال حتى تُشفى

تمامًا من هذه الكسور الدواهي، كي لا أُثقل عليك. ابتسم الوالد، متحاملًا على نفسه، وكان قد أراح ظهره للخلف بسبب الكسور التي أصابت ضلوعه جرّاء الحادث، واستطرد قائلًا: اسمع، يا بني العزيز، أنا أدعو الله لك بالنجاح والتوفيق دائمًا، ولكن بما أنك ابني البكر وولدي العزيز، فلديّ طلب أرجو أن تُنفّذه على وجه السرعة. فقال له عبد الله: يا أبتي، مُر تُطَع، وسَل تُعْطَ.

فربّت الوالد على كتف الابن البار الذي يُحدثه، وقال بصوت خافت: اقترب مني. فلما اقترب عبد الله من أبيه، قال له أبوه بصوت واهن: قبل الحادث بسنتين، أتى لزيارتي صديقي سي عابد العجب المحبب، من قرية بني يني التي تقع في أعالي جبال جرجرة، وترك عندي أمانة كبيرة من الأموال وبعض المشغولات الذهبية والفضية، تُقدَّر بحوالي خمسة ملايين دينار، وقال لي إنه سيعود بعد ثلاثة أشهر لاسترداد هذه الأمانة، وأنه إذا لم يعد بعد الثلاثة أشهر، فعليَّ أن أنتظر حولين كاملين، فإذا لم يظهر خلال هذه المدة، فعليَّ بعد إتمام الحولين أن أبحث عن السيد أمرزاق، تاجر الفضة بقرية بني يني، وأن أُعطيه تلك الأمانة.

فقلت له: يا سيد عابد، هل لي أن أسألك أين ستكون خلال مدة الثلاثة أشهر تلك؟ فوجدته قد تغيّر لونه وتردد في إخباري بحقيقة الأمر الذي أزمع الذهاب إليه. فقلت له: إن كان الأمر سرًا فلا عليك،

وانسَ أني سألتك هذا السؤال، وإنما سألتك من أجل أن أكون مطمئنًا عليك، وأن أُراسلك في حالة ما إذا تأخرت عن موعد وصولك عندي، فسلّمتُ أنا المال والمشغولات للسيد أمرزاق لأطمئن أن الأمانة تم تسليمها على النحو الصحيح، فيستريح خاطري وبالي.

فوجدت عندئذٍ بشائر الارتياح على وجه الرجل، ووجدته يقول: هو سر كبير وخطير، ولم أكن أريد أن أخبرك أو أن أخبر أي أحد، حتى لا تقع مسؤولية خطيرة على عاتق من يعرف هذا السر. ولكن عندما تحدثتَ إليّ، وجدتك تتمتع بحجة وحكمة أجبرتني على أن أُخبرك بالحقيقة، وبأن أُبوح لك بهذا السر، لأنني واثق تمامًا من عقلك وحكمتك، وبأنك لن تُفشي هذا الحديث الذي دار بيننا، حتى إن لم أعد. كما أوصيك ألّا تبحث عني إذا تأخرتُ عن موعدي، وأن تُسلّم المال للسيد أمرزاق فور تأكدك من عدم عودتي بعد حولين كاملين.

فقلت له: لك ذلك بكل سرور، وإن كنت أرجو عودتك سالمًا.

فقال: الأمر لله من قبل ومن بعد.

وكل القصة أنني كنت أعمل مع شركة تُنقّب عن الذهب والمعادن، وقد حدث أني عرفت من بعض الأشخاص في هذه الشركة معلومة هامة وخطيرة، وهي أن هناك في صحراء موريتانيا، منجمًا للذهب يملكه أحد الأهالي، وهذا الرجل اسمه محمد توتشرت. وكان هذا

الرجل يبحث عن ممول يكون لديه خبراء تشغيل وعمال محترفين، من أجل تشغيل منجمه على الوجه الصحيح، بحيث يوفر دخلًا كبيرًا لهؤلاء البدو الفقراء، لكي يستطيعوا العيش منه وتأمين أنفسهم وأولادهم من ثروة ذلك المنجم الغني بالذهب بطريقة غير طبيعية. ولكن الشركة الفرنسية التي أعمل فيها بالغت في نسبتها، وفي نسبة أجور عمالها، ووضعت العراقيل أمام الرجل حتى تموّله وتوفر له الخبرات الحديثة، وذلك لكي تساعده في استخراج هذا الذهب فيستفيد منه هو وعائلته وقبيلته.

فلم يجد الرجل أمامه حلًا سوى الاستعانة بالعمال المحليين لاستخراج هذا الذهب، ولكن الطريقة القديمة في استخراج الذهب جعلت الرجل يواجه خسائر كبيرة جدًا. وبما أني كنت أعمل كأحد خبراء التنقيب في هذه الشركة، فقد نما لديّ خبر هذا الرجل بشكل غير رسمي، فبحثت عنه، وكلفت صديقًا موريتانيًا اسمه علي موري كي يبحث عنه سرًا، حتى وجده في موريتانيا، فاتصل بي وأخبرني أن الرجل معه. وعندما أتى الصيف، حصلت على إجازة عمل لمدة شهور، فذهبت إلى صحراء موريتانيا، وهناك ضيّفني الرجل، وذهبت إلى المنجم، وشاهدت كيف أن هذا المنجم غني بالذهب، كما حصلت على عينة من الرمال، وقمت بتحليلها فور عودتي، فوجدت أن نسب الذهب بها كبيرة جدًا. وكانت لديّ ثروة لا بأس

بها، ادّخرتها من عملي، تكفي لتمويل هذا المشروع، وخاصة أني كنت قد كتبت كل ثروتي باسم زوجتي وأولادي، حتى لا يتعارض الأمر مع وظيفتي بالشركة، فأداروا لي مشاريع مربحة. ولقد قمت بعرض الموضوع على ابني البكر، فتحمس جدًا للمشروع، ولكن ابني الأصغر قال لي: يا أبي، إن وجودك معنا خير لنا من الدنيا وما فيها، كما أنك قد بلغت سنًّا يجب أن ترتاح فيه. كذلك أخشى أنا وأمي وإخوتي البنات الظروف المحيطة بهذا النوع من العمل في الصحراء. فلما قال ابني الأصغر هذا القول، تغير رأي ابني البكر، وقال لي: يا أبتي، أنت تعرف أني وافقتك لأني لا أعصي لك أمرًا، ولأني أخذتُ على نفسي عهدًا أن أساندك حتى آخر يوم بحياتي، كما أمر الله ورسوله. ولكن يا أبي، أرى أن أخي الأصغر على حق، وأن لدينا ما يكفينا ويسترنا، ووجودك بيننا أغلى من أي كنز في هذه الدنيا.

فقلت لهما: حسنًا، يا ولديّ العزيزين، ولكن ألم تعلما أني إذا توقفت عن العمل شهرًا واحدًا، فسوف أموت من الملل، وستُصيبني كل أمراض الدنيا، كما أنكم تعلمون أني إذا أصررت على عمل فيه مكسب لي أنا وعائلتي، ثم لم أُنجزه، فلا شك عندها أن الحسرة ستقتلني. فلما رأى الأولاد إصراري على هذا الأمر، وافقوا على المشروع، ولكن كانت هناك مشكلة، كنت أظن أنها بسيطة جدًا، لكن حدثت بعض

التغييرات التي جعلت منها مشكلة عويصة، وأرجو من الله أن يكون حل هذه المشكلة لديك يا سيد بو عمر.

بو عمر: خيرًا إن شاء الله، سيد عابد، ولكن ما هي هذه المشكلة؟

بو عابد: كان السيد أمرزاق قد أودع عندي تلك الأمانة من الحلي والمال، وعندما ذهبت لأرجعها إليه، قال لي جيرانه في القرية إنه سافر ليقيم عند ولده المقيم في إحدى دول الخليج العربي، وإنه لا يُنتظر عودته قريبًا، ولذلك لم أجد أحدًا يحفظ تلك الأمانة إلا أنت، يا سيد بو عمر. ولقد خشيت أن أحفظها عند أولادي، فيحتسبها أحدهم ميراثًا إذا حدث لي شيء.

بو عمر: لا قدّر الله يا أخي، حفظك الله لأولادك ولزوجتك ولنا.

بو عابد: أخي بو عمر، كلنا معرضون، وليس هناك بشر مخلد، وعلى المرء أن يحترز لدنياه ولآخرته في نفس الوقت.

بو عمر: ولكنك لم تُخبرني يا أخي بو عابد، كيف حفظ أمرزاق عندك كل هذا المال؟

بو عابد: تقصد كيف حصل عليه، أم تقصد أنك تريد أن تعرف قصة المال؟

بو عمر: أظن أن كلا الأمرين واحد.

بو عابد: لا، ليس كلا الأمرين واحد.

بو عمر: كيف؟!

بو عابد: عندما تسأل كيف حصل على المال، فأنت تريد أن تعرف مصدر المال، أهو حلال أم حرام. أما عندما تريد أن تعرف قصة حصوله على المال، فسيزيد على ذلك أنك تريد أن تعرف المزيد من التفاصيل عن هذا الرجل المدعو أمرزاق، فتتساءل: ربما يكون فقيرًا؟ أو أنك تريد أن تقف على أحوال الرجل وعلاماته، لتعرفه حين تراه، فتُسلّمه أمانته وأنت مرتاح البال.

بو عمر: إذن، لتعتبر أني أسأل عن كلا الأمرين.

بو عابد: حسنًا، بو عمر، لأنني قد عهدتك ورعًا، صلب الرأي والإيمان، فسأجيبك عن كلا الأمرين.

والقصة ببساطة تتلخص بأني أنا وأمرزاق أصدقاء منذ زمن طويل، وبيننا صهر ونسب، إذ أن ابنة عمي الكبرى، غالية، كانت زوجته، ولقد توفاها الله منذ خمس سنوات، ولكن الصلة لم تنته بيننا، وكان أمرزاق يعمل في قطع الحلي الفائقة الجودة، وهو فنان أمازيغي أيضًا، وكان يحفظ الكثير من القطع الفضية والذهبية النادرة عنده. وقبل أن تتوفى زوجته بأعوام، كنا نتاجر معًا في تلك القطع، وقد كنت

أوفر له الزبائن الأوروبيين الذين يعشقون هذا النوع من التحف النادرة.

وكان الرجل وما زال يستأمنني على تلك التجارة، وكثيرًا ما كان يترك عائد تلك التجارة عندي، لأنه كان يخشى جشع زوجات أبنائه وأزواج بناته، وكان يريد أن يبقي شيئًا لدي يستند إليه إذا جدّ به الأمر. ولكن عندما شرعت في الخطوات كي أنفذ مشروعي في موريتانيا، رأيت رؤيا أفزعتني، فأردت أن أحتَرز لنفسي وللرجل، وكما قلت لك منذ قليل، ذهبت لأرجع له تلك الأموال والحلي التي لم تُبع بعد، ولكنني وجدته عند ولده في الخليج، وخشيت أن أراسله فينكشف الأمر لأبنائه، فأتسبب له في موقف محرج مع أبنائه.

بو عمر: ولكن ما هي الرؤيا التي رأيتها فأفزعتك هكذا؟

بو عابد: هي رؤيا احتار فيها المعبّرون الذين سألتهم، ولم يُجبني أحد بجواب شافٍ.

بو عمر: قصّها عليّ إن شئت.

بو عابد: رأيت وكأني دخلت على أمير عربي طويل القامة، اسمه مسعود، وأنا لم أعرف الرجل ولم أكن قد قابلته من قبل، وعندما شرعت بالحديث مع الرجل، قام وأمسك برأسي وبصق في وجهي، فقلت له: ما عند الله أوسع وأرحب مما عندك. ثم مضيت منكسرًا

وحزينًا، فإذا بي أقابل أمرزاق الصائغ، وإذا به يعطيني بقرة سمينة وضخمة، لم أرَ مثلها بقرة، ثم قال لي: أودِع الأمانة عند بو عمر حتى ترجع. وأخذت منه البقرة، ولكني لم أعرف طريق عودتي للمنزل، ووقفت وفي يدي عِقال البقرة، وأنا أنظر حولي وكأني تائه وفي حيرة من أمري. ثم استيقظت فزعًا على أذان الفجر، فلما سمعت الأذان هدأت نفسي.

بو عمر: الله، الرؤيا خير إن شاء الله يا بو عابد، فلا تقلق. واطمئن، سأحفظ لك أمانتك إن شاء الله حتى ترجع. فلما استرجع بو عمر كل ما دار بينه وبين بو عابد لولده عبد الله، قال عبد الله: قصة عجيبة يا أبتي، ولكن ماذا تريد مني أن أفعل حيال هذا الأمر؟ فقال بو عمر: لقد مضى حولَين كاملَين ولم يرجع بو عابد، ويبدو أن أمرًا ما حال بينه وبين الرجوع، كما رأى في رؤيته التي قصصتها عليك آنفًا، وها أنت ترى أنه قد حدث لي حادث مروّع أنا الآخر فألزمني الفراش. لذلك أريد منك أن تتولى تسليم تلك الأمانة يا ولدي، أو أن تأتي لي بأمرزاق فأسلمه أنا أمانته بنفسي، فإن نُفذ سهم القدر كنت بريئًا منه ومن صاحبه أمام الله سبحانه وتعالى.

فقال عبد الله: أما عن ما ذكرته يا أبي من أمر حمل تلك الأمانة وتوصيلها لأمرزاق، فأظن أن هذا الأمر سيكون صعبًا علي، إذ أني لا أضمن أن أذهب فأجده من فور نزولي القرية، فقد يكون ما زال عند

ولده في الخليج، عندئذ قد أكون في خطر شديد إذا أقمت أنتظره، أو حتى إذا رجعت من فوري، بسبب هذا المال الذي يجعل من يحمله منا عرضة للصوص وقطاع الطرق والمحتالين. لذلك أقترح أن أذهب إلى القرية باحثًا عنه، فإذا وجدته أتيت لك به. ووجد بو عمر أن كلام ابنه عبد الله في غاية الحكمة والعقل، فوافقه على رأيه، واتفق معه على موعد يذهب فيه عبد الله ليأتي بالعم أمرزاق أو يأتي بخبر عنه. ويبدو أن عبد الله انتظر حتى استقرت حالة والده واطمأن عليه، ومن ثم ذهب من فوره يبحث عن العم أمرزاق. وعندما وضع عبد الله قدميه في القرية، أعجبته مناظرها الخلابة والرائعة الجمال، وكان قد تعب من المشي، فارتكن لشجرة يستظل بها فيُريح فوق ثرى الأرض الطيبة قدماه. وكان من الصدف العجيبة أن تلك الشجرة كانت تقع في حقل بيت عائلة أمزيان. ولقد كان عبد الله يمتلك صوتًا عذبًا في قراءة القرآن، فجلس تحت الشجرة وأطلق عجيرته ببعض آيات سورة مريم، وكانت كوثر حينئذ هي وأخوها في الحقل، فأعجبهما صوت القارئ العذب. فأعدّت له طعامًا وأرسلته له مع أخيها علاء، وكان علاء طفلًا صغيرًا لا يتعدى الثمان سنوات من عمره، ولكنه كان فطنًا ذكيًا. فلما اقترب من عبد الله سلّم عليه وأعطاه الطعام، وسأله من أي القرى أو المدن هو، فأجابه عبد الله

أنه من سكان المدينة، وأنه قد أتى ليبحث عن السيد أمرزاق بو حنين. فجرى الولد نحو أخته وأخبرها بكل ما أخبره به عبد الله.

فقضت بعض الأشغال التي كانت تقوم بها بسرعة، ثم أخذت بيد أخيها وتوجهت معه نحو عبد الله. وكانت كلما تقترب يخفق قلبها، وكأن قلبها كان يخبرها أن هذا الشخص الجالس تحت شجرة حقلهم سيلعب دورًا كبيرًا في حياتها، وكأنها كانت تنتظر قدوم هذا الغريب منذ سنين، وأنه يجب أن يكون بينها وبينه لقاء، ولم تعرف كوثر لماذا راودتها تلك الأحاسيس، وما سر تلك الأحاديث التي تُثقل خطواتها تارة وتُخف خطواتها تارة أخرى، ولماذا هذا الغريب بالذات؟ ولم يأخذها الفضول هكذا؟ فلربما كان عابر سبيل مثل أي عابر. ولكن الحقيقة أن كوثر كانت تشق طريقها نحو شخص سيلعب دورًا كبيرًا في حياتها، وأن عبد الله كان قد أصبح على بُعد خطوات قليلة من أكثر شخص سيؤثر في حياته، بل إنه كان على بُعد خطوة واحدة من ملحمة عشق أسطورية ستحدث له، لكن لم يخطر بباله يومًا أن يكون بطل ملحمة من تلك الملاحم، فما باله وقد كان القدر يُعدّه أن يكون بطل هذه الملحمة بدون منازع؟

وها هي بطلة هذه الملحمة، وقد أصبحت على بعد خطوات منه، هي وأخيها، فقام واقفًا حين ألقت عليه السلام، وردّ السلام بأحسن منه، ولكنه كان يتساءل: أين رأى تلك الجميلة قبل ذلك اليوم؟

ولكنه وصل بعد طول تفكير إلى أنه لم يرَ مثل ذلك الحُسن أبدًا في حياته، ولكن رآه في مناماته وأحلامه. بل فاقت تلك الحسناء كل رؤاه وأحلامه، لأن رؤاه وأحلامه لم تكن بهذا الحضور البارع وبهذا الوضوح الرائع الساحر. وقد كان الناس جميعًا يرون أن كوثر ملكة جمال أمازيغية، ولكن عبد الله عندما رأى كوثر، تذكّر كل صور الجمال الإغريقية، وتذكّر فينوس ربة الجمال عند الرومان، وتذكّر قصة هيلين التي فتنت باريس، وما كانت هيلين إلا امرأة تسابق لمخدعها الرجال، أما كوثر فقد كانت عذراء لذيذة الطُهر، وذلك ما لن تبلغه هيلين يومًا.

الفصل الثاني

أيها الغريب، أتيتَ وحيدًا، وحين انصرفت أخذت قلبي معك. أَتراك كنت قد أتيت لتسرق روحي، ولتأمر قلبي أن يتبعك...؟

عندما سمع الصبي ما قاله عبد الله، هرول نحو أخته الجميلة وأخبرها بما أحاط به عن الغريب، فأخذته أخته من يده وعادت به مرة أخرى نحو عبد الله لتستفسر عن الأمر بنفسها. وعندما اقتربت كوثر من مكان جلوس عبد الله، هبّ عبد الله واقفًا لاستقبالها، فلاحظت أنه رجل متوسط القامة، ليس مديد الطول مثل رجال القبائل الآخرين، وظنّت لوهلة بسيطة أنه رجل كبير في السن. ولكنها عندما اقتربت منه لاحظت وسامة ملامحه الشديدة، فلقد كان فتى ممتلئ الجسم، مفتول العضلات، أبيض البشرة، ذو حمرة كقرون الفلفل، وكان ذا مرسن مميز عن الآخرين، ليس بالصغير ولا بالكبير المنفر، وكان مستدير الوجه وكأنه مخلوق قمري. وكان في عينيه سحر وشجن مميز، وكانت نظراته تنم عن ذكاء ونُبل، وطريقة نطقه للكلام تدل على أنه شخص مميز جدًا، وأنه مؤدب لأبعد الحدود ومثقف ذو ثقافة عالية.

ألقت كوثر عليه السلام، فرد عليها بأحسن من تحيتها، ثم سألته عن اسمه، فقال لها: أنا أخوك عبد الله، وقد نزلت تلك النواحي لأؤدي أمانة لأحد سكان قرية بني يني.

فقالت: من أين أنت يا عبد الله؟ ومن هذا الذي تبحث عنه في قريتنا؟ لعل الأمر يكون خيرًا.

فقال: إن شاء الله، كل الخير. فأنا كما قلت لك جزائري، ولكن والدي يعيش الآن في تلمسان، وقد جئت لأبحث عن رجل اسمه العم أمرزاق الفضي، لأن له أمانة عند والدي، أود أن أسلمها له يدًا بيد.

وكان يكلمها بأدب جم، ويحاول أن يُظهر انحناءة بسيطة في كل كلمة ينطقها مثل النبلاء الأرستقراطيين، وكأنه يحاول أن يُبدي إعجابه بجمالها، ولكن الحياء كان يمنعه من النطق بالعرفان لكرمها الشديد، وشكرها على الطعام الذي أرسلته مع أخيها. وقالت في نفسها: وكأنه عاش مع الأوروبيين أو القاهريين فترة، وقد صدق حدسها عندما تقابلا بعد ذلك اليوم عند العم أمرزاق وروى لها عن نفسه.

ثم استجمعت حواسها ونفسها وقالت: هذا لا شيء، فأنت ضيف العم أمرزاق، وضيف العم أمرزاق ضيفنا نحن أيضًا، وله منا كل الإكرام والرعاية حتى نوصله إليه.

فقال عبد الله متلهفًا: الحمد لله، أنت إذًا تعرفين السيد أمرزاق يا سيدتي؟ ثم استطرد قائلًا: فهل لي أن أسألك إذا كان في بيته الآن أم أنه ما زال عند ولده بالخليج؟

فقالت كوثر: وكأنك تعرف بعض أخباره! فلتطمئن إذن، لأنه قد رجع منذ شهرين إلى الديار، وهو الآن إما في بيته أو في محله الكائن بنفس البيت.

فرح عبد الله بما أخبرته به كوثر، وقال لها في غبطة وحماسة بدون أن يشعر: يا الله، يبدو أنك وجه خير عليّ إن شاء الله، والله لقد نطقتِ بما سُرَّ به قلبي وارتاحت له نفسي.

فأطرقت الفتاة خجلًا، فقال لها عبد الله: عذرًا، لا أقصد إلا الخير، والله، ولكني كنت أخاف أن آتي ولا أجده كما حدث مع أبي من قبل، ولو كان قد حدث ذلك، فإنه سيشق على أبي كثيرًا لأنه مريض ويريد أن يسلم السيد أمرزاق أمانته.

فقالت الفتاة، وقد رسمت ابتسامة على محياها: لا عليك يا سيد عبد الله، فأنت تتكلم بعفوية، وهذا يدل على أنك شخص طيب.

فقال عبد الله: هو ذا! أحسنتِ.

واستنتجت الفتاة بحدسها عند سماعها لطريقة نطقه لجملة "هو ذا! أحسنتِ" أنه مسحور بحسنها، وأنه ربما لو قابلها في مكان آخر

أكثر تحررًا، لكان قد عبّر لها عن إعجابه الشديد بجمالها الأخّاذ، لذلك تحفظت في كلامها بعض الشيء. ولكنه عندما سألها أن تصف له الطريق لبيت العم أمرزاق، وجدت نفسها تقول له: لقد أوشكنا على دخول فترة الأصيل، وبيت العم أمرزاق في ملتويات بين التلال، وأخشى أن تتوه عنه، وأن يدخل عليك المساء ولا تصل إليه، فتبيت في الطل والعراء، لذلك أقترح عليك أن تنتظر حتى أفك الثيران والأبقار من مرابدها، ثم تأتي معي لأرسل معك من يوصلك حتى بيت العم أمرزاق.

فقال عبد الله: أبيته بعيد عن هنا؟

فقالت الفتاة: العم أمرزاق اختار أن يكون بيته في آخر القرية، خلف التل الكبير وخلف الغابة.

فقال عبد الله: إذًا سأنتظرك لتدليني عليه، وسأكون شاكرًا لك لهذا الجميل.

فقالت الفتاة: لا شكر على واجب، أنت ضيف عمنا أمرزاق كما قلت لك من قبل، وحتى إن لم تكن، فالواجب علينا إكرامك وإرشادك لأنك غريب عن تلك النواحي.

وهكذا تركت كوثر عبد الله تحت الشجرة، ومضت لبعض شؤونها، حتى إذا دخل أول المساء، أرسلت له أخاها حتى يتبعهما لتدله على طريق بيت العم أمرزاق. وكانت كعادتها قد ملأت جرتها من البئر

وحملتها فوق رأسها، وكان عبد الله يتبعها هي وعلاء. فقابلت كوثر بعض النسوة وهي في الطريق، فسألوها عن الرجل الذي يتبعها هي وعلاء، فأجابتهم: أتى باحثًا عن بيت العم أمرزاق. فضحكت النسوة، ثم تهامسن وأشرن لعبد الله بسبب وسامته الشديدة. ولكن كوثر نهرتهن وقالت لهن: عليكن أن تخجلن من أنفسكن، فالرجل غريب.

فقالت لها أكثرهن شقاوة: أيتها الغبية، إنه مشروع عريس رائع!

فقالت لها كوثر ممازحة: سأؤدبك لاحقًا يا صونيا.

ثم تركتهن وهي تحث الخطا، وتُخفي وجهها حتى لا يظهر عليه ما أثَّرن فيها من رغبة في الضحك، ولكم حاولت أن تطرد حديثهن الشيطاني من ذهنها لما يثيره من الضحك والخجل بداخلها، ولكم أحسّت أنها تود أن تتخلص من علاء وعبد الله لتُطلق ضحكتها الرنانة، ولكنها تماسكت حتى وصلت لبيتهم. فاستأذنت من عبد الله، ودخلت إلى أبيها مسرعة، فأخبرته بقصة الضيف الذي أتى للعم أمرزاق.

فخرج الوالد العجوز مرحبًا بالضيف، وطلب منه أن يدخل عنده حتى يبعث لمن يوصله إلى البيت المنشود. ووجد عبد الله في نفسه أنه ليس من الأدب أن يرد دعوة الرجل العجوز، فتبعه حيث أراد. وما كاد يدخل حتى رحّب به أمزيان ترحيبًا شديدًا، ووضع أمامه

المشروبات وما لذ وطاب، ولكن عبد الله اعتذر بأنه أكل في الحقل. فقال أمزيان: أين أنت وأين الحقل؟ أستحلفك بالله أن تروي عطشك بهذا اللبن حتى آتي إليك بمن سيوصلك إلى بيت الحج أمرزاق.

ثم أرسل الرجل ولده علاء لرجل يدعى أبو حمد المصري، حتى يُوصل عبد الله لبيت العم أمرزاق الفضي، على دراجته البخارية الحديثة. ولقد أبدى عبد الله تعجبه من اسم الرجل، وسأل أمزيان: أهو مصري حقًا، أم أنه لقب فقط؟

فقال له أمزيان: بل هو مصري ابن مصري، وهو رجل عجيب لا يخشى الظلام، ولا الأشباح، ولا الحيوانات المفترسة، ويقود دراجته البخارية في الليل. أظنه من عربان صعيد مصر، وكان قد أتى للجزائر أيام الثورة التحريرية وشارك في الحرب ضد الفرنسيين، ثم عندما انتهت الثورة أحب الجزائر واستقر بها، وكانت زوجته جزائرية قد أتت لتلك النواحي كطبيبة متجولة، فأقاما بيننا، وأنجبا أولادهما.

فقال عبد الله: سبحان الله! واعجباه من أمر هؤلاء المصريين، فلا تخلو أرض منهم ولو كانت الصين.

فقال أمزيان مستظرفًا: وما يدريك، لعل العالم كله يكون من أصول مصرية!

فضحك عبد الله وقال: وماذا سيقول حينها الأمازيغ، يا عماه؟

فضحك أمزيان مقهقهًا وقال: ليقولوا إن شيشنق كان مصريًا، وأن أصل المصريين الحقيقي أمازيغ! ولربما كان الجميع أصلهم عرب أو أمازيغ، فلا فرق عند العاقل إلا الإنسانية.

فقال عبد الله: ولكن إن كان أصل العالم واحدًا، فكيف سنثبت ذلك علميًّا يا عم أمزيان؟

فقال أمزيان: قرأت في أحد الكتب القديمة أن قبائل الزط أصلها هندي، وقرأت رأيًا آخر لأحد العلماء أن أصل كلمة بني عبد مناف العربية أتى من كلمة منف، وهي مدينة مصرية، ولقد رجّح هذا العالم أن يكون بني عبد مناف قد عاشوا بمصر أيام أخناتون، ولكن لما قامت الثورة ضد عبادة أتون من قبل أنصار آمون، هاجر القوم نحو الجزيرة العربية واستقروا بمكة. كما أن هناك من قال إن أخناتون وحاشيته فروا من مصر إبان الثورة، وأنه وصل الصين، واختلط هو وحاشيته بأهل الصين.

فقال عبد الله: ولكن ما علاقة هذا بالأمازيغ؟

فقال أمزيان: علاقة بسيطة جدًا، وهو أنه إذا كان العرب والمصريون قد وصلوا الهند والصين وذابوا بين أهالي وقبائل كل منهما، وهما بلدين أبعد عنهم من المغرب بكثير، فما الذي كان يمنعهم أن يصلوا للمغرب وأن يختلطوا بأهله وأن يذوبوا فيهم، وهم من بلغوا حتى الشرق الأقصى؟ وما يدريك بكل ما حدث عبر التاريخ الإنساني

العالمي، ونحن ليس بأيدينا عنه سوى القليل من المصادر؟ ثم ما يدريك أن سكان المغرب ونوميديا وصلوا بدورهم هم الآخرين للمصريين، والهنود، والفرس، والصينيين، والآشوريين؟؟

في تلك الأثناء حضر أبو حمد الصعيدي وتعرف على عبد الله بواسطة الحاج أمزيان، ثم صحبه لبيت أمرزاق، وكان عبد الله يفكر طول الطريق وهو راكب الدراجة خلف أبو حمد في كوثر وفي جمالها البديع، وفي كرم أسرتها، كما أنه كان معجبًا جدًا بشخصية أمزيان وبذكائه الحاد، وكان يتساءل: كيف عرف هذا الرجل العجوز القبائلي، والذي يبدو في هيئة بسيطة، بتاريخ الفراعنة وشيشنق وتاريخ الأمازيغ وغيرهم من الأمم؟ وكان يحدث نفسه بأنه يجب أن يجلس مع أمزيان مرة أخرى، فلربما يرجع جلوسه مع أمزيان بفائدة كبيرة لأبحاثه.

وقطع حبل أفكار عبد الله ترحيب أبو حمد به، قائلًا: مرحبًا بك أخ عبد الله. ولم يدر عبد الله ماذا يقول، ولكنه رد قائلًا: أهلًا بك يا أخي، معذرة فلقد أتعبتك معي.

فقال أبو حمد: لا شكر على واجب، أنت ضيفنا، والعم أمرزاق فاضت خيراته على الجميع.

فداعبه قائلًا: بل أنت ضيفنا بالجزائر يا أبو جودة، وكنا نود أن لا نتعبك ونرهقك معنا.

ففهم أبو حمد ما يرمي إليه عبد الله، فرد قائلًا: لا يكون المرء غريبًا في بيت أصهاره، ولا يكون ضيفًا في بيت إخوته.

فقال عبد الله: نعم، أحسنت والله يا أبو حمد، ولكن هل لي أن أتقدم إليك بسؤال؟

فقال أبو حمد: أعرف، تريد أن تسألني عن أخبار مصر.

فقال عبد الله: عجيب أمرك، كيف عرفت سؤالي قبل أن أنطق به؟

فقال أبو حمد: جميع العرب يسألون عن مصر في تلك الظروف التي تمر بها، ومن حسن الحظ أن لي إخوة أراسلهم في مصر، وكان قد أتى أحدهم لزيارتي بالجزائر بعد النكسة بعامين، وقد أخبرني أن الأمور عادية جدًا، وأن المصريين يعانون من الغلاء ومن مشاكل التهجير أكثر مما يعانون من الهزيمة، ولكن كل ذلك لم يضعف من روحهم المعنوية شيئًا، وإنما زادهم رغبة في الثأر وفي الحرب وفي الجهاد.

فقال عبد الله: ولكن الغرب يقولون إن المصريين لن يحاربوا، لأنه ليس لديهم قدرة اقتصادية وحربية تمكنهم من الصبر على حرب طويلة الأجل، كما أن تصرفات القيادة المصرية لا توحي برغبتهم في الثأر، بالإضافة إلى ذلك، فإن الإسرائيليين قد تمكنوا من تثبيت أقدامهم بسيناء، واستطاعوا أن يصبحوا قوة لا تقهر بسبب ما بنوه من حصون على ضفة قناة السويس، وبسبب استعانتهم بالسلاح

الأمريكي الحديث، ناهيك عن التراخي الروسي، الحليف الأكبر للمصريين.

كان أبو جودة يستمع لعبد الله طول الطريق ولم ينطق بكلمة حتى أنهى عبد الله كلامه، ثم قال فجأة: ها قد وصلنا لبيت الحاج أمرزاق الفضي. ثم ركن جانبًا، ونزل عبد الله، وأبطل أبو جودة الماكينة، ثم قال: هذا بيت عمنا أمرزاق، ولكن قبل أن أناديه لك يا سيد عبد الله، أريد أن أجيبك على أسئلتك.

فقال عبد الله: نعم.

فقال أبو حمد: يا أخي عبد الله، من كان أقوى عسكريًا في أيام ثورة الجزائر المباركة: فرنسا أم الجزائر؟

فقال عبد الله: كانت فرنسا أقوى عسكريًا طبعًا، وكانت أكثر عددًا وعُدَّة.

فقال أبو حمد: ناهيك عمن كانوا يؤيدون الفرنسيين من أهل الجزائر، وقد كانوا كُثُرًا، ورغم ذلك انتصرت الجزائر ونالت استقلالها بعزم أبنائها وصمودهم، وكذلك سيكون أمر مصر إن شاء الله، وذلك لأن النفسية العربية فيها بداوة لا تصبر عن الثأر للدماء البريئة الذكية، مهما كلفها الأمر من تضحيات وجهاد، كما أن صاحب القضية هو الأقوى من حيث ثبات النفس وراحة الضمير.

فقال عبد الله: لكم أرجو وأتمنى ذلك يا أخي أبو حمد، وعذرًا إن كان كلامي قد سبب لك أي مضايقة.

فقال أبو حمد: وما ذنبك أنت؟ فأنت تفكر كما يفكر كل مصري وكل عربي يتعجل الثأر من الصهاينة قبل أن يبتلعوا جميع العرب، كلنا يا عبد الله نملك نفس النفوس القلقة، والتي تخاف إن سقطت مصر أن يسقط كل العرب بعدها، وأن يتحطم فلك القومية العربية قبل أن تصل مبتغاها. ثم ضغط أبو حمد زر الجرس الكهربائي القديم المعلق بحائط البيت، وكان البيت بابه حديديًا كبيرًا، ومن الواضح أنه كان مبنيًا على طراز يشبه الفيلا أو القصر الصغير، وكان أمامهما حديقة صغيرة، ثم يليها بناية من ثلاثة أدوار: دور أرضي، ودور مسقَّف بالخرسانة مقسم لشقتين، لأن به شباكين وشرفتين، وكان الطابق الثالث غير متضح المعالم بسبب الإضاءة الخافتة، ولكن اللمبات الحمراء الكبيرة التي تمثل كرة اليد، والتي كانت تُستخدم في ذلك الوقت، وكانت توضع على الأجناب المركب بها الأبواب، قد أضافت للمكان لمسة شاعرية جميلة ورائعة. ويبدو أن الخدم لم يسمعوا الجرس، وكان أغلبهم قد نام، فلقد كان الوقت الذي أتى فيه عبد الله وأبو جودة متأخرًا بمقاييس عصر السبعينات، فقد كانت الساعة قد تعدت العاشرة مساء. ولما يئس أبو جودة من الجرس، أخذ ينادي قائلًا: يا أبو عامر، يا خال أمرزاق الفضي.

وهنا نزل أمرزاق مسرعًا، وكان معه خادم مسلح ببندقية قديمة اسمه أبو جودة، فلما تعرف الرجل على أبو حمد، رحب به، فأعلمه أبو جودة بأمر الضيف القادم إليه من تلمسان، فصافح أمرزاق عبد الله بحرارة شديدة، وسأله عن الأمر الذي ساقه إليه في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فطلب عبد الله أن يختلي به. فاستأذن أبو حمد في التنحي جانبًا، ولكن أمرزاق ألح على عبد الله بأن يتكلم أمام أبو حمد، قائلًا له: يا أخ عبد الله، ليس لدي أسرار أخفيها عن أمزيان والأخ بوجودة وأبو حمد.

فقال عبد الله: سيد أمرزاق، لقد جئت بخصوص أمانتك التي وضعتها عند أبو عابد المحبب منذ ثلاثة أعوام.

عندئذ اطمأن أمرزاق للضيف، وقال له: إذن سنضيفك أولًا، وفي الصباح تحدثني عن الأمر.

ومن ثم قام أمرزاق بإدخالهما عبر الحديقة، وأمر أبو جودة أن يدخل ماكينة أبو حمد داخل البيت، وذلك لأن سؤاله للضيفين كان على باب البيت الكبير، وعندما اقتربا من باب الفيلا، أعطى خادمه المفتاح، فهرول مسرعًا وفتح الباب، وسبقهما أمرزاق ليوسع الطريق وليريهما مكان جلوسهما ببهو البيت الذي كان مبلطًا ببورسلين فاخر، وأرضيته مفروشة بسجاد إيراني عالي الجودة، وفيه أرائك روسية الطراز، مكسوة بقماش أزرق لامع، وكان قد طلب

منهما الجلوس على إحدى الأرائك، ثم جلس قبالتهما مرحبًا بهم، وأمر الخادم بإحضار الشراب والطعام، ثم وجَّه الحديث لأبو حمد، قائلًا: ستبيت معنا الليلة يا مصري.

فاعتذر أبو حمد بأن زوجته والبنات لوحدهم، وأنه يجب أن ينصرف بأسرع ما يمكن حتى لا يثير قلق زوجته وبناته عليه.

ولكن أمرزاق أخبره أنه هو أيضًا يخاف عليه من الطريق في هذا الوقت المتأخر.

فضحك أبو حمد، وقال: مثلما أتيت سأعود إن شاء الله، أما إن كان قدر الله ألا أعود، فلن أعود ولو كنت في صحبة جيوش العالم كلها، ولكن واجبي الآن هو أن أحاول أن أعود.

فقال أمرزاق ممازحًا إياه: هكذا أنت منذ عرفناك، أيها الصعيدي العنيد، ممتلئ بالحكمة وبالمجازفة في نفس الوقت.

فقال أبو حمد: والله يا أخي أمرزاق، هي حكمة من تجارب الحياة، ومن الإيمان بقدر الله سبحانه وتعالى، وليس تهورًا أو مجازفة، وليس حبًا للمغامرة.

فقال أمرزاق: أحسنت يا أبو حمد، لأنه إذا آمن كل منا أن لا شيء سيصيبه غير قدره ونصيبه، ما كان قد خاف أحد من ظالم أو متكبر،

ولا كان عمر الظلمة في الأرض طويلًا، ولضعف صف الشر والجشع، ولوضع الناس نصب أعينهم الواجب قبل الأجر.

وأتى الخادم بالطعام، فاعتذر أبو حمد أنه كان قد سبقهم للعشاء، ولكن أمرزاق ألح عليه، وقال له: ليس لأجل شيء، ولكن لأجل الضيف. فتناول الطعام مسرعًا، ثم قام وهو ينفض جلبابه، وطلب الإذن من أبو عامر حتى ينصرف، وكان الخادم قد أحضر القهوة، فأعطاها له أبو عامر وهو واقف، وارتشف منها رشفتين، ثم خرج مسرعًا.

وهكذا قام أمرزاق بتوصيل أبو حمد لباب الدار، ثم عاد لضيفه، فأرشده لمكان نومه بعد أن أنهى طعامه وشرابه، وكانت الساعة قد أوشكت أن تكون الواحدة بعد منتصف الليل، فودع الرجل ضيفه حتى يستريح على وعد باللقاء به في الصباح الباكر.

الفصل الثالث

عندما آوى عبد الله إلى فراشه، كان المفروض أن يستريح من يوم حافل مر به، وأن يخلد للنوم بسرعة، ولكن ذهنه بقي مشغولًا بما دار طوال اليوم. وكان أكثر ما شغله جمال كوثر الساحر الأخّاذ، كان يتذكر كل إنش فيها، وكأن صورتها قد طُبعت بذاكرته، ولا يمكن أن يمحو منها شيئًا. كان يقول في نفسه: يا لتلك العيون الساحرة، والقوام الممشوق، والوجه المستدير كالقمر، بل إن محياها أكثر استدارة وبهاء ونورًا من القمر. كما فكّر في هدوئها الملائكي وسحرها الجذاب، وحتى لا يذهب بعيدًا بذهنه وتصعب العودة عليه، انتقل عبد الله بفكره نحو زميله جاك ريمو، فقد كان يقلقه أمره كثيرًا، وكان يود أن يعرف ما دار بينه وبين مسيو فرانسوا، وكيف استقبل فرانسوا جيرمون خبر تخلّف عبد الله عن مقابلته. فهؤلاء الفرنسيون، وإن كانوا يحبون الفن والتاريخ والعلم، إلا أن بعضهم لا يعذر ولا يعترف بالظروف الطارئة التي قد تجبر الإنسان على ترك أعماله. كما كان يخشى أن يختلف جاك ريمو مع فرانسوا، مما يتسبب في إلغاء المشروع، أو أن يوجّه فرانسوا اللوم لجاك، فيؤثر ذلك على سجل دراسته. وكان عبد الله يعذر جاك لأنه أراد دراسة الحضارة الفرعونية في الجنوب، لأنه كان يرى أن هناك همزة وصل

بين الفراعنة وبين الأمازيغ منذ أقدم العصور. وكان جاك يرفض الفكرة التي تقول إن الحضارة الفرعونية امتداد للحضارة الكوشية في النوبة والسودان، وكان يرى أن الكوشيين هم امتداد من امتدادات الفراعنة في الشرق الأوسط، وكان يطرح فكرة أن الأمازيغ والفراعنة ربما يكونون من أصل واحد، وأن الكوشيين اختلطوا بهم فيما بعد. وكان يُرجع ذلك للتشابه الذي بين أغلب المصريين وأهل المغرب العربي في تونس والجزائر والمغرب، وكان يرفض الفكرة التي تقول إن هذا التشابه حدث بسبب دخول العنصر العربي إلى مصر والمغرب إبان الفتح الإسلامي، لأن المصريين والمغاربة كانوا يعرفون بعضهم البعض منذ عهد الفراعنة، وكان من المصريين من يتمتع بالملامح القوقازية الفاتحة منذ عهد الفراعنة، وقبل ظهور الرومان والإغريق والفرس.

فإن قال قائل: قد يكون ذلك بسبب اختلاطهم بالقبائل البدوية والهكسوس والعبرانيين، فإن ذلك يعارضه ما تم العثور عليه من آثار المصريين قبل تلك الأحقاب، والتي أظهرت المصري القديم فيها وهو يتمتع بملامح جسمانية قوقازية فاتحة إلى حد ما. وكان جاك يرى أن المغاربة والمصريين والعراقيين من أصل واحد، وأن هذا الأصل هو أقدم الأصول العرقية في منطقة الشرق الأوسط ومنطقة البحر المتوسط وحتى أفغانستان والهند، وكان يريد أن

يثبت أن أهل الجزيرة العربية أصلهم من الشعوب الهند أوروبية التي عبرت عبر عُمان واليمن وفارس نحو الجزيرة في فترة من الفترات، ثم ما لبث أن انعكس هذا الترحال عندما حدث الجَدب في الجزيرة العربية وتآكلت الحضارات التي كانت في الجزيرة بفعل المناخ المتغير والكوارث الطبيعية.

ورغم أن هذه الفكرة كان يصعب إثباتها في ذلك الوقت، إلا أن جاك كان يصر إصرارًا عجيبًا عليها، ويريد أن يثبتها، وقد كانت استحالة إثباتها تكمن في أن هذه الفكرة تتطلب دراسة أغلب أصول حضارات الشرق وبعض حضارات الغرب مثل الرومان والإغريق، وكان هذا يستحيل على فرد واحد.

وانتقل عبد الله بفكره سريعًا نحو السيد أمزيان، وذلك لأن أمزيان كان قد طرح فكرة مثل فكرة جاك ريمو، أو تتشابه مع فكرة جاك ريمو إلى حد كبير، ولكم أعجب عبد الله بأمزيان، ذلك العجوز الذي يحمل علمًا وثقافة بين جوانبه لا يُستهان بها، بل ولربما كان هذا الرجل يعرف عن الأمازيغ ما يجهله كل علماء الغرب ومستشرقيه، ولِم لا، وهو ابن تلك الأرض، وهو الأدرى أكثر منهم بطقوسها وأسرارها.

ثم ما لبث عبد الله أن انتقل بفكره رغمًا عنه لشخصية أبو حمد المصري، ذلك الرجل الذي ينطق بالحكمة، ويحاول بدون أن يقصد أن يُعلّم الجميع الصبر والإيمان والمحبة وقوة العزم، والرضا بما حكم القدر، وكأنه بطل أسطوري يبتسم للحتوف، ويتعايش معها في سلام ومودة، حتى يحين الأجل الذي لن يمنعه حذر. وفجأة سمع عبد الله انطلاق صوت الأذان، فأراد أن يقوم لأجل الصلاة، وبالفعل قام مسرعًا، نافضًا عن ذهنه كل تفكير يُلهيه عنها، وكان هناك حمّام ملحق بغرفته، فقام ودخله مسرعًا، ثم أسبغ وضوءه وخرج ليقيم الصلاة في حجرته. وكان يُحيره أمر اتجاه القبلة، وكان يشعر بالحرج من أن يمضي نحو غرفة أمزيان ويوقظه ويسأله عن اتجاه القبلة، ولكنه سمع طرقًا على الباب، فقال بصوت خافت بالفرنسية: "أنتريه"، فدخل السيد أمرزاق وألقى السلام عليه.

فقال عبد الله: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

ثم استطرد أمرزاق قائلًا: عذرًا يا ولدي إن كنت أيقظتك، ولكني رأيت أن أسألك إن كنت تريد صلاة الفجر في جماعة بالمسجد المجاور للفيلا؟ وإن كنت تريد أن تُصلي هنا منفردًا، فلا بأس، أما إذا كنت لا تُصلي، فسأنصرف من فوري ولن أزعجك مرة أخرى.

فابتسم عبد الله وقال: بلى والله، أنت يا عم أمرزاق ولد حلال، فقد كنت لتوي أتساءل عن اتجاه القبلة، وكنت أظن أنك قد لا تذهب للمسجد بسبب كِبر سنك، أو بسبب سهرك معي اليوم، ولكن إذا أتت الصلاة جماعة، فهي والله خير، وهي أفضل وأعظم أجرًا. عندئذ استبشر أمرزاق بالفتى خيرًا، واستراح له أكثر، وأحبه وكأنه ولد له، وقال له: إذن هلمّ بنا يا سيد عبد الله حتى نؤدي الصلاة.

وانطلق الرجلان لتأدية الصلاة.

وبعد أن خرج الصاحبان من الصلاة، رجعا معًا حيث بيت أمرزاق، وهناك رحّب أمرزاق بعبد الله، وأمر الخدم الذين لم يناموا بعد بإعداد الإفطار، وفي ذلك الوقت الذي انتظرا فيه إعداد الإفطار، تجاذب كل من عبد الله وأمرزاق أطراف الحديث في مواضيع شتى، ولكن كانت هناك صورة في إحدى زوايا الغرفة لفتت نظر عبد الله، فوضع نظارته وحدق بها كثيرًا، فلفت ذلك نظر أمرزاق.

وقال له: هل أعجبتك؟ إنها إحدى إبداعاتي.

وكانت الصورة مرسومة بألوان زيتية لفارس أندلسي يمتطي جوادًا أسود بغاية الجمال. وأبعد عبد الله ناظريه عن الصورة، والتفت للسيد أمرزاق وقال: يبدو أن السيد بو عابد على حق عندما أخبر أبي

أنك فنان نادر قلّ نظيره. ولكن السيد أمرزاق لم يرد على إطراء عبد الله، بل باغته بسؤاله عن عمله قائلًا:

ولكن لم تقل لي ما هو عملك الأساسي يا سي عبد الله، أم أنك ما زلت تواصل دراستك الجامعية؟

فقال عبد الله: الحقيقة أني حصلت على تعليمي الأساسي بالجزائر، ولكني أكملت دراستي في فرنسا، وقد التحقت بدراسة التاريخ والآداب بجامعة ليون، ثم التحقت بالدراسة في السوربون، وأنا الآن بصدد دراسة الدكتوراه، وهذه الدراسة ستكون عن الحضارات الأمازيغية. ولقد بدأت بها بالفعل، لولا الحادث الذي ألمّ بوالدي وأخي. عندما سمع أمرزاق، رد عبد الله، أشاد كثيرًا بدراسته وفرح كثيرًا أن عبد الله إنسان مثقف وعلى دين وخُلق، وأنه يدرس بأرقى جامعات العالم الحر. وهنا خطرت له فكرة تُبقي عبد الله عنده بعض الوقت، وربما كانت هذه الفكرة تستبقيه أكثر من أسبوع، إذ يبدو أن عبد الله وقع من نفس أمرزاق موقعًا حسنًا، وأحس أمرزاق اتجاهه بإحساس الأب اتجاه الابن. لذلك أراد أن يستبقيه محبة له، ومن أجل أن يُحمِّله أيضًا أمانة علمية عظيمة، لأنه توسم به الذكاء.

وأما أمر الأمانة، فيكفي موقفه هو ووالده من حفظهما لأمانة بو عابد المحبب، وحرصهما على أدائها لأمرزاق، وهما لم يعرفاه من قبل.

لذلك قال أمرزاق لعبد الله: ما رأيك لو بقيت عندي هذا الأسبوع يا دكتور عبد الله؟ وفي هذا الأسبوع يمكن لك أن تدرس العلاقات الثقافية التي تتعلق بمشغولات الحُلي الذهبية والفضية التي يُبدعها الصاغة الأمازيـغ، وبين الثقافة الأمازيغية القديمة وغيرها من الثقافات، وتطور هذه المشغولات على مر السنين حتى عصرنا هذا، وخصوصًا المشغولات الفضية التي تخصصتُ فيها.

فقال عبد الله: أنت تقصد يا عم أمرزاق أن يكون محور هذه الدراسة تأثر الصانع والصائغ الأمازيغي والمبدع الأمازيغي بالثقافة الأمازيغية قديمًا وحديثًا؟ وأن يقودنا ذلك إلى مَن تأثر بهم الأمازيـغ من عرب ورومان وفينيقيين وقوط، وفراعنة ووندال وغيرهم من الأمم التي اختلطت بالطوارق والأمازيـغ؟ وأن نتحدث عن أسرار تلك النقوش وما تعنيه، أليس كذلك؟

فقال أمرزاق: نعم، أقصد شيئًا من هذا القبيل. فما رأيك؟

عبد الله: الحقيقة أني أرى أن فكرتك هذه فكرة رائعة جدًا، ولكن هناك مشكلة صغيرة، وأنا لا أعرف حلها في تلك الأجواء.

أمرزاق: وما هي تلك المشكلة يا دكتور؟

عبد الله: أولًا، لا أريد أن يعرف عني أحد أني رجل مثقف على درجة علمية رفيعة، لغرض ما في نفسي لا أستطيع أن أخبرك به إلا في

وقته. لذلك أرجو أن لا تسألني عن ذلك الغرض الآن. ولكن أرى أن من حقك عليّ أن تعرف أنه غرض شريف، وبأنني لا أحمل أي نوايا أو مآرب سيئة أو غير أخلاقية. وهنا رد أمرزاق قائلًا: ما دمتَ أخبرتني بذلك، وأنا أثق فيك وفي خُلُقك، فلك ما تريد.

فقال عبد الله: إذن، فعليك الآن أن تناديني باسمي مجردًا بدون أي لقب علمي.

أمرزاق: نعم، ولكن أين المشكلة؟

فقال عبد الله: المشكلة أني لم أخبر أبي أني سأمكث هنا بعض الوقت، وهو كما قلت لك في المستشفى، بسبب حادث وقع له هو وأخي الأصغر، ولا أريد أن أكون سبب قلق له وهو في مرضه هذا، وأيضًا نفس الأمر بالنسبة لعائلتي.

فقال أمرزاق: أنت على حق، ولكن هذه المشكلة حلها سهل جدًا، لو أن معك أرقام تليفون منزلكم والمستشفى ومكتب والدك. فأنت أخبرتني أنه رجل أعمال كبير في العاصمة، لذلك تستطيع أن تترك له خبرًا مع المقرّبين، أنك ستمكث عندنا أسبوعًا، إذا كان هذا لن يعطلك أو يزعجك طبعًا.

فقال عبد الله: نعم، ولقد صدقتك القول، ولكن عذرًا، أين هذا التليفون؟ لأني لم أرَ في القرية أي شيء يدل على تقدم الاتصالات بها.

ضحك أمرزاق مقهقهًا، فأحس عبد الله بالخجل وبعض الانزعاج، ولكن أمرزاق قال وهو يتابع ضحكه: هكذا أنتم يا سكان المدن في كل العالم، دائمًا تظنون أن هؤلاء الناس الذين يعيشون في القرى الزراعية متخلفون عن وسائل الاتصال والراحة الحديثة. وتوقف هنيهة عن الضحك، ثم أردف قائلًا: ولكن هناك الكثير من القرى في العالم تتوفر فيها كل وسائل الراحة والاتصال الحديثة.

فابتسم عبد الله وقال: يا لك من حاذق يا سي أمرزاق.

فضحك أمرزاق وقال:

"يكاد خلي أن يرميني بالمكرِ

لأن بي بعض قبس من نور الفكرِ"

فقال عبد الله: وشاعر أيضًا، تبارك الله.

فقال أمرزاق: اطمئن يا ولدي العزيز، التليفون موجود بمنزلي البسيط هذا، وتستطيع أن تطمئن عن طريقه كل من عائلتك وأبيك.

فقال عبد الله: إن أكثر شيء سيسر به أبي، أني وجدتك، إذ أن هذا الأمر كان يقلقه جدًا.

فقال أمرزاق متعجبًا: لهذه الدرجة!

وبينما هما يتحدثان، أتى لهما الخادم مصطفى بالإفطار، واعتذر عن الخادمة أنها لم تأتِ حتى الآن.

فأثار ذلك قلق أمرزاق عليها، وقال لمصطفى أن يستطلع الأمر، لعل وعسى أن يكون المانع خيرًا، فإن كان قد حدث شيء، فليخبره حتى يهب لمساعدتها، فقد كان لتلك الخادمة وضع خاص لديه، وكان يعتبرها كأخت له، كما كانت هذه المرأة من أعز صديقات زوجته المتوفاة، وكانت هي من قامت على خدمة زوجته وهي مريضة، حتى قابلت خالقها.

ولذلك أمر خادمه مصطفى أن يطلب من أبو جودة وأبو عامر أن يستقصيا أخبارها حين يستيقظا، وذلك إذا تأخرت أكثر من اللازم.

ثم قال لمصطفى: اذهب أنت الآن يا حاج مصطفى، ونل قسطًا من النوم، حتى تستطيع أن تزاول أعمالك بالنهار. ولكن الحاج مصطفى أبدى لأمرزاق عدم رغبته في النوم، وأنه يفضل البقاء لخدمته هو وضيفه. والحقيقة أن أمرزاق لم يكن يتعامل مع خدمه في يوم من الأيام على أنهم خدم عاملون عنده، بل كان يعاملهم على أنهم إخوته

وأسرته التي حُرم منها، بسبب تغرب أبنائه وفراق أحبابه بسبب الموت. وربما كانت خصال التواضع والمحبة والتعاون متأصلة في نفسه منذ الصغر، وذلك لأن أمرزاق كان فنانًا موهوبًا، وكان رقيق الحس للغاية، وذو ذوق أصيل جدًا. كما أنه كان قد نشأ يتيم الأب، ولم يكن له إخوة إناث أو ذكور، وعندما كان في شرخ الشباب، فارقته أمه لتمضي عند ربها مؤمنة محتسبة. وكان في تلك الأيام هائمًا بحب أم أولاده، صبح، فتزوجها بعد وفاة والدته بستة أشهر، وعاشا معًا حياة سعيدة، وأنجبا الأولاد والبنات. ولكن سرعان ما تزوجت البنات، ومضين مع أزواجهن لدول الخليج وفرنسا، أما الأولاد فقد كانوا ثلاثة، تزوج كل منهم بعد التخرج، ثم عملوا في مجالات التجارة والهندسة والمقاولات بالخارج، ويبدو أنهم تأثروا بأزواج شقيقاتهم، فآثروا العمل في أوروبا ودول الخليج. وتمخض عن تلك الأحداث أن رجع أمرزاق كما كان في شبابه وحيدًا، وكان أولاده يدعونه إلى زياراتهم في الشتاء، فكان يلبي دعوة أحدهم، ولكنه لم يكن في وفاق مع زوجتي ابنيه الأوسط والأصغر، بسبب جشعهما المبالغ فيه، ولأنهما كانتا مغرمتين بحب السيطرة على زوجيهما، كما كان الابنان في صراع بينهما مرير. وفي كل الحالات، كان الأفضل لأمرزاق الإقامة بمنزله، حيث كان يسترجع ذكرياته هو وزوجته التي فارقته بسبب المرض منذ سنوات قليلة، كما كان يحب الاهتمام بحديقته، وأن

يأنس لسماع الموسيقى بكافة أشكالها، كما كان مهتمًا بأعماله الفنية على المعادن والفضة، وبأعمال غيره من الصناع، لأن الرجل يمارس عمله في تجارة التحف واللوحات، مما جعله مشغولًا عن الإحساس المتواصل بالوحدة والفقد. ولكن ربما كانت تعاوده الذكريات من حين لآخر، فتشجيه، فيذهب لسماع أم كلثوم أو فريد الأطرش أو أغاني عبد الوهاب القديمة. كما كان يحب الحديث مع خدمه والاهتمام بمشاكلهم وأحوالهم.

وقد كان دائمًا يردد تلك العبارة التي قالها المناضل المصري مصطفى كامل:

"ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط."

الفصل الرابع

مضت أربعة أيام على لقاء كوثر بعبد الله، وكان كل منهما يتوق للقاء الآخر بعد لقائهما الأول على رأس الحقل، وكانت كوثر تذهب وتجلس تحت الشجرة لتستظل بها من هجير الحر في أيام يوليو الحارة، وكأنها كانت تشتم نسيماً يحمل رائحة عبد الله. وكانت وهي تمشي في الاتجاه المؤدي للشجرة تتمنى لو وجدت عبد الله جالساً تحت الشجرة، وفي مرة من المرات تهيأ لها وكأنه جالس تحت الشجرة في هيئته التي رأته عليها أول مرة. وكانت تتمنى كثيراً أن يأتي عبد الله مصادفة عندما تكون جالسة تحت الشجرة.

والحقيقة أن عبد الله هو الآخر كانت تراوده كثيراً فكرة أن يترك محل أمرزاق ويذهب لرؤية كوثر وأهلها بحجة أن يشكرهم على استقبالهم الرائع له، ولكن الحياء كان يمنعه، كما أنه خجل أن يطلب من السيد أمرزاق رؤية السيد أمزيان ليشكره هو وعائلته لأنهم ساعدوه في الوصول إليه. ويبدو أن سر خجله الشديد كان شعوره بالحب نحو كوثر، مما يجعله يظن أن زيارته فيها غرض خفي عن أمرزاق ووالدها اللذين يحترمهما كثيراً ويجلهما، وقد كان يخشى أن يطلعا على هذا الغرض فيظنا به الظنون، وأنهم أكرموه وقربوه

وإذا به ينظر إلى ابنتهم نظرة عاشق يغارون منه عليها. ولكن كانت كوثر هي الأخرى معجبة بعبد الله لحد الشغف، وكانت تفكر كثيراً في هذا الوافد الغريب عن قريتها. وقد بدأت والدة كوثر تلاحظ أن كوثر في كثير من الأحيان تكون شاردة، كما لاحظت عليها بعض الشجن الذي يكتنفها، فأقلقها حال ابنتها، وفكرت بأنه ربما يكون قد أصابها مرض ولكنها لا تريد أن تشكو من الألم حتى لا تقلق أمها، وبالتالي يجلب ذلك قلق أسرتها كلها عليها. كما فكرت الأم الطيبة أن ابنتها ربما تعاني من حال ما لا يعجبها، أو أن تكون قد تشاجرت في الطريق أو في الحقل مع إحدى القرويات ولا تريد أن تخبر والديها، ولكي تتحقق من الأمر سألت لا لا تنيهان ابنها علاء عن حال أخته، فأخبرها أن كل الأمور عادية، وأنه لم يلاحظ أن أحداً أغضب كوثر أو تشاجر معها، فلم تجد بداً من أن تسأل كوثر عما يعتريها.

وعندما سألت أم كوثر ابنتها عما لاحظته عليها، أخبرتها كوثر أنه ليس ثمة أمر هام، وأنها بخير، ولكنها في الأيام الماضية كانت تعاني من آلام الطمث.

فقالت لها أمها: أخبرتك مراراً يا كوثر أنك يجب أن تستريحي عندما يأتيك الحيض، وأن لا تخرجي من الحقل، وأن تدعيني أخرج للحقل بدلاً عنك، وأن تشربي من العسل الأبيض لتُعيني قلبك وجسمك على تحمل الضعف في تلك الفترة.

فقالت لها كوثر: أنا يا أمي لم أحس بشيء إلا عندما لاحظتِ أنتِ ذلك، ولم يستمر الأمر طويلاً. ولكنني أجد نفسي بعد الحيض متضايقة بعض الشيء، ولست في مزاج جيد، ثم...

ولكن كوثر لم تكمل وسكتت.

فقالت الأم: ثم ماذا يا حبيبتي؟

فردت كوثر، وصوتها يعتريه بعض التلعثم: ثم إني شغلني أمر العم أمرزاق، ويا ترى ما قصة هذا الغريب الذي زاره؟ وهل جاء ليعطيه أمانة كما قال؟ أم أنه من رجال الدرك وجاء يتحرى عن العم أمرزاق؟

فقالت الأم: ولماذا يتحرى الدرك عن العم أمرزاق يا كوثر؟!

فقالت كوثر: يبدو أنك نسيتِ يا أماه أن العم أمرزاق كان من الأشخاص الذين يعارضون الثورة ضد الفرنسيين في شبابه، ثم استطردت قائلة: أنت من قلت لي ذلك يا أمي.

فقالت لا لا تنيهان: لا يا كوثر، أنتِ فهمتِ كلامي خطأ، أو ربما أخذتِه على محمل آخر.

فعمك أمرزاق لم يكن يعارض الثورة، وإنما كان يرفض أساليب الفرنسيين الوحشية مع الثوار بشدة، وكان غير مؤيد لأن تكون الطريقة الوحيدة لتفاهم أمتين عريقتين هي القتال حتى الموت. كما

كان لا يعجبه نظرة الفرنسيين للجزائريين الأحرار، فلقد كانوا يستهينون بالأكثرية الساحقة من الأمة، ويتعالون على كل شخص عربي وأمازيغي. كما أنهم حولوا أمر استعمارهم لحملات تبشير وحرب صليبية كريهة، وكان يقول في ذلك إن الأمم البائدة المتقدمة ما أهلكتهم سوى خصلتين: الخصلة الأولى هي الشح، الذي هو رأس كل فساد، أما الخصلة الثانية فهي التعصب الديني لطائفة يُراد لمذهبها أو لدينها أن يكون هو المعتقد الأول للناس في تلك الدولة. ومن المحزن أن يسود مثل هذا الشعور في دولة لها تاريخ ثقافي وحضاري مثل فرنسا.

كما كان يرى أن الثورة ستنجح، لأن العبث بتراث أي أمة وعدم احترامه هو قنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر في أية لحظة. ولكنه كان يرى أنه رغم نجاح الثورة، فسيأتي حتماً وقت يضللها فيه صراع سماه "صراع التيارات في الضمير الجمعي للأمة الواحدة".

لذلك فالأحرى برجال الثورة، وبالقادمين بعدهم، أن يحذروا من تلك الحتمية التي يمكن أن تؤدي لوضع التيار المتشدد لعقيدة ما في قمة الهرم الطبقي للأمة.

فقالت كوثر: ولكن كيف يمكن لتلك الحتمية أن تضلل الثوار والقادمين بعدهم، ولا يلاحظها أي منهما لعهود طوال؟ إذا كان الثوار هم من كانوا ينادون بالانفصال عن الاستعمار، وأن تصبح

بلادهم حرة، وكيف يمكن أن تضلل القادمين بعدهم وهم على نفس نهج من سبقوهم؟!

فقالت لا لا تنيهان: لا أعرف يا ابنتي، فهكذا سمعته يقول لأبيك عندما كان يزوره في مرة من المرات وكانا يتناقشان حول الوطن.

ثم استطردت قائلة: عمك أمرزاق هذا تفكيره معقد، لأنه درس الفن والفلسفة في أوروبا، كما أنه عاش في مصر وبيروت وتونس فترة من عمره، وها هو الآن، وقد صادق أهل الخليج بسبب عمل أبنائه معهم. ولكن لا أظن أن الدرك سيتحرى أمره، لأنه وإن كان يفهم جيداً السياسة، إلا أنه يمقتها ولا يحب العمل بها. ولكن كما سمعته يقول مرة إنه يكره العمل بالسياسة، ولكنه يشفق على السياسيين مما يحملونه على كاهلهم من أمانة سيسألون عنها في يوم ما أمام الله تعالى، حتى وإن لم يسألهم الناس.

فقالت كوثر: ولكن يا أمي، حسبما أعرف عن العم أمرزاق، أنه يعمل في صناعة الحلي الفضية وتصميمها، وهو قد تمرد على حال صناع الحلي الفقراء، فأصبح منذ فترة يصدر أعماله للخارج، وله عملاء في كل الوطن العربي، وفي أوروبا، وفي أمريكا، ولقد مد نشاطه لتصميم المشغولات الذهبية أيضاً. وقد يطمع فيه أحد من أصحاب النفوذ الذين يتصيدون في الماء العكر، فيعملون على تهديده ببعض

معاملاته، ويوهمونه أن معاملاته هذه غير قانونية، فيتمكنون من الإيقاع به.

هنا قالت لالا تنيهان: لعلكِ في هذه تكونين على حق، وإن كنت لا أفهم كثيراً في هذه الأمور التي تحدثتِ عنها، غير أنكِ أقنعتني، فقد يكون أمر هذا الضيف مثيراً للريبة.

ودخل أمزيان عليهما المطبخ وهما يتحدثان، وداعبهما قائلاً: عن ماذا تقول عصفورتي الجميلتين من أسرار؟ فضحكت لا لا تينهان، وأطرقت في خجل.

ولكن كوثر جرت نحو أبيها كطفلة، وروت له ما دار بينها وبين أمها، وتساؤلاتها حول الغريب.

فابتسم أمزيان، وقال لها: يا لخيالك الجموح يا كوثر، ثم استطرد قائلاً: أعلم أنك تحبين العم أمرزاق لأنه صديقي، ولأنه رباكِ معنا وتعتبرينه في مقام والدك، ولكن لا تقلقي.

فقالت لالا تينهان تمازح زوجها: أنت لا تنصف أمرزاق هكذا يا زوجي العزيز.

فقال أمزيان: كيف؟ ونظر لها وهو مبتسم.

فقالت لالا تينهان، وكأنها تستفز كوثر لأجل المزاح: ابنتك لا تعز عمها أمرزاق من أجل أنه مثل والدها فقط، ولكن هذه القطة الماكرة تعزه وتخاف عليه، لأنه دائماً ما كان يغرقها بالهدايا الفضية من قلادات وخواتم وسلاسل وخلافه.

فقالت كوثر معترضة: لا والله يا أبي، إن أمي تتحامل عليّ.

فقالت لالا تينهان: بل هو كذلك.

فأخذت كوثر تعترض بشدة، وأخذ أمزيان بالضحك هو وأمها.

ثم قال الأب: كفى يا كوثر، ما أحمق شيطانك، إنها تتلاعب بك وتمازحك لتضحك منك.

فقالت لالا تينهان: إن كوثر ابنتي بريئة وجادة لدرجة تجعلها تنزعج من أي مداعبة بسيطة، تذكرني بنفسي وأنا صغيرة. ولكني بعد أن تزوجتك يا أبا كوثر، غيرت رؤيتي للحياة والكثير من مفاهيمي. ثم وجهت حديثها نحو كوثر وقالت: على فكرة يا كوثر، أبوك هو من علمني المزاح وسرعة الخاطر، وكم كان يفعل معي مثلما فعلت معكِ الآن.

وتضاحك الجميع.

وسحب أمزيان أحد كراسي المطبخ وجلس عليه وهو يستند بيديه على المنضدة التي تقابله، وقال في أسى: كانت أياماً جميلة التي عشناها معاً يا أم كوثر.

أتعلمين يا كوثر أن أمك هي أفضل ما حدث لي بعد أن عشت نيفاً وأربعين عاماً في الحياة، ثم كنتِ أنتِ وأخاكِ أفضل ما حدث في عمري وعمرها.

فقالت كوثر: أطال الله عمرك يا أبي، ولكني أريد أن أوضح نقطة مهمة لأمي، ألا وهي...

ثم نظرت لأمها وقالت: أنا يا أمي أحب العم أمرزاق لأنه ابن عم أبي، وهو بمثابة عم لي، كما أنه يا أمي ابن خالك، وهو بذلك يكون بمثابة خال أيضاً، وهو أيضاً من علّمني اللغتين الإنجليزية والفرنسية، فصار بذلك أستاذاً لي ومعلماً.

كما أنك يا أمي، أنتِ من قلتِ إنه لولا سي أمرزاق ما كنتِ تزوجتِ أبي، وأنه وقف بجانبكما حتى تزوجتما، وأنه خير أخ وسند لكِ ولأبي منذ عرفتموه.

فكيف إذن لا أحبه محبة الفتاة لعمها وخالها؟ وكيف لا أقلق عليه إذا أحسست أنه قد أحيط به خطر، لا قدر الله؟

ضحك أمزيان، وقال مداعباً لابنته: يكفي ذلك عن أمرزاق يا كوثر، فلقد جعلتِني أغار منه!

فضحكت كوثر: إنه العم أمرزاق يا أبي، فهل من المعقول أن تغار منه لأجلي؟

فقال أمزيان: وما لي لا أغار، وأنا الأب المحب لابنته الغالية وزهرته الرقيقة؟

فقالت لا لا تينهان: إذا كنت تغار من أمرزاق، فماذا سيكون حالك حين تنتقل كوثر وتتزوج؟ يبدو أنك ستكون حموًّا غيورًا وصعبًا، وأنك ستكون طابورًا خامسًا بالنسبة لزوج ابنتكِ المستقبلي، يا لهف أمه عليه!

فقالت كوثر بخجل بالغ: أمي، يكفي هذا!

وقال أمزيان ممازحًا زوجته: ها أنتِ قد أخجلتها وأحرجتها، فماذا أفعل معكِ الآن؟

فقالت لالا تينهان: ولكن أليس ذلك مصير كل فتاة؟ وكل عائلة تدعو الله أن يرزق ابنتها زوجاً صالحاً يسعدها ويؤمن مستقبلها، وتُرزق منه بالأولاد والبنات؟

فقالت كوثر: أمي، ماذا أنتِ تقولين؟

فقال أمزيان: آمين يا رب العالمين.

فانفجرت كوثر في وجه أبيها ضاحكة، وقد اصطبغ وجهها باللون الأحمر: أبي، أراك تجاري أمي وتعوم على عومها، وها قد صرتُ فريسة مزاحكما.

فضحك أمزيان، وقال ممازحًا يقصد مداعبة كوثر: وقال حسناً حسناً، يكفي حديثاً في أمر زواج كوثر المستقبلي يا أم كوثر.

فقالت كوثر: أبي، أنت لست سهلاً إطلاقاً. حسناً، سأتركك أنت وأمي الآن عقاباً لكما.ثم جرت مسرعة وهي مغمورة بالخجل نحو غرفتها وسط ضحكات أبيها وأمها.

في هذه الأثناء، كان عبد الله يلازم أمرزاق في محله الصغير، وكان أمرزاق قد استقبل أيضاً ضيفه أبو مروان الكويتي، وكان أبو مروان قد أتى للجزائر في زيارة عمل، وكان قد أنجز عمله قبل أن يأتي لزيارة أمرزاق، ولكن يبدو أن أبا مروان لم يكن قد أتى لزيارة صديق فحسب، وإنما كانت لديه مخططات أخرى تتعلق بأمرزاق وعمله بصناعة المصوغات الفضية والذهبية.

وقد كان أبو مروان يرى أن أمرزاق ليس مصمماً وصانعاً فقط، ولكنه فنان، وفنه هذا مطلوب وثمنه غالٍ جداً، كما كان يفكر في استغلال علاقات أمرزاق بالفنانين الذين من نوعه في الوطن العربي،

وخصوصاً فناني مصر الذين اشتهروا بالحفر على النحاس والخشب وصناعة الأرابيسك والخياميات، لأن أبا مروان كان يفكر في إنشاء مؤسسة معمارية تستغل تلك الفنون في إنشائها المعمارية، كما أنه يريد أن يُلحق بتلك المؤسسة قسماً خاصاً بالحُلي الفضية والذهبية، يقدم هذا القسم تصميمات لم يصممها مصمم من قبل في العالم. ولقد استقبل أمرزاق أبا مروان استقبالاً حافلاً، وجعله في جناح خاص به في فيلته. ولكن أمرزاق جعل عبد الله قريباً منه. وبعد أن استراح أبو مروان من عناء السفر، وبعد أن تناول إفطاره بصحبة أمرزاق وعبد الله، ذهب في صحبتهما إلى محل أمرزاق، ودار الحديث بينهم حول تصميمات الفضة الأمازيغية الأصلية، وقام أمرزاق بإخراج بعض القطع ذات الأشكال الرائعة، وأخذ يعرضها على عبد الله وعلى أبي مروان.

وكان أمرزاق قد عرف أبا مروان بشخصية عبد الله الحقيقية، وأن عبد الله باحث في التاريخ الأمازيغي، وشدد على أبي مروان أن لا ينادي عبد الله بأي لقب غير اسمه مجرداً، لأن عبد الله لا يريد أن يعرف أحد من الأهالي أنه باحث في التاريخ الأمازيغي، لغرض في نفسه.

ولقد أقدم أمرزاق على كشف شخصية عبد الله العلمية بعد أن شاوروه، لأن أمرزاق رأى بحكمته أن أبا مروان ضيف، ولا يجوز في

عرف الكرام أن يُخفوا شخصيات ضيوفهم عن بعضهم، كما رأى أنه ربما يفسر أبو مروان موقف أمرزاق بأنه يخادع ضيفه إذا اكتشف حقيقة شخصية عبد الله فيما بعد، فيؤثر ذلك مستقبلاً على علاقتهما، وعلى نظرته العامة لأهل الجزائر.

الفصل الخامس

كانت الأيام تمر ثقيلة على كوثر وعبد الله، فلقد كان كل منهما يريد لقاء الآخر، وكان أمرزاق قد انشغل عن زيارة أمزيان وعائلته بضيفيه عبد الله وأبو مروان الكويتي، ولكن استجدت أمور صحية عند أمرزاق ألحت عليه أن يزور أمزيان وعائلته. فلقد حدث أن التوى كاحله وهو يصعد السلم في يوم من الأيام، وتعرض جراء هذا الالتواء لآلام شديدة في قدمه، لم تستطع أن تعالجه المراهم ولا المسكنات التي كانت لديه، والتي كان قد اشتراها عندما كان يزور بعض البلاد العربية والأوروبية. وكان أمرزاق يشكو من الآلام في قدمه من قبل بسبب كثرة الحركة من إثر إصابته بالروماتيزم، وعندما أعيا الألم أمرزاق، تذكر أمرزاق أمزيان ومهارة ابنته كوثر في الدلك بزيت الزيتون.

وفي أحد الأيام، اصطحب أمرزاق عبد الله في سيارته وذهبا معًا لزيارة أمزيان. ولقد رحب أمزيان بأمرزاق وبعبد الله، ووضع أمامهما الحلوى وكل ما لذ وطاب. وسأل أمرزاق عن كوثر، فأخبره والدها أنها على وشك أن تصل من الحقل، وما هي إلا برهة قصيرة قضاها الرجال الثلاثة في السلام والسؤال عن الأحوال حتى حضرت كوثر

وطرقت الباب على أمها، فأدخلتها أمها بسرعة وأخبرتها أن ثمة ضيوفًا عندهم اليوم.

فسألت كوثر أمها: ومن يكون هؤلاء الضيوف؟ فأخبرتها أمها أنه العم أمرزاق ابن خالة والدتها. عندئذ أرادت كوثر أن تدخل لتسلم عليه كعادتها معه، ولكن أمها نهتها عن ذلك، وأخبرتها أن معه هذا الغريب الذي أرسلته إليه منذ عدة أيام لأنه كان يدّعي أن عنده أمانة تخص أمرزاق. عندئذ فرحت كوثر فرحًا شديدًا، ولكنها أخفت أمر هذا الفرح عن أمها، ثم دلفت مسرعة داخل البيت، وهي تصارع الأفكار: يا تُرى كيف سيكون اللقاء؟ ولكنها أحست أخيرًا أنها قريبة من عبد الله.

وكان عبد الله هو الآخر يتحيّن الفرص للقاء كوثر، ويتمنى أن تدخل عليهم وهم جالسون، ولكنه لم يكن يدري كيف سيكون ذلك، ولم يكن يملك سوى الانخراط في الحديث مع العجوزين حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا. ولكن أمرزاق قطع حديث أمزيان مع عبد الله بسؤاله عن كوثر، وأخبر أمزيان أنه يريد منها أن تعالج كاحله حتى تكفّ عنه آلام الالتواء الشديدة، فلقد كان يسمع عن مهارتها من كثيرين من أهل القرية الذين عالجتهم أو عالجت أحد أقاربهم، وكانوا يقولون دائمًا إن الله قد جعل الشفاء في يديها كرامة منه. حينئذ نادى أمزيان على أم كوثر لتخبر كوثر أن خالها أمرزاق يريد

لقاءها، فعادت أم كوثر وأخبرته من خلف الأبواب أن كوثر مستعدة للقاء خالها، فقام أمزيان بإدخال أمرزاق إلى كوثر التي رحبت بدورها كثيرًا بالخال أمرزاق. فأخبرها بما يعانيه من آلام كاحله، فاستفسرت منه كيف حدث الالتواء، فأخبرها أنه كان ينزل على السلم مسرعًا للحاق بصلاة العصر، وإذا بقدمه تنثني تحت ثقل جسمه، مما جعله يحس بألم بالغ. فطمأنته كوثر، ثم قامت بتسخين زيت الزيتون وعصر بعض الليمون عليه، ثم وضعت على الخليط من زجاجة صغيرة بيديها سائلًا دهنيًا، ثم طلبت من العم أمرزاق أن يستلقي على ظهره أمامها، ثم قامت بدلك قدمه وكاحله بذلك الزيت.

وكانت كوثر تدلك بطريقة احترافية جدًا، وكانت تعالج عظام وأوتار الكاحل بكل مهارة حتى قامت برد العظام لمكانها. ثم قامت بإحضار رباط ضغط من كتان، كانت هي من صنعته خصيصًا لمثل تلك الحالات، ثم لفت القدم من منطقة الكاحل بطريقة معينة لا تعيق العم أمرزاق في الحركة، وأخبرت أمرزاق أن لا يضغط على قدمه لمدة ثلاثة أيام، وأن يكون خفيفًا عليها في مشيه، وأخبرته أنه يمكن أن يأخذ حقنة مسكنة في الصيدلية في حالة إذا أحس بألم شديد في الليلة الأولى التي تلي الدلك، وذلك بسبب أن الزيت سيتفاعل مع الالتهاب الذي حدث بسبب الالتواء. ولكن لم يحدث أن أحس

أمرزاق بألم، فلقد أحس وكأنه قد شُفي من الألم تمامًا بعد أن دلكت كوثر ساقه.

وانتقل على الفور للحجرة المجاورة التي كان يجلس بها عبد الله منتظرًا ما سينجلي عن الأمر، وعندما دخل على عبد الله، لاحظ عبد الله قدمه المربوطة، فقام وأخذه من يده ثم أجلسه وجلس بجواره. فحياه أمزيان قائلًا: مرحبًا بك يا عبد الله. فرد عبد الله التحية، ومازح أمزيان أمرزاق قائلًا: قد نالت منك كوثر يا بطل. فقال أمرزاق: بل إن كوثر ابنتي، حفظها الله، تمكنت من رفع الألم عني بيديها اللتين وضع الله فيهما الشفاء. والله ما حزنت وما فرحت مثل اليوم يا أخي أمرزاق.

فقال أمزيان: ففيم فرحك، وفيم كان حزنك يا أخي؟ فقال أمرزاق: أما فرحي، فلأن الله أكرمنا بكوثر، وما ترفعه عن الناس من ألم بسبب مهارتها في الدلك ومعالجة العظام والكسور. أما حزني، فقد تساءلت وهي تعالجني: أما كان يجدر بتلك الفتاة الذكية أن تكمل تعليمها، ثم تدخل كلية الطب، فتعالج أهل القرية بما ستتعلمه من طريقتك وطرق العلم الحديث؟ لعلها كانت تتمكن من إيجاد طريقة تكون بين الطريقتين، فيصبح لدينا أفضل الطبيبات التي تعالج أمراض العظام في العالم.

فقال أمزيان: ما زالت صغيرة، وتستطيع أن تعوض ما فاتها، وأنت تعرف أني أول من أحزنه قعودها عن التعليم الجامعي، ولكنها هي من اختارت، بسبب خوفها على أمها عندما كانت مريضة. فقال أمرزاق: أعلم أن أحدًا لم يجبرها على ترك التعليم، وأنك عارضت كثيرًا قعودها في البيت عندما مرضت أمها، ولكني اليوم أقول لك: لا تركن لذلك يا أخي، فالبنت خسارة أن تترك هكذا. فقال أمزيان: من يدري، لعل الله يرزقها بزوج يشجعها أن تمضي قدمًا في طريق العلم. فقال أمرزاق ضاحكًا: هيهات أن يكون ما تطلب لابنتك عند زوج ابنتك، ولا يكون ذلك لفتاة إلا عند أبيها، أو من رجل صالح يرعاها ويقدّر أن مواهبها يجب أن يُنتفع بها أبناء وطنها.

فرد عليه أمزيان: أتقول ذلك وأنت من تعلمت في أوروبا؟

فقال أمرزاق: بل أقول ذلك لأني عشت في أوروبا ومصر وسوريا ولبنان والخليج والولايات المتحدة وكندا ولندن، ولقد تعلمت من أسفاري أن الرجل الشرقي، حتى وإن أحب أن تكمل زوجته تعليمها، فإنه يريد ذلك من أجل أن تنفعه زوجته في تربية أبنائه أو أن تساعده في مشاريعه الخاصة.

فنحن في وطننا الشرقي يا أمزيان، لا نكف عن نظرتنا النفعية القصيرة النظر والشديدة الخصوصية، وهذه النظرة لا يخلو منها

كثير من الأوروبيين والأمريكيين، ولكنها ليست عامة عندهم كما هي عندنا، بل هناك فريق كبير منهم يرى أنه يجب أن تُراعى مواهب المرأة في أية أمة حتى تتقدم تلك الأمة عن غيرها من الأمم.

ولأن التشريعيين في تلك الأمم يرون أن من حق المرأة أن تنجح كأم وزوجة، وأن من حقها في نفس الوقت أن تطلب نجاحها كعاملة، وأن يكفل القانون لها ذلك، وليس من حق أي أحد، مهما كانت درجة قرابته منها، أن ينكر عليها هذا الحق، وإن كان زوجها أو أباها أو أخاها.

وهنا قال أمزيان: أنت على حق، ولكن يفوتك أن في خلق النساء كثيرات غير قابلات للتعلم، كما أن هناك منهن من يفسدهن التعلم الحديث، ومنهن من يتمردن بمجرد حصولهن على قسط من الحرية، ومنهن من يتحولن لمستغلات جشعات، ومنهن من ينحرفن عن المبادئ والمثل العليا التي تربينا عليها، لأنهن ينشأن وفي نفوسهن أفكارًا تخالف كل المعتقدات، ويؤدي العلم عندهن إلى اتساع بؤرة تلك الأفكار لديهن، مما يجعلهن راغبات في نشرها بين بنات جنسهن، مما يفسد الباقيات. لذلك، فلا عجب أن تجد بعض النساء يعثن في الأرض فسادًا أكثر من الرجال. فما رأيك في ذلك يا أمرزاق؟

ونظر أمرزاق لعبد الله فوجده يريد أن يقول شيئًا، فقال لأمزيان: بل يخبرك ابننا عبد الله.

فقال عبد الله: الحقيقة أن الموضوع كبير، وأخشى أني أصغركما وأقلكما خبرة بالحياة يا سادة، ولكني أرى أن المرأة لها حق في أن تمارس حقها في التعليم والثقافة والتمدن. أما عن البعض منهن اللواتي يُسئن استخدام الثقافة والتمدن، فمثلهن كثير من الرجال، إذ إن الثقافة والعلم يهذبان الطبائع التي جُبل عليها الإنسان منذ حداثته، ولكنهما لا يغيران تلك الطبائع إلا بقدرٍ زهيد، فقديمًا قالوا إن المرء بأصغريه: قلبه ولسانه. ومن رأى أن اللسان ينطق بما يراه القلب، فإن أنكره الإنسان، بدا ذلك في أفعاله وفلتاته وخلجاته.

فمن كانت طباعه سيئة، فهي بلا شك ستؤثر عليه وعلى تعامله مع الناس، وعلى مسيرته في الحياة، وإن حصل على أكبر قدر من الثقافة.

ومن كانت طباعه حسنة، فهي، وبدون شك، ستجعله أكثر رقيًا عن غيره من الناس.

ولكن قد يعيش في فترة من فترات حياته معذبًا، وذلك من تأثير التفكير الخاطئ لمن حوله.

هنا قال أمرزاق: لا فُضّ فوك يا عبد الله.

وابتسم أمزيان وقال: ما شاء الله.

وقاطعتهم أم كوثر قائلة: العشاء أصبح جاهزًا، تفضلوا.

الفصل السادس

جمعت منضدة العشاء أخيرًا بين عبد الله وكوثر، وكانت كوثر في أشد حالات الخجل، لأنها لاحظت أن عبد الله كان يسترق النظر إليها ما بين حينة وأخرى، وكان يحاول أن يطيل النظر إليها، ولكنها كانت كثيرًا ما تشيح بوجهها عنه، لأنها كانت تخشى أن يلاحظ أبوها وأمها تلك النظرات. ولكن أمرزاق لاحظ تلك النظرات،

فداعب عبد الله قائلاً: كلْ يا عبد، ودعك من التفكير في الأمور البعيدة.

فقالت لا لا تنيهان: يبدو أن طعامنا لا يعجب السيد عبد الله عمر.

فقال عبد الله: عفوًا يا خالة، بل إن طعامكم لذيذ جدًا، ولا تنسي أن هذه ثاني مرة أطعم في هذا البيت الكريم. كما أني لم أنس عندما أتيت غريبًا أسأل عن السيد أمرزاق، فقمتم بواجب الضيافة يومها، ووضعتم لي على مائدتكم الكسكس واللحم والخضار مع المرقَة، كان طعامًا لذيذًا.

لم أنس مذاقه حتى اليوم.

هنا قاطعه أمرزاق مداعبًا: إذا ما أتى بك معي ليس صحبتي، ولا أنك كنت تحاول مساعدتي في انتهاء أوجاعي، بل هو طعام أم كوثر!

فضحك عبد الله، وضحك الجميع.

ثم استطرد عبد الله قائلًا: بل ما أتى بي حقًا هو أني أردت أن أشكر هذه الأسرة الكريمة على ما قدموه لي من مساعدة في أول يوم وطئت فيه قدمي تلك القرية الجميلة، وها أنا موجود هنا لأعبر لهم عن مدى شكري وامتناني.

وبمجرد أن أنهى عبد الله كلامه، نظر أمرزاق إليه نظرة ذات معنى، ثم نظر ناحية كوثر، وبسرعة نظر نحو أمزيان،

الذي رد على كلام عبد الله قائلًا: يعلم الله أن كل شخص من طرف أمرزاق نعتبره كابننا وأخٍ لنا، ولكن يا عبد الله، بصرف النظر عن ذلك، فما فعلناه في هذا اليوم معك هو واجب علينا كان يجب أن نؤديه نحو الضيف.

وهنا قال أمرزاق: وأي ضيف كان؟ بل كان ضيف كوثر عن خالها أمرزاق!

فضحك الجميع مرة أخرى.

وقال أمزيان لأمرزاق: دعك من هذا يا رجل، فلقد تقدمنا في السن، ولكنك لا زلت كما أنت دائمًا تعشق المداعبات والمزاح.

فاحذر، فربما تُغضب عبد الله أو كوثر.

فقال عبد الله: لا لا، فأنا أعلم أن الحاج أمرزاق يقصد خيرًا، وإنما الأمر يرجع الآنسة كوثر.

فقال أمرزاق مداعبًا: كوثر! أوتجرؤ كوثر أن تغضب من خالها العجوز الطيب الذي يتمنى لها كل الخير؟

فأخذت كوثر خيط الحديث وقالت: بل إن كوثر لديها أسئلة كثيرة عندك، تحتاج إجابات يا خالي، ولو لم تجبها بصدق وصراحة، ستصب كوثر جام غضبها على قدمك عندما تُغير لك الرباط في المرة القادمة، فاختر لنفسك.

فقال أمرزاق مازحًا: لا، لا، وأيم الله، فأنا لن أتحمل غضبك! سَلي ما تريدي وسأُجيب، ولكن بعد الطعام، فلا أريد أن يشغلني أي تفكير عن طعام بنت خالي اللذيذ.

وتدخل أمزيان في الحديث قائلًا: بمناسبة الأسئلة التي تريد أن تطرحها كوثر على خالها أمرزاق، فما رأيك يا أمرزاق أن تبيت عندنا

أنت وضيفك، ومن ثم تستطيع أن تجد الوقت الكافي للحديث مع بنت أختك؟

فأطرق أمرزاق إطراقة سريعة، ثم قال: بالنسبة لي أنا موافق على اقتراحك، فبداخلي شيء يقول: دعنا نسهر مع بعضنا ليلة مثل الليالي الخوالي، فالليالي الساهرة مع الأحباب لا تُعوّض، ولكن الأمر الآن لا يرجع إليّ، بل يرجع لعبد الله، فهو ضيفنا، ولا نريد أن نُرهقه أو نُحرجه.

هنا رد عبد الله مسرعًا: بل أنا معك كما تريد، أيها الخال الطيب.

ولكن أمزيان رد على أمرزاق قائلًا: عن أي إرهاق وإحراج تتحدث؟

وقبل أن يرد أمرزاق، استطرد قائلًا: أنت تعلم أن لدينا في منزلنا كافة وسائل الراحة للضيف، وله حجرة مستقلة عن بقية الدار، يستريح فيها كما يشاء.

فقال أمرزاق: حلمك يا حاج، فعبد الله لا يعلم ذلك.

فقال له أمزيان: إذًا، كان عليك أن تعلّمه لا أن تخوّفه، أيها العجوز الماكر.

فضحك الجميع.

فقال أمرزاق: أمزيان، أيها المشاكس، لا أريد أن أقرِضك أمام ابنتك، أو تحب أن أقول لها إنك أكبر مني بعشر سنوات؟

فقال أمزيان: بل هي تعلم تمامًا أن خالها من سن أولادي، وأنه كثيرًا ما يخطئ فأقومه بعصاي.

فضحك أمرزاق وقال: حذارِ يا عم أمزيان، فعصاك جاءت في عيني.

فقال أمزيان: لا بأس عليك، ولكن أرى أنك تطعم بيدك وفمك، فما دخل عينك؟

فضحك الجميع مرة أخرى من طرافة الحديث بين أمرزاق وأمزيان، ولكن أمرزاق لم يعرهم اهتمامًا وواصل طعامه بنهم، وهو ينظر لأمزيان متوعدًا بمزاح.

ثم لما انتهوا من الضحك قال أمرزاق: هل تعلمين يا كوثر أن والدك قضى أغلب عمره في فرنسا وفي العاصمة الجزائر؟

فخطف منه أمزيان خيط الحديث قائلًا: من يصدق أن هذا القروي العجوز، الذي يتلحف بملابس البدو والقرويين، كان أحد المحاسبين البارعين في أحد أكبر الشركات الفرنسية لمد خطوط السكك الحديدية؟ وكان ينتقل ما بين فرنسا والعاصمة الجزائر.

ثم ابتسم وهو يضع الطعام في فمه، وقال متعجبًا وهو يهز رأسه: أيام!!

فقالت لالا تنيهان: كم من رجال أصلحهم الزمان بعواطف نبيلة، وكم من رجال أنكروه فأنكرهم، وأنت يا أمزيان، ليس لأنك أبو أولادي، ولكن أنت تستحق كل خير.

فقال أمرزاق مداعبًا: ومن يشهد للعروس؟

فضحك الجميع، حتى أمزيان، الذي كان يشير بإصبعه نحو أمرزاق وكأنه يتوعده بمزاح.

وقال علاء: هكذا أنت دائمًا يا عمي أمرزاق، تضطهد أبي وكأنه خطف طعامك.

فقهقه أمرزاق وقال: نعم، فهذا الجرذ من ذاك السنور، ولن ينتهي القرض إلا في الصباح!

فضحك الجميع بقهقهة على ما كان من أمر علاء وخاله أمرزاق.

وكان عبد الله قد أنهى طعامه، فقاده أمزيان ليغسل يديه، ثم أرشده للمكان الذي كانوا يجلسون فيه. ورجع أمزيان للمائدة، فوجد أن أمرزاق أنهى طعامه هو الآخر، فقال له: أنت في بيتك، ولكن دعني أُسندك، فقد يكون بقدمك بعض الألم.

ولكن أمرزاق أشار إليه أنه لا يحتاج للمساعدة، وأن يجلس حتى ينهي طعامه.

ثم توجه له بالحديث قائلًا: سفرة دائمة يا أبا كوثر.

فقال أمزيان: بالهناء والشفاء، والله ما قدمنا لكم شيئًا حتى الآن.

وكانت كل من كوثر وأمها قد أنهتا طعامهما، وبقي علاء ليتم طعامه.

ومن ثم ترك كل من أمرزاق وأمزيان علاء لوحده على سفرة الطعام، ودخلا ليكملا الحديث حيث كان يجلس عبد الله في الأنتريه.

ونادت أم كوثر أمرزاق لتسأله عن قهوة الضيوف، وسألهم أمزيان بدوره، فاتفقا على أن يشربوها قهوة عادية.

وما هو إلا وقت قصير حتى عاجلتهم أم كوثر بالقهوة.

وقال أمرزاق وهو يرتشف القهوة: ما أطيبها! سلِمت يداكِ يا أختاه.

ثم استطرد قائلًا: ولكن يا أمزيان، ما هي الأسئلة التي تريد كوثر أن تسألني إياها؟

فقال: علمي علمك، ولكن يمكن أن أناديها، فتسألك هي بنفسها.

فقال أمرزاق: حسنًا، نادِها إذًا.

فنادى أمزيان على كوثر بصوت أجش.

فقالت: نعم يا أبي، بصوت ناعم له رنّة كأنها كرنات آلات النفخ الموسيقية.

فقال: تعالي هنا حالًا.

فحضرت بسرعة، ونظرت لأبيها تستفهم منه.

فقال لها: اجلسي هنا قبالة خالك، واطرحي عليه ما تريدين من أسئلة.

ويبدو أنها أحسّت في أول الأمر بالخجل والإحراج بسبب وجود عبد الله، ولكنها جلست وقالت: لا أريد أن أطيل عليك يا خال اليوم، وقدَمك موجوعة.

فقال أمرزاق: حسنًا، لا عليكِ يا عيون خالك، ثم ما علاقة رأسي بقدمي؟

فابتسمت كوثر وقالت: أنت هكذا دائمًا، تحوّل كل شيء لمزاح.

فقال أمرزاق: حسنًا، حسنًا، لا تغضبي يا أميرتنا، وما عليكِ إلا أن تلقي بأسئلتك في حجر خالك العجوز.

فقالت كوثر: حسنًا، السؤال الأول سياسي.

فقال أمرزاق: لا أحب السياسة، ولكن لا بأس، اسألي.

فقالت كوثر: قالت لي أمي عنك إنك كنت تقول في شبابك أنك كنت تخشى على الثورة من شيء اسمه "حتمية الثورة" أو "حتمية الثورات"، شيء من هذا القبيل، وأنا لم أفهمه.

نظر أمرزاق أمامه لحظات، وهو فاغر الفاه، وكأنه يتذكر، ثم قال: آه، تذكرت، نعم. ثم قال: انظري...

فقالت كوثر تداعبه: نظرنا.

فضحك، ثم قال: إن حتمية الثورات تعني ما ستؤول إليه الثورات في نهاية أمرها، وهي التي تضع فرضية وجوب تتبع مسار الثورة باهتمام بالغ، بحيث نعلم كل ما يستجد برجالها وبأحداثها، وما يطرأ عليهم من تغيّر، بحيث نعرف صحة خطّنا البياني في اتباعها. فإن استقامت، مشينا معها، وإن تعرّجت أو انعطفت أو التوت، انتبهنا لتلك الأحوال، بحيث نعرف هل حدث التعرّج أو الانعطاف أو الالتواء لهدف شرعي وشريف ونبيل، أم أنه يحدث لمصلحة مستغِلٍّ ما من داخل الثوار أنفسهم، أم بسبب طارئ سياسي إجباري، أم أن هذا التعرّج أتى من خارج الثوار، بسبب تطور ثقافة الشعب أو تأثرها بثقافة شعب آخر، أو من مستجد اقتصادي طرأ عليهم. وهذا الفكر يكون بمثابة الحارس الأمين على مقدرات الثورة، بحيث يحرسها من اليمينيين واليساريين المتطرفين، وتلك الأفكار السيئة التي

تروادهم عندما يختارون طريق التخلّص من الخصوم بطرق بشعة، ملتوية، وغير عادلة، فيُجرون المذابح والاغتيالات لخصومهم.

فقالت كوثر: عذرًا، ولكن لم أفهم شيئًا، فهل يمكن أن توضح أكثر؟

فقال أمرزاق: حسنًا. ثم أردف قائلًا: عندما تقوم الثورة، فهي تقوم لسببين، وهما: الظلم والمعاناة، كما حدث في الثورة الفرنسية. وهناك سبب الاحتلال والاستعمار، أو بسبب هيمنة أمة على مصير أمم ليست من بني جلدتها، كما حدث في الثورة المصرية، والثورة الجزائرية، والثورة العربية من قبلهم. وفي بداية الثورات، يكون المقاتلون من أصحاب العزائم والهمم هم قوام ومادة تلك الثورة، وهؤلاء المقاتلون الثوار يكونون من تيارات مختلفة، فمنهم صاحب الفكر الديني، ومنهم صاحب الفكر العلماني، ومنهم من له فكر مختلط من الفكرين. ومن بين هؤلاء، هناك من نجده معتدلًا، وليبرالي الفكر، ويريد تطبيق أفكاره بوسائل سلمية، ويكره أن يلجأ في يوم من الأيام لاستخدام وسائل القوة. ولكن وحتى إن ألجأته الظروف لاستخدام القوة، فهو سيستخدمها لحماية خصومه قبل حمايته، وهو لن يستخدم وسائل القمع مع أعدائه أو مع رفاقه المنافسين له على سدة الحكم، إلا في أحلك الظروف، وبطرق فيها نوع من النبل والعدل والرحمة والإنسانية، لأنه يعلم جيدًا أن القمع والاغتيالات والمذابح يُجرّدون الأمة من الرجال المفكرين العظماء،

وهؤلاء هم أهم أدوات التقدم والعزة والحكمة، التي يجب أن تتحلى بها كل أمة عند التعامل مع الأمم الأخرى. ولأن عامل التقدم الأول لأي أمة هو تنوع الأفكار وحريتها، ولأن التخلص من المفكرين يمهّد لظهور دولة كل سكانها من الخراف، الذين يخافون الذبح لمجرد إبداء رأيهم، فإذا عزف كل شخص في بلد ما عن إبداء رأيه بصراحة، فلا أحد من مواطنيه سيرعى بإخلاص مصالح هذا البلد. وهنا يصبح الجميع خونة، وتختل الأحوال، ويتعرض هذا البلد للاستعباد من الأمم الأخرى. وهذا يحدث لأنه دائمًا يوجد في التيارات الثورية من هو متشدّد الفكر ومتطرّف التصرّف، وهو شخص لا يرى فكرًا صحيحًا إلا فكره هو، مثل باقي الأشخاص، ولكنه يرى أنه لكي يسود ويتغلّب فكره يجب القضاء بأي طريقة على أصحاب طرق الفكر الأخرى، وهو بدلًا من أن يتخذهم أصدقاءه أو حلفاءه يتخذهم أعداء بسبب اختلافهم معه، فيستخدم ضدهم أقسى وأبشع وأحطّ التصرفات والإجراءات، لتوهّمه أن ذلك يحميه منهم ويعطيه مجالًا واسعًا لممارسة سلطويّة أفكاره.

وهؤلاء الأشخاص يعلمون جيدًا أن وسائلهم مكروهة، لأن محركهم هو العنف المتولّد من الكراهية للآخر المختلف عنه والمختلف معه، ولأنهم لا يعترفون بأخطائهم، ولأنهم يسكتون ضمائرهم

بحجّة أنهم جانب الخير، المباح له أن يفعل أي شيء لحماية الخير والحق والثورة.

ولأنهم إذا تولّوا أمر أمة جعلوها تتراجع في مصافّ الأمم، وجعلوها تُمنى بالهزائم المنكرة، لأنهم يستخدمون الخوف والذلّ ليحققوا انتشارهم، مما يصيب الأمة بأمراض الجبن، والكراهية، والسلبية، والتسلّق، والنفاق، واللامبالاة.

ولكن قد يصبح أصحاب هذا الفكر مطلوبين في لحظة من لحظات عمر أي ثورة، بسبب حاجة من أُلقي على عاتقه أمر سلامة الثورة، حتى يحميها من الأخطار التي قد يتسبّب بها الخونة من الرافضين لمنطق الثورة، وأهدافها، ومثلها العليا.

ولكن الحقيقة المفزعة والمؤلمة تتلخّص في أن هؤلاء المتشدّدين هم أشدّ خطرًا على الثورة من أعدائها أنفسهم، لأنهم يريدون تملّك أحلام الأمة، بحيث يصبح أهل هذه الأمة عبيدًا يظنّون أنهم أحرار.

ويخطئ المعتدلون خطأً كبيرًا، يذبحون به أنفسهم يوم يميلون آذانهم لهؤلاء المنحرفين، ويتّخذون من وسائلهم درعًا لهم.

وحتى لا أطيل عليك، هناك الصنف الثالث من الثائرين، وهو الصنف المتراخي، الذي انضمّ للثورة ليس عن إيمان بمبادئها، ولكن عن مصلحة يدّعيها له مثل مال، أو عمل، أو حرص على حياة، أو

جاه يريد تحقيقه، أو إرضاء لشخص ما يؤمن بهذه الثورة. وهؤلاء يجب مراقبة تصرفاتهم دائمًا، لأنهم إن وصلوا لسدّة الحكم، باعوا مبادئ الثورة من أجل غاياتهم المادية بكل سهولة، وكانت أحلام وصولهم عندهم أهم من أي مثل عُليا أو مبادئ سامية. وحتميّة الثورة تعني أنه يجب أن يؤول الحكم لأحد الفرق الثورية الثلاثة. ولذلك، فإنه يجب ألّا يُترك الأمر عشوائيًّا، بل يجب على المعتدلين مراقبة ودراسة كلٍّ من الفئتين السابقتين، وهما المتشدّدين والمتراخين، بحيث يتجنّبون كل طرق الإيقاع بهم التي سيختلقها كلٌّ من المتشدّدين والمتراخين، وبحيث يتمكّن المعتدلون من فضح أهدافهم، وطرقهم، ووسائلهم، مما يجعلهم غير محلّ إعجاب من طرف الرأي العام ومن الغوغاء. وبذلك يحولوا دون صعودهم فوق قمّة هرم الحكم لدى أمتهم، لأن صعود المتشدّدين والمتراخين لا يعني إلا تأخر الأمة وتخلّفها وذلّتها بين الأمم، مهما اتّخذت من مظاهر العزّة الزائفة. فهل فهمتِ يا عزيزتي ماذا كنت أعني بحتميّة الثورة؟

فقالت كوثر: نعم، فهمت يا خال أمرزاق، ولكن من الذي يمكن أن يصل ذهنه إلى ما وصل ذهنك إليه في الوقت الحاضر؟ فلا شك أن ما تقوله صحيح، ولكن ما تقوله يحتاج العالم إلى خمسين عامًا

أخرى من التجارب السياسية، حتى يصل لطريقة تمكّن الساسة من الاستفادة منه.

هنا قال أمرزاق: يا صغيرتي، لماذا كل هذا الوقت؟ فالأجدر بالعالم أن يكون قد تعلّم بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية.

فلقد ظهر في الحرب الثانية ما فعله المتشدّدون بألمانيا، واليابان، وإيطاليا، وما جلبوه على أممهم من خراب.

وكيف سلّم المتراخون فرنسا للنازي في منتصف الحرب.

وفي الحرب العالمية الأولى، اتّضح كيف أضرّ المتراخون بتركيا، وببولندا، وإسبانيا، ومصر، وبفلسطين. فالتاريخ عِظة لمن أراد التعلّم والعظة.

الفصل السابع

بعد أن أجاب أمرزاق كوثر، قال عبد الله: تحليل رائع يا سي أمرزاق، لقد كنت من قبل أكترث لفكرة أن الفنانين لا يفهمون شيئًا في السياسة، ولكنك جعلتني الآن أغيّر مفهومي هذا.

فرد عليه أمرزاق قائلًا: اسمح لي أن أقول لك إن فكرتك لم تكن صائبة، فالفنان هو أكثر الناس فهمًا للسياسة، ولكنه يكره ممارستها كما يكره الموت! لأنها تحدّ من حريته في الاستمتاع بالحياة إذا فُرضت عليه ممارستها، ولأنها قد تجعله قاسيًا وشديد الواقعية، وهو من يستقي فنه من نهر الخيال، ومن العاطفة العذبة، ومن الحنو والرأفة والمحبة.

كما أنه يلمس الجمال في كل شيء، حتى في طرق الذين يختلفون معه في مدارس الإبداع. كما أن بعض الفنانين يفضلون الحياة البوهيمية على الحياة العادية، تلك الحياة التي لا تتفق مع ما يجب أن يظهر في السياسي من التزام بأخلاقيات أمته، بل وبأكثر منها.

هنا باغته عبد الله قائلًا: ولكن ماذا تقول في الذين يقولون إن السياسة فن أيضًا؟

فهي فن الحصول على الممكن، أو فن الممكن، وأرى أنها فن الحصول على كل شيء من لا شيء، وأنها فن تحقيق إرادة أمة من خلال التفاوض.

فأجابه أمرزاق قائلًا: قد يكون كل ما قلته صحيحًا، ولكن السياسة هي الفن الذي يمنع صاحبه من ممارسة فن آخر أمام الجمهور، وهي الفن الذي يجعل الناس تنسى أن صاحبه مارس فنًّا آخر غيرها.

لأن هذا الفن يشغل صاحبه عن باقي الفنون بإحداثيات الهموم والقلق والشكوك، ولأنها الفن الوحيد الذي يجعل لدى صاحبه شكوكًا في الجميع، وعبئًا على الضمير لا يُستهان به، وهي الفن الذي يغلب على كل ممارسات صاحبه.

هنا قال أمزيان: الله عليك!!

ولكن عبد الله قال: ولكن كيف يكون ذلك واقعيًّا مع إمكانية تعدد المواهب لدى الإنسان؟

فقال أمرزاق: أجيبك على ذلك.

عندما نأخذ المغني كمثال، نجد أنه يستطيع ممارسة الشعر والتلحين والعزف أمام الناس، كما أنه يستطيع أن يمارس فن التمثيل السينمائي والمسرحي.

ومن الممثلين من عمل بالإخراج والتأليف، مثل أنور وجدي المصري، ومثل شارلي شابلن الإنجليزي، ومنهم من كان ممثلًا ورياضيا شهيرًا.

ولكن السياسي إذا عمل بالسياسة، فهو لا يستطيع أن يُعلن للناس ممارسة أخرى غير السياسة، فهو الملهم، وهو الزعيم، وهو الراعي، وهو الوزير. أما مواهبه الأخرى فلا يستطيع أن يُنادى بها، وليس له مطلق الحرية في إظهارها، وحتى إن أظهرها، فهو لن يبلغ ما يبلغه المتفرغون من جودة وإجادة بها.

وأنت عندما تقرأ أدب ونستون تشرشل، تجده يغلب عليه الطابع السياسي أكثر من الطابع الأدبي، كما أنك ستجده لم يتمكن من اختلاق شخصيات مبهرة مثل همنجواي، مع أن همنجواي كان يكتب عن حدث كان تشرشل فيه هو أهم أبطاله الواقعيين، ولكن همنجواي استطاع أن يُبرز عذابات وبطولات هؤلاء الأشخاص الذين عاصروا الحرب، ولم يستطع أن يجاريه في ذلك أديب في عصره.

وهذا يقودنا لفكرة خطرت ببالي، ولا أعرف هل ستعجبكم أم لا، ولكني سأطرحها عليكم، وهي أن ليس كل من مارس الأدب نستطيع أن نقول عنه إنه كان فنانًا.

فهناك من مارس الأدب من منطلق أنه كان يمارس مهنة تتعلق بالأدب مثل الصحافة، والخطابة، والإعلام، والنقد، والفلسفة، إلخ.

وهناك من مارس الأدب من منطلق سعيه لإبداع عالم من مخيلته، يكون موازيًا للعالم الواقعي الذي يعيشه، بحيث يتمكن من خلال العالم المختلق من إبراز عيوب وخفايا وأسرار العالم الواقعي، بدون أن يُغضب أو يُجرح أي أشخاص من العالم الواقعي بذكر مثالبهم على الملأ.

ونجد ذلك في فنون الشعر، وفي فن التأليف الذي يتعرض لنماذج مختلفة ومتباينة من البشر، وهذا الأديب هو من نستطيع أن نقول عنه إنه فنان، لأنه استطاع الرسم، والتصوير، والنحت بالكلمات. وأرى أن أعظمهم في ذلك كان ديستويفسكي الروسي.

وهنا قال عبد الله: قد أكون مختلفًا معك في فكرتك، ولكنك تُبهرني بسعة ثقافتك واطّلاعك، أيها العم أمرزاق.

فقال أمرزاق: وفيم اختلافك معي؟

قال عبد الله: لأنك ترى أن السياسي لا يستطيع أن يكون فنانًا، ولكنني لم أقل ذلك. أنا أقول إن ظروفه لا تجعله يستطيع أن يبدو في عيون الناس فنانًا، ولا تجعله يستطيع أن يحيا حياة الفنان. وربما يستطيع أن يكون الفنان سياسيًا في ممارسته للحياة، ولكن السياسي لا يستطيع أن يعيش فنانًا في حياته. كذلك، إذا حاول الفنان ممارسة السياسة، فلا شك أنه سيكون سياسيًا فاشلًا، لأنه يحتكم للعاطفة أكثر من العقل.

ولكن الكاتب، والفيلسوف، والمؤرخ يستطيعون ممارسة السياسة، لأنهم يحتكمون للعقل أكثر من احتكامهم للعاطفة.

والدليل على ذلك عندي أن همنجواي مزقته عواطفه في النهاية رغم عظمته الفنية، أما تشرشل فقد صمد حتى النهاية بسبب غلبة العقل على عواطفه.

وهنا صاحت كوثر قائلة: ربما لا نستطيع أن نناظرك الآن، ولكننا قد نستطيع أن نناظرك غدًا، فلا تَحسب أنك أقنعتنا.

وعلم أمرزاق أنها تُوسّع حرجًا لعبد الله، فقال لها: لا أظن أنني أذكى من المُختَلَف معهم، ولا أظن أني أعلم أو أفضل منهم، ولكنني أعلم جيدًا أنهم لم يفكروا في الأمر المطروح مناقشته قبل وقت مناقشته.

فلربما لو مُنحوا وقتًا لتوصّلوا إلى أفكار أفضل من أفكاري، وربما تساعدني تلك الأفكار على الوصول في نفس المسألة لنتائج أفضل.

فضحكت لالا تنيهان، ومازحت زوجها قائلة: انظر، فلقد ورث أطفالي الذكاء من أخوالهم.

فقال أمرزاق: لا تُصدقها، فإنها تبغي الإيقاع بيننا يا صديقي.

فضحك أمزيان وقال: لا عليك يا صديقي، فأنا لا أحمل لك إلا أنك كنت سبب هذه الزيجة.

فضحك أمرزاق مقهقهًا، وصفعت لالا تنيهان على ساقه وهي تمازحه وتتصنع الغضب بدلال أنثوي، وقالت له: ماذا تقصد أيها العجوز؟

أكنت سترتبط بمن هي أفضل مني في يوم من الأيام؟

فقال أمزيان: حبيبتي أم كوثر، والله لا أقصد، ولكن كنت أمازحه فقط.

فالتقطها بسرعة أمرزاق وقال: هناك قوم لا يخافون إلا بأعينهم.

وهنا ضحك الجميع، ولكن كوثر وجدت أن الجو مناسب كي تسأل العم أمرزاق عن حقيقة دوره في زواج أمها وأبيها،

فقالت موجهة كلامها للجميع حتى يكفّوا عن الضحك ويسمعوها: ولكن أسئلتي لم تنتهِ بعد.

فقال أمزيان: حسنًا حسنًا، كلي آذانٌ صاغية، لأميرتنا.

فقالت كوثر: سؤال شخصي.

فقال: حسنًا، أحبّ الأسئلة الشخصية.

فقالت كوثر: حسنًا، امممم... هل كان لك دور في زواج أمي بأبي؟

وهنا صاح كل من أمزيان ولا لا تنيهان: يااااااه، وأشارت لا لا تنيهان بإصبعها بعلامة "لا" لأمرزاق، وهي تتكئ بمرفقها على ساقها، وهي منحنية اتجاه أمرزاق، فأشار بيده لها ولأمزيان أن يهدآ، ثم وجّه

الحديث لكوثر قائلًا: كان أبوك صديقًا لي، وكان يكبرني في السن، وقصة صداقتي به سأحكيها لك في وقت آخر نظرًا لضيق الوقت.

ولكنه قد أتى لزيارتي في القرية لأنني كنت مريضًا وقتها، فقالت كوثر: ومن أين علم أنك مريض؟!!

فقال أمرزاق: كنا نراسل بعضنا وقتها، وكنت قد انقطعت عن لقاء الأصدقاء بالعاصمة، فأرسل لي يسألني عن أخباري، فأخبرته عن قصة مرضي، فأتى ليعودني.

وكانت عندنا أمك وجدتك، وكانتا قد أتيتا لزيارة أمي ولعيادتي كذلك.

وكانت أمك وقتها فتاة صغيرة السن، قد تعدّت العشرين من عمرها بسنة أو سنتين، ولكنه أعجب يومها بأخلاقها وبشكلها، وأراد أن يتقدّم لخطبتها.

وعندما أتمّ الله عليّ الشفاء، فاتحني في ذلك الأمر، وكان والدك وقتها في الأربعين من عمره، فقلت له: ولكنك أكبر منها، وقد لا يوافق أهلها.

فقال لي: اسألها هي، أتقبل أم لا؟ ثم بعد ذلك نرى أمر أهلها.

فذهبت لبيت خالتي مع الحاجة غالية زوجتي رحمها الله، وكانت غالية ابنة عمة أمك، وأنا ابن خالتها كما تعلمين، لذلك لم نجد صعوبة في أن ندخل عليها، وأن نسألها عن رأيها. وكنا نظن أن أمك سترفضه، ولكننا فوجئنا بأنها وافقت عليه هي وجدتك.

ولكنها تعللت بمعارضة والدها بسبب سن أمزيان الكبير، ولكنّي قلت لها: دعي والدك لنا إذا كنتِ أنتِ موافقة. فوافقت فورًا.

ولكن بقي أمر والدها، الذي حددنا موعدًا لمقابلته، ولكنه رفض بشدة في بادئ الأمر، وذلك لأن أمزيان كان من إحدى عائلات القرية الكبيرة، ولكن أمه لم تكن من أهل القرية.

كما أنه كان يكبرها بعشرين عامًا، وذلك جعله يتساءل لماذا لم يتزوج حتى بلغ هذا العمر.

ولكن أمك صمّمت على زواجها من أمزيان، ورفضت كل من تقدموا لها من رجال غيره.

ولقد ساندتها فيما ذهبت إليه أنا وخالك علي، وفي النهاية رضخ والدها للأمر، ووافق على زواجها، ولكنه اشترط على أمزيان أن يقيم في القرية حتى تكون ابنته بجواره.

وبمجرد انتهائه من الحديث، مالت عليه كوثر وقالت: سأكتفي بهذه الإجابة مؤقتًا يا أمرزاق، ولكنك لم تحصل على الدرجات النهائية كما تعودت منك.

فقال أمرزاق: فلتعفيني هذه المرة حتى حين يا أميرتي.

الفصل الثامن

كانت سهرة رائعة مع عائلة أمزيان، وكان عبد الله لم يذق حلاوة سهرة مثلها مع عائلته منذ زمن، وبقدر حلاوة هذه السهرة أحس عبد الله بما كان من مرارة تغرّبه عن عائلته، وأنه قد فاته الكثير معهم. ولكن عبد الله خرج من تلك السهرة بقرارين:

الأول: أنه يجب أن يتم دراسته ويعود سريعًا لعائلته.

والثاني: هو أنه يجب أن يرتبط بكوثر في أسرع وقت ممكن قبل أن يخطفها منه أبناء القرية، وأن لا يدع أي شيء يحول بينهما، لأنه أصبح على قناعة تامة بأن كوثر هي الفتاة التي ظل يبحث عنها طول عمره، وهي الفتاة التي إذا فقدها لم يجد لها عوضًا أبدًا أبدًا.

ولذلك كان عليه أن يسرع بتسليم السيد أمرزاق أمانته، ثم عليه أن يعود ويخطبها من أبيها ومن السي أمرزاق. وبالفعل، فاتح السيد أمرزاق في أمر التعجيل بتسليم أمانته، وكان ذلك وهم في طريق العودة إلى منزل السيد أمرزاق في الظهيرة.

فطمأنه السيد أمرزاق، وأخبره أنه بمجرد انتهاء زيارة أبو مروان الكويتي، فسيذهب معه لتسلم أمانته من السيد عمر وينهي هذه المسألة إلى الأبد.

ولكن حدث في اليوم التالي ما لم يكن في الحسبان، وذلك أنه قد وصلت رسالة إلى أمرزاق من أولاد السيد عابد، أخبروه فيها أن أباهم اختفى بموريتانيا في ظروف غامضة، وأنهم أبلغوا البوليس الدولي والموريتاني، ولكنهم لم يستطيعوا أن يستدلوا على أي شيء من أثر أبيهم.

ولذلك أرسلوا إليه بهذه الرسالة حتى يجدوا منه أية معلومات ربما يكون تركها لدى السيد أمرزاق بوصفه صديقه وشريكه القديم، فترشدهم إليه.

ولكن أمرزاق لم يكن يعلم من الأمر شيئًا، سوى أمر أمانته التي تركها بوعابد لدى السيد عمر، لذلك قام بسؤال ضيفه عبد الله، لعل والده قد أمده بأية معلومات تنفعهم، ولكن عبد الله لم يكن يعرف من أمر بوعابد غير ما رواه والده له، ولم يكن يعرف الرجل شخصيًا.

ولكن الأمر كان يختلف بالنسبة لأمرزاق، فلقد كان بوعابد بالنسبة له أخًا وصديقًا وقريبًا وصهرًا، لذلك أحزنه الأمر جدًا، وودّ لو يستطيع أن يقدم أية مساعدة لأولاده ربما تمكنهم من العثور عليه.

لذلك، فما كاد أبو مروان الكويتي ينهي زيارته لأمرزاق ويستقل طائرته العائدة إلى الكويت، حتى ذهب أمرزاق مع عبد الله ليقابل والده. وكان الأمر في غاية السرعة.

وعندما قابل أمرزاق الحاج عمر، كانت صحة الحاج عمر قد تحسنت كثيرًا، وكان على وشك استرداد عافيته، اللهم إلا أن جسمه لم يكن يخلو من الأربطة والجبس الذي لم يحن الأوان بعد لفكّه والتخلص منه. وعندما جلس أمرزاق مع الحاج عمر، استراح كل منهما إلى الآخر، وعلم أمرزاق أن عبد الله من أصل طيب حقًا، كما أسرّ أمرزاق في قرارة نفسه أن عبد الله هو أصلح الرجال لابنة أخته كوثر، وأنه لن يجد أفضل منها.

وهي أيضًا ستكون من اللواتي رضي الله عنهن وأكرمهن، إذا كان لها نصيب وارتبطت بعبد الله، فهو بالإضافة إلى كونه ملتزمًا ومؤمنًا إيمانًا شديدًا، إلا أنه من الشباب التقدميين إلى حدٍّ ما، الذين يؤمنون بدور المرأة في المجتمع، وبوجوب تثقيفها وتعليمها، وأن يستفيد وطنها من علمها وخبرتها وذكائها، وكذلك أسرتها.

وما علينا الآن من عبد الله وكوثر، فلقد كانت الأقدار تخبئ لهما الكثير من الأحداث التي يجب أن يمرا بها قبل أن يلتم شملهما.

فلقد اقترح أمرزاق على السيد عمر أن يؤجّل أمر استلام أمانته لبعض الوقت، ولما سأله السيد عمر عن السبب، قال إنه ينوي البحث عن سي عابد بنفسه في موريتانيا، وذلك بالاستعانة ببعض أصدقائه المغاربة الذين لهم معارف في صحراء موريتانيا، حيث يقع المنجم الذي كان يعمل فيه سي عابد العجب المحبب.

وحاول الحاج عمر أن يثنيه عن تلك الفكرة لما تحتوي عليه من مخاطر، ولكن أمرزاق واصل سعيه وأصر عليها.

فما كان من بو عمر إلا أن يوافق على تحمّل أمانته لبعض الوقت، وأن يؤجل تسليمها له حتى يعود من موريتانيا.

ولكن أمرزاق أوصاه أنه إذا لم يعد من رحلة البحث عن صديقه بوعابد، أن يسلم هذا المال لصهره أمزيان، وأن يخبره أنه ترك هذا المال لابنته كوثر، حتى تكمل تعليمها في كلية الطب وتتزوج بمن ترضاه، ثم تفتح مشفى كبيرًا تعالج فيه أهل القرية بمال زهيد، وأن تطلق على المشفى اسمه. ولقد سأله بوعمر: لماذا لم يترك هذه الوصية لأولاده؟ فأخبره أمرزاق أن كوثر وإن كانت ابنة أمزيان، فهي ابنته بالروح، كما أن أولاده ليس لديهم وقت لهذا العمل الخيري، بالإضافة إلى أنه كان قد ترك لهم ما هو أكثر من ذلك عشرات

الأضعاف، ولكن زوجاتهم جشعات ولا يملأ أعينهن شيء إلا التراب، أما أزواج بناته، فهم مثل زوجات أبنائه بل ربما أسوأ.

وحدث أثناء زيارة أمرزاق أن تلقى عبد الله خطابًا من رئيس مشروع دراسته مسيو فرنسوا، يطلب من عبد الله الحضور فورًا إلى باريس لأمر هام، وكان يجب على عبد الله أن يعتذر لوالده ولأخيه وللسيد أمرزاق، وأن يحجز من فوره للسفر، وبالفعل أتم الحجز، وتلقى مكالمة من مكتب السفريات، أخبروه فيها بأن طائرته ستقلع في الغد على الساعة العاشرة مساءً.

وكان كل شيء يجري بسرعة، وكأن الأقدار أصبحت أمواجًا تتقاذف الفتى حتى ترميه بعيدًا عن كوثر.

ولم يعرف عبد الله لماذا تذكر في خضم تلك الأحداث أوديسيوس بطل الملحمة الإغريقية المشهورة، ولا يعرف أيضًا لماذا تذكر الجزء الخاص بزوجة أوديسيوس بينلوبي، وكيف كان يريد الخُطّاب أن يحولوا بينها وبين زوجها.

ولكن عبد الله أيقظ نفسه من أحلامه بأن ذكّرها بأن الأمر ليس كما كان يفكر، فأوديسيوس كان محاربًا وملكًا، وما هو إلا طالب علم بسيط.

وما حدث لأوديسيوس لم يكن غير خيال هوميروس، الذي جعل الإنس والجن والآلهة والمسوخ والعمالقة تحول بين أوديسيوس وبين العودة لوطنه.

فلم يكن عبد الله ليظن، ولو بنسبة واحد في المئة، أن يتحول في لحظة لأوديسيوس عصره، ولو قابله أحد العرّافين وروى له ما سيحدث له بعد قليل، ما كان ليصدقه، وكان ليظن أن هذا العرّاف دجال، أو مسه طيف من الجنون.

ولكن كذب المنجمون ولو صدقوا، فهل من يرى بنور النفس يصح أن يُنسب إليه أنه ممن وطئوا عالم التنجيم؟

فما للتنجيم وما للروح المباركة من رؤية؟ وهل يُعقل أن يطأ شخصٌ النجوم دون أن يحترق؟

ويقولون إن النجوم بعدد البشر، فهل يعني هذا أن الشموس ترسل الأرواح في ضوئها الذي يحلله الغلاف الأرضي، فتصير إلى حياة غير عاقلة في الأرض، وأن العقل وليد المتغيرات؟ أم أن الشمس تحرر الأرواح الشريرة والغير العاقلة من قعرها الجهنمي، ثم ترسل تلك الأرواح بلهيب منير نحو الأرض حتى يحصدوا فرصًا جديدة للحياة، يعملوا فيها الخيرات؟ ولكن إن كانت الشمس ترسل كل حار وكل غير ذي عقل وشرير، فمن أين يأتي الأخيار إذا لم يكونوا منها؟

وكيف يتحملون الحر والقيظ والقسوة أكثر من غيرهم من البشر؟

بل إنهم يعشقون نور الشمس لدرجة أنهم يطلقونه على الحق وعلى الحقيقة.

بل إن الناس يطلقون على العظماء في الأرض اسم "أبناء الشمس"، فأين سيختفي عبد الله تحت الشمس؟! ونعود لعبد الله، فنجده قد حضّر حقيبة سفره، وانطلق نحو المطار ليستقل طائرته.

وأقلعت به الطائرة في سلام، ولكن حدث أمر غريب جدًا في الطائرة، فلقد تعرضت الطائرة للاختطاف، وطلب المختطفون من الطيار أن يغير موقع هبوط الطائرة إلى إحدى دول أمريكا الجنوبية، ولكن الطيار أخبر المختطفين أنه لا يملك الوقود الكافي، ولا الإذن الجوي للإقلاع نحو أمريكا الجنوبية، كما أنه لا يملك مسار الرحلة حتى أمريكا الجنوبية.

لذلك، فلقد اقترح عليهم أن يهبط بالطائرة في أثينا، ثم يغير اتجاه الطائرة نحو أمريكا الجنوبية، ولكنهم رفضوا، وطلبوا من الطيار أن يتوجه بالطائرة نحو إفريقيا، ولقد أذعن الطيار لمطالب المختطفين، لأنهم هدّدوه بقتل بعض الركاب، ثم تفجير الطائرة.

وهبط الطيار بمطار نائي في موريتانيا، ولكن الخاطفين أبقوا جميع الركاب لديهم كرهائن.

وكان الركاب مئة وخمسين راكبًا في قائمة الطيار التي كانت معه، ولكن الطيار اندهش وأُصيب بحيرة شديدة عندما اكتشف أن الركاب ينقصهم راكب واحد، اسمه عبد الله عمر، وهو باحث جزائري.

ولقد تأكدوا من تلك المعلومة من أسرة عبد الله التي أكدت صعوده على متن الطائرة.

فماذا حدث لعبد الله؟ وماذا سيحدث للطائرة ولركابها؟

الفصل التاسع

عندما وصلت أنباء اختطاف طائرة عبد الله لأمرزاق، حزن كثيرًا، واتصل بالحاج بوعمر ليواسيه في تلك المصيبة التي لم يكن أحد قد عمل لها حسابًا. وكان أمرزاق يتحاشى في تلك الأيام أن يزور عائلة أمزيان حتى لا تعرف كوثر خبر اختطاف طائرة عبد الله، فتحزن عليه.

وفي يوم من الأيام، أجرى أمرزاق اتصالًا تليفونيًا مع الحاج عمر ليطمئن عليه في تلك الظروف الصعبة، فوجده حزينًا جدًّا، فقدّر أن سبب حزنه اختطاف الطائرة وفيها ابنه عبد الله، فأراد أن يواسيه ويخفف عنه، وقال له: إن شاء الله ستقبض الشرطة على المختطفين وسيرجع إليك ابنك.

ولكنه فوجئ أنه يخبره أن مشكلة الطائرة انتهت، ورجع جميع المختطفين لأهلهم سالمين، وتم القبض على الخاطفين جميعًا.

ولكن عبد الله اختفى من على متن الطائرة، ولا يعرف أحد كيف حدث ذلك، وما زال المسؤولون يحققون مع الخاطفين في أمر اختفائه. وبالطبع نزل هذا الكلام كالصاعقة على أمرزاق، فقال: كيف لا يكون على متن الطائرة، ولقد ثبت في المطار أنه صعد الطائرة، وكان على متنها في وقت حدوث الاختطاف؟

فرد عليه بو عمر من الخط الآخر قائلًا: الأغرب من ذلك أن إحدى المضيفات رأته في الطائرة قبل إقلاع الطائرة وقبل حادثة الاختطاف بدقائق.

ثم استطرد قائلًا: إن إخوته يظنون أن الخاطفين قتلوه وألقوا بجثته من الطائرة، ولكن المشكلة أنه ليس هناك شهود.

ثم قال وصوته يتحشرج: ربما قتلوه في مكان ناءٍ من الطائرة ولم يرهم أحد.

ثم أردف بصوت حزين: فليقولوا كما يشاؤوا، وليقولوا ما يقولوا، فأنا وأمه لدينا إحساس أن ابننا ما زال على قيد الحياة. "اللهم أرجع إلينا عبد الله سالمًا كما أرجعت يوسف ليعقوب عليه السلام."

وهكذا، كانت مشكلة عبد الله تتعقد يومًا بعد يوم، وكان أهله يعانون من عذابات فراقه، وما كان يزيد الأمر صعوبة هو لغز اختفائه المحير.

ولكن الحقيقة أن جميع من يعرفه لم يتخلوا عنه أو عن أسرته، فحتى جون فرنسوا القاسي تحرك قلبه حزنًا بسبب اختفاء عبد الله، وأراد أن يقاضي شركة الطيران التي كانت الطائرة المختطفة تابعة لها، وذلك لأنه رأى أنه من الإهمال الجسيم ألا يلاحظ موظفو الشركة وجود راكب ناقص في الطائرة، وتساءل: كيف اختفى عبد الله من الطائرة دون علمهم؟!!!

ولكنه لم يكد يتقدم بمذكرة قانونية ضد الشركة، حتى أخبره مستشاره القانوني أن الشركة حولت كل موظفيها في الطائرة للتحقيق، وأنهم بصدد إعداد تعويض مناسب يصرفونه لعائلة عبد الله بو عمر.

أما جاك ريمون، صديق عبد الله الفرنسي، فقد أحزنه جدًّا ما وصلت إليه الأمور، حتى إنه انقطع عدة أيام في بيته عن الناس، ولكن تمارة صديقته راسلت عائلة عبد الله، وقصّت ما حدث لجاك لأخيه عمرو بن عمر.

وحاول عمرو أن يتصل بجاك ويحدثه، ولكن جاك بلغت به الحالة النفسية السيئة أنه كان لا يرد على الاتصالات، فسافر عمرو إلى فرنسا، وقابل جاك، وأخبره أنه إذا كان يحب عبد الله حقًّا، فعليه أن يتابع مشروعه العلمي.

وقال له عمرو: أتظن يا جاك أن عبد الله سيكون مستريحًا إذا رجع يومًا ما ووجدك محطَّمًا نفسيًّا بسببه؟؟

وكانت هذه المقابلة ذات أثر حسن على نفس جاك، فعاد من جديد لمواصلة مشروعه العلمي، وسماه: "مشروع عبد الله جاك ريمون عن أصل الحضارات القديمة."

ولكن اختفاء عبد الله جعله يوجه البحث العلمي في ناحية أخرى غير التي كان يريدها، لأنه كان يفكر بدراسة أسرار الفراعين، وعلاقتهم بالكوشيين، ثم أخيرًا علاقة الاثنين بالأمازيغ. ولكنه،

بسبب اختفاء عبد الله، حوّل بداية الدراسة إلى الصحراء الإفريقية المتاخمة للمغرب الأقصى، بدلًا من جنوب مصر وسيوة ومنخفض القطارة والفيوم. وكان هذا المشروع هو مشروعه القديم هو وعبد الله، وكان بالأخص حلم عبد الله.

ولقد وافق فرانسوا على المشروع القديم، الذي كان يتعلق بدراسة العلاقات الفرعونية الإفريقية الأمازيغية القديمة.

وفكر جاك بأن اختفاء عبد الله الدراماتيكي سيعطي المشروع حظوة لدى الجمهور، ولدى المهتمين بهذا المجال من البحث العلمي.

وهكذا، شاءت الأقدار أن يكون أول بلد يتوجه إليه جاك مع بعثته هو موريتانيا، ثم كانت الخطوة الثانية في السنغال، وذلك لأن جاك أراد أن يتحقق من العلاقات الأمازيغية الإفريقية أولًا، ولأنه حدث في هذه الأيام أن اكتشفت بعثة أوروبية معبدًا موريتانيًّا قديمًا خارج العاصمة نواكشوط، وكان المعبد به نقوش فرعونية وأمازيغية، كما كان به تماثيل على الطراز الإغريقي القديم.

فما كان من أمر القائمين في فرنسا، إلا أنهم وجدوا أن هذه فرصة طيبة ليبدأ جاك مشروعه الذي كان يريد هو وصديقه العربي أن يثبتاه منذ زمن بعيد.

والحقيقة أن جاك كانت لديه فكرة اسمها "عالمية الحضارات القديمة"، وكان يحسب أن قسمًا من المصريين القدامى، والأمازيغ، والآشوريين، والحيثيين، والفلسطينيين، والعرب، والفرس، والهنود

بكافة أنواعهم، والإغريق، وبعض الروم، والسلاف، وأكثر سكان أوروبا الحاليين، كلهم من أصل واحد هو شبه القارة الهندية. وأن هذا الجنس أتى من الهند وسكن الشرق الأوسط في قديم الزمان، فيما يسميه العلماء "الهجرات الهندو أوروبية".

ولكن جاك كان يرى أنه كانت هناك أيضًا هجرات "هند إفريقية" أو "أفرو أوروبية"، وأن العالم إذا كان يظن أن الهجرات الأولى انتقلت من إفريقيا والجزيرة العربية والشرق الأوسط نحو الغرب والشرق الأقصى، فالعالم في هذا ليس على حق.

والحقيقة هي أن الهجرات الأولى كانت من الشرق الأقصى نحو إفريقيا والجزيرة العربية والشرق الأوسط والمغرب.

وعلى ذلك، فهناك افتراض قوي بأن الكثير من الهنود القدامى أتوا في هجرات هندوأوروبية وأفروهندية، ولكنهم عندما أتوا إلى مصر من ناحية الجزيرة العربية، استقروا أولًا في الوجه البحري وسيناء والصحراوات التي تحد وادي النيل من الشرق والغرب، ثم ما لبثوا أن تعمقوا في مصر حتى أقصى الجنوب.

وعندما عاشوا بالقرب من التخوم الكوشية والسودان، حدث أنهم صاهروا الكوشيين والزنج، فكان نتيجة هذا التزاوج الفراعنة العظماء الذين وحّدوا قطري مصر الجنوبي والشمالي، والذين أتوا من الجنوب مرة أخرى بوجوههم السمراء والقمحاوية، وبطولهم

المديد، فهزموا قوات الوجه البحري، والتي كانت من أصول آسيوية، وربما كانت أصولهم من الجزيرة العربية.

وهذا يعني أن إفريقيا كانت بها الحضارة الأم التي سبقت الحضارة الفرعونية، وأن الفراعنة كانوا متأثرين بتلك الحضارة التي اندثرت.

ويرى جاك أن ما حدث في مصر، حدث مثله في المغرب من ناحية موريتانيا ومالي والنيجر والسنغال، وفي نواحٍ أخرى من إفريقيا القديمة، وبذلك يكون جاك صاحب فكرة مغزاها أن آسيا وإفريقيا متماثلتان من حيث العمر التاريخي والعراقة، وأن كلًّا منهما قد ساهم في أنثروبولوجيا الآخر، كما أنه كانت هناك هجرات تحدث بينهما من وقت إلى آخر.

كما يثبت ذلك أن أوروبا كانت بعيدة عن الإعمار لقرون طويلة بسبب ظروفها المناخية القاسية، ولكنها لم تكن خالية من السكان ولا من الحضارة، ولكن حضاراتها القديمة كانت أبسط بكثير من حضارات آسيا وإفريقيا، وأتت بعدهما بوقت طويل.

ولكن زمن تلك الحضارات كان متوغِّلًا في القدم، ولم تكن نقطة انطلاقه من الهند وفارس فقط، بل كانت هناك نقاط انطلاق من الجزيرة العربية وآسيا وإفريقيا.

وعندما وصل جاك إلى إفريقيا، تعرض لموقف صعب، فقد كان من المتفق أن يذهب هو وحده ليقابل بقية أفراد البعثة في نواكشوط.

ولكن في أثناء سفره، استعان ببعض مقتفي الأثر والأدلة من الموريتان الصنهاجة، ولكن حدث أن تعطلت سيارته الجيب في الصحراء، فنزل في ضيافة بعض القبائل العربية.

وهناك، تعرف على فلاح اسمه حسن بوديم، وكان حسن رجلًا كريمًا دمث الأخلاق، وكان قد سافر في وقت سابق إلى الجزائر والمغرب العربي، وعمل بهما، ثم عاد بعد ذلك لبلاده. وكان جاك يجيد اللغة العربية بلهجة الجزائر، وكذلك حسن.

وفي يوم، عندما كان جاك يجلس مع حسن في الصحراء، وكان الوقت ليلًا، وكان حسن قد أشعل ركوة نار يعد عليها القهوة، قال حسن لجاك: أنتم الفرنسيون تبدون طيبين ومتحضرين، ولكن تصدر منكم أحيانًا تصرفات غريبة.

فقال له جاك: كيف ذلك؟

فقال حسن: أترى التل الذي هناك؟ وأشار بيده نحو تل عالٍ من الرمال على بُعد كيلومترات منهما.

فقال جاك: بالكاد أراه.

فقال حسن: إن هذه الأرض كان يملكها مواطن اسمه رجب تيوشرت راده، وكان قد اكتشف في أرضه معدن الذهب، فأسرّ ذلك، وحاول أن يراسل الأجانب حتى يساعدوه في استخراج هذا الذهب، ولكنهم عقدوا الأمر، فاتفق فيما بعد مع ممول جزائري اسمه بو عابد، وكان رجلًا طيبًا للغاية، أتى إلينا، وعمل معنا، واعتبرناه واحدًا منا، وكانت

له علاقات طيبة بالحكام، فاستخرج تصاريح التنقيب، وأعد الاتفاقيات، وكان شعلة من النشاط رغم كبر سنه.

وكان له صديق مصري اسمه علي عزام، وكان هذا مهندسًا عبقريًّا في علوم الأرض، ولكنه كان شخصية عجيبة من حيث الشجاعة والوفاء للأصدقاء.

فقال جاك: جميل حتى الآن، فيا ترى أين المشكلة؟

فقال حسن: المشكلة أنه لم تكن هناك أية مشكلة، وذلك ما لفت إحدى الشركات الفرنسية الكندية، والتي رأت أن بوعابد خطر على نفوذها في المنطقة، فقاموا باستئجار مرتزقة، هاجموا معسكر العمل ليلًا، وحاولوا اختطاف بو عابد.

ولكن المهندس علي عزام قام بالدفاع عنه باستبسال، بواسطة آلة حادة كانت في يده، يسميها المصريون "مطواة قرن غزال"، وتمكن بالفعل من جرح بعضهم، ولكنهم أطلقوا النار عليه، فسقط مدرجًا في دمائه، ثم حملوه وأخذوا بو عابد معهم، واختفوا تحت ستار الليل بواسطة عرباتهم المجهزة.

وصمت حسن برهة، والأسى واضح على ملامحه المكدسة بالحسرات، ثم اعتدل في جلسته وكأنه يجلس القرفصاء، ومدّ ذراعيه على ركبتيه، وقال: لا أعرف لماذا تكون نهاية بعض الشجعان وبعض الطيبين نهاية مأساوية.

فهل تعرف أنت إجابة على هذا السؤال يا مسيو جاك؟!

الفصل العاشر

اندهش جاك من القصة التي رواها له حسن كريم الظاهر، وحزن جدًا مما آل إليه مصير أبوعابد المحبب وصديقه علي، ولكنه تساءل: أين كانوا عندما قام المرتزقة باختطاف الرجلين؟ فأجابه حسن بأن المرتزقة فاجؤوهم بوابل كثيف من نيران الأسلحة الرشاشة، كما أن إصابة علي عزام وسقوطه جعل الجميع يرتبكون.

فتساءل جاك: ولكن أين أخذوهم؟ وما الذي كانوا يرمون إليه من وراء اختطافهم؟

فأجابه حسن: أما أين أخذوهم، فلا أحد يعرف حتى الآن! أما لماذا أخذوهم، فأستطيع أن أجيبك؛ فقبل أن يحدث هذا الحادث، كان هناك هذا المرابي اليهودي الفرنسي، الذي أتى في سيارته الفارهة لمقابلة أحمد تيوشرت، وأبو عابد بوصفه شريكه، وكان معه حراس أتوا في سيارات فارهة مثله، وكانوا ضخام الجسم ومدججين بالسلاح.

ويبدو أنه عرض عليهما عرضًا رفضه أبوعابد. أظن أنه عقد شراكة أو شيء من هذا القبيل... لا أعرف!!! ولكني رأيت علي العازم بعد المقابلة، وكان يبدو كأنه قد التبسته الشياطين من الغضب، فسألته

يومها: "إيش فيه يا حاج علي؟"، فقال بلهجة مصرية: "مافيش... خليها على الله."

ولكن في ليلتها أتى بو عابد ليجلس معي، فسألته عن حال الحاج علي، وهل حدث بينهما ما أغضبه؟ فقال لي: "علي إنسان طيب، ولكنه صعيدي حتى النخاع، لذلك قد يبدو لك غاضبًا أحيانًا.

فقلت له: أنا أعرف المهندس عندما يكون غاضبًا، حتى ولو حاول أن يُخفي غضبه، أعرف أن شيئًا ما أغضبه، فلا يغرني هدوؤه أبدًا.

فتعجب وقال: كيف ذلك؟

فقلت له: عندما يكون المهندس علي رايق البال، تجده يداعب كل من يقابله، ويكون سريع البديهة، وكثير القفشات. تقول له مثلًا: (إيش فيه؟) فيقول: (فيه لله) أو يقول: (خيرًا إن شاء الله)، ويبتسم.

لكن في الصباح سألته: (إيش فيه؟)، فقال بصوت منخفض مكتوم: (مافيش)، وانزوى بعيدًا وكأنه لا يريد أن يتحدث مع أحد.

عندئذ قال لي أبو عابد: لا شيء مهم، ولكن حدث بعض الشد بين علي وبين الضيوف.

فقلت له: لماذا؟

فقال: كما تعلم، أن علي مصري، واتضح أن سيد القادمين يهودي من أصل فرنسي، وأنت تعرف حساسية المصريين اتجاه اليهود هذه الأيام.

والحقيقة أني لم أقتنع بإجابة أبو عابد، لأني كنت أعلم أمورًا عن المهندس علي، منها أنه ليس شخصًا متعصبًا ضد الأديان الأخرى، ولأنه كان قد قال لي مرة ونحن نتحدث عن الحرب وعن حال مصر: "إن اليهود ليسوا كلهم صهاينة، ولا يصح أن نعامل الجميع على أنهم أعداء."

وفي هذه الليلة حدث ما أقلقني، فلقد اتكأ أبو عابد على ذراعيه، ومال بظهره إلى الخلف، ومد ساقه نحو ركوة النار، وقال لي: أني أصبحت أخاف على حياتي بعد زيارة هذا الرجل اليهودي.

فقلت له: لماذا؟

فقال: كانت له تلميحات لم تعجبني، ولذلك فقد حملني أمانة، أنه إذا حدث له شيء من قبيل الاختطاف أو الاختفاء أو محاولة الاعتداء عليه، بأن أحاول أن أتصل بشخص من تلمسان اسمه عمر بن حبيب، وأن عمر عليه أن يُخبر أبناءه، والأهم عليه أن يُخبر شخصًا اسمه أمرزاق بن سعيد، فهو قريب لأبوعابد المحبب، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يتصرف. كما أخبرني أن أخبرهم باسم الشركة الفرنسية المنافسة.

ثم وضع يده على رأسه وقال: "على ما أظن أنه كان اسمها أرم الدولية الفرنسية للمقاولات والأعمال الهندسية والتنقيب عن المعادن. كما أذكر أنه قال لي: إن عمر بن حبيب صاحب شركة كبيرة للمقاولات والتصدير والاستيراد على ما أظن، وقال لي إن اسم الشركة الجزائرية كان (كابا للتصدير والتوريدات العمومية)."

وعندما سألته عن أمرزاق، ابتسم وقال: هذا الرجل فنان، ولكنه داهية، ولم أجد أحدًا يكافئه في دهائه، اللهم إلا أن علي عزام شجاع وجريء مثله، ولكن كلاهما يتمتع بالإخلاص والمحبة والوفاء لأصدقائهم، وهما من أحب الناس إلى قلبي.

اندهش جاك بشدة عندما أخبره حسن باسم صاحب الشركة، وقد كان على سابق معرفة به بسبب الصداقة التي تربطه بابنه عبد الله. كما أحس جاك أن الأقدار رمته في هذا المكان ليؤدي مهمة إنسانية عظيمة، لأن الشركة التي كان يتحدث عنها حسن ملك لعمر بن حبيب، والد صديقه عبد الله المختفي.

ولكن جاك سأل حسن: لماذا رويت لي أنا بالذات هذه القصة؟

فقال له حسن: "راودني إحساس أنك شخص طيب وصادق، وأنك تستطيع أن تخبرني عن مكان عمر بن حبيب، أو على الأقل تستطيع أن تخبرني كيف أذهب إليه، ولأنك أخبرتني أن لك أصدقاء مهمين في الجزائر.

فقال جاك: نعم، ويبدو أنني أعرف عمر بن حبيب الذي تبحث عنه، فهو والد أعز أصدقائي عبد الله بن عمر.

فبدا الفرح والاستبشار على وجه حسن ولد الظاهر، وقال لجاك: "بشرك الله بالخير يا وجه الخير."

وكان هذا الحديث الذي دار بين حسن وبين جاك في الثامن والعشرين من نوفمبر، وكان الصقيع والرياح شديدين، ولكن جاك قال لحسن: سأحاول بعد الكريسماس أن أتصل بعمر بن حبيب، وأن أخبره بقصتك، لعله يحاول العثور بطريقته على البطلين.

فقال حسن: سأكون شاكرًا لك كثيرًا وممتنًا، وبالمناسبة كل عام وأنت بخير بمناسبة الكريسماس، فهو عيدكم.

فقال جاك: حسن، تقصد عيد من؟

فقال حسن مؤكدًا: عيدكم أنتم الإخوة النصارى.

فابتسم جاك وقال بحزم: حسن، أنا يهودي.

فسكت حسن ولم ينبس ببنت شفة، ولبث برهة قصيرة وكأن الطير قد حط على رأسه، فكسر جاك الصمت، وأردف قائلًا: عمومًا، كل عام وأنت بخير يا صديقي، وربت على كتف حسن، ثم قام ليذهب حيث ينام.

فقال حسن بصوت أجش: المهم الإنسان يا صديقي، المهم الإنسان.

وكان جاك يبتعد، فأشار لحسن بيده بالتحية، وكان يضع يده الأخرى في جيبه، ثم مضى نحو الغرفة التي ينام فيها.

وعندما حان موعد رحيل جاك في اليوم الثاني، ودّعه حسن وداعًا حارًا، وأوصاه أن يُخبر بالقصة عمر بن حبيب. ولذلك توجه جاك صوب الجزائر بدلًا من أن يتوجه إلى باريس لقضاء إجازة الكريسماس بها، واتصل جاك بعمرو بن عمر، وأخبره أنه يريد مقابلة والده لأمر هام، وظن الآخر أن الأمر يتعلق بعبد الله أخيه، فرتّب موعدًا مع والده لمقابلة جاك.

وحضر جاك الموعد، وأخبره أنه أتى بخصوص أمر صديقه أبو عابد المحبب، وأخبره بالقصة كاملة، وقال له إن أبو عابد قال لحسن: إنه إذا حدث شيء، فعليه أن يخبرك لتُخبر أبناءه وتُخبر شخصًا اسمه أمرزاق بن سعيد، لأنه من يستطيع أن يتصرف في المسألة.

لذلك اتصل عمر بأمرزاق على الفور، وأخبره بالقصة، التي ما أتمّ عمر كلامه ووضع السماعة، حتى أعد العدة ليسافر إلى باريس حيث مقر الشركة الفرنسية.

وبالفعل، وصل أمرزاق إلى باريس، وطلب مقابلة رئيس مجلس إدارتها السيد جيرارد براتان مارا، الذي أبدى دهشته من قصة

أمرزاق، وأكّد لأمرزاق أن الشركة لا يمكن أن يكون لها أي علاقة بأي عمل غير شرعي أو غير قانوني، ولا يمكن أن يكون لها أي علاقة بما حدث لصديقه عابد، ولصديق صديقه المصري.

فاعتدل أمرزاق في جلسته، ونظر لجيرارد نظرات ثاقبة، وقال بهدوء، وقد رسم ابتسامة ماكرة على وجهه: ألست يهوديًا، مسيو جيرارد؟

فقال جيرارد: وما علاقة ذلك بما كنا نتحدث فيه؟

فقال أمرزاق بخبث: كنت فقط أريد أن أهنئك بعيد الفصح.

فقال جيرارد: نحن الآن في وقت أعياد الكريسماس، ولم يحن عيد الفصح بعد.

فقال أمرزاق بخبث: عذرًا، فلم أكن أعلم. ثم قام، ومد يده ليصافح جيرارد، واستأذنه في الانصراف.

ونظر جيرارد في عين أمرزاق وهو يصافحه، وقال له: لم تُخبرني عن عملك، سيد أمرزاق.

فقال أمرزاق: أنا فنان بسيط.

فقال جيرارد: فأي محور من محاور الفن؟

فأجابه أمرزاق: أصنع التحف من الفضة والذهب، وأرسم اللوحات والأيقونات، ثم أردف: أملك بازارًا صغيرًا في الجزائر، أرجو أن تشرفني بزيارتك إذا جئت إلى الجزائر.

ثم مد يده وأخرج ورقة، وقال: هذا كارت به عنوان البازار، وبه أيضًا أرقامي، وعلى ظهره رقم الفندق الذي أقيم به في باريس.

فقال جيرارد بخبث: سأحتفظ بالكارت، فربما أحتاجه حين أكون يومًا ما في الجزائر، ولكني لن أحتاج رقم الفندق.

حينئذ ابتسم أمرزاق، وقال: هناك أشياء كثيرة يظن المرء أنه لن يحتاجها أبدًا، ثم يظهر له فجأة أنه إن أكمل بدونها، فسيحزن حزنًا شديدًا، أو على الأقل سيكون قد فاته الكثير.

فقال جيرارد: أنت حكيم يا سيد أمرزاق، ولكن للأسف، أنت جئت في موضوع لا أستطيع أن أخدمك فيه."

فقال أمرزاق بصوت عميق: "سنرى، مسيو جيرارد... سنرى.

ثم حيّاه، وانصرف نحو الباب مسرعًا، واستدار وهو يفتح الباب، ونظر لجيرارد نظرة ذات مغزى، ثم غادر المكتب.

الفصل الحادي عشر

لم تكن كوثر مطمئنة لما يحدث حولها، وكانت تسيطر عليها حالة من القلق، فقد كانت تشعر وكأن شيئًا ما يعتم الأجواء ويجعلها في حالة كآبة غير عادية، وكأنها تعيش في حالة فوضى لا تستطيع الفكاك منها، بسبب قلقها على عبد الله وترقبها الدائم لحضوره.

ولقد مضت شهور منذ أن ذهب عبد الله لوالده في الجزائر، ثم سافر إلى فرنسا، ولم تسمع عنه شيئًا منذ ذلك الوقت، ولم يراسلها كما وعدها. كما أن الخال أمرزاق توقف عن زيارة عائلتها، وكلما سألت عنه والديها يؤكدان لها أن لديه مشاغل تمنعه عن زيارتهم.

وأخيرًا قررت في عصر ذلك اليوم أن تذهب لزيارته في منزله، لكنها عندما وصلت لم تجده، واعتذر لها خادمه المنزلي بأنه مشغول بمشروع جديد، ولذلك فهو لا يتواجد كثيرًا في المنزل هذه الأيام. فطلبت منهم أن يعطوها رقم مكتبه بالجزائر حتى تتصل به وتطمئن عليه، ولكنهم أنكروا معرفتهم برقم تليفون المكتب، إذ إنه عودهم أن هو من يتصل بهم، وليس هم.

فقالت لكبير الخدم: ولكن ماذا إذا حدث شيء يستدعي تواجده؟ فلم يستطع أن يرد عليها برد شافٍ، فقط قال: هكذا هو نظام السيد أمرزاق منذ سنين.

أما هي، فلم تطمئن، إذ كان لديها حدس خفي يخبرها أن الخال أمرزاق موجود في المنزل، ولكنه متوارٍ عنها في مكان ما، ويتفادى مواجهتها لأن هناك سببًا أقوى من انشغاله بالعمل يمنعه من مقابلتها. وكادت أن تقرأ في عيون من يخدمونه حزنًا عميقًا وشفقة عليها، وكأنهم يعلمون عنه شيئًا لا تعلمه هي، ويبدو أن هذا الأمر يتعلق بعبد الله، وهو أمر مريع.

ثم امتلأت عيناها بالدموع ومضت مسرعة، وكان الخادم يناديها، ولكنها ظلت تركض حتى توارت عن الأنظار، ثم وقفت وهدأت من روعها بعد جهد، وسوت شعرها المنسدل على وجهها بيديها، ثم أخرجت منديلاً من حقيبتها، ومسحت دموعها، وعدلت من مظهرها، ورجعت في خطى بائسة إلى حقل أبيها.

ثم مضت أيام بعد زيارتها لمنزل الخال أمرزاق، استطاعت فيها كوثر أن تستجمع نفسها، وكانت بعد ذلك كلما تفكر ويستبد بها القلق تستعيذ بداخلها من هواجس الشيطان الرجيم. ثم تقول في نفسها: لعل ما أشعر به هو بعض من الظنون والشكوك السوداء، بسبب ابتعاد عبد الله عني كل هذا الوقت، ولعل الأمر يكون خيرًا.

ولكنها كانت تعود لتستدل من أحلامها أن هناك شيئًا ما يعاني منه عبد الله، كما أنها كانت غاضبة جدًا من العم أمرزاق، الذي لم يسأل عنها رغم سؤالها عليه.

وفي يوم من الأيام، خرجت كوثر للحقل مثل عادتها، وقابلت هناك صديقة لها اسمها صفا، وجلسن يتحدثن في ظل شجرة، كما هي عادة الفتيات، ووجدت صفا أن كوثر ليست سعيدة، ويلازمها بعض الكآبة، فأرادت أن تسري عنها بحديث عذب، ولكنها أحست أنه كلما استمكن الحديث بينهما يتملك كوثر شرود مفاجئ.

فتقول لها صفا: كوثر، هيه! أين ذهبتِ؟

فتستفيق كوثر وتقول: لا شيء.

ولما وجدت صفا أن الأمر تكرر أكثر من مرة مع كوثر، قالت صفا لكوثر: ما بال وجهك شاحب يا كوثر؟ شكلك لا يعجبني اليوم.

فقالت لها كوثر: لماذا تقولين ذلك؟

فقالت صفا: فيكِ حزن عجيب يا أختي، وأحس أنكِ قلقة وتحملين همومًا كثيرة.

فردت كوثر عليها متورعة وهي وجِلة: لا، لا، ليس هناك شيء.

فقالت صفا: حسنًا، حسنًا، هدئي من روعك، ولكن مالكِ انتفضتِ هكذا وكأني ألقيتُ عليكِ تهمة؟

فقالت كوثر بضيق: يا صفا، لماذا أنتِ مملة لهذا الحد؟ قلتُ لكِ ليس هناك شيء، وليس ثمة ما يقلق عندي.

فتداركت عندئذ صفا الموقف، وقالت لها بحنو بالغ: يا أختي، هوني عليك، فأنا أسألكِ لأنكِ تعرفين جيدًا كم أحبكِ، وأراعي صداقتكِ وأخوتكِ، ولأن الإنسان يجب أن يكون لديه صديق يشكو له همه، وإلا انفجر من داخله فمات محصورًا من كمده، أو يقدم على أمر فيه ضرر بالغ عليه وعلى من حوله.

حينها انهارت كوثر بالبكاء، وقالت: لا أعرف، لا أعرف يا صفا، اتركيني في حالي، ولا تسأليني.

فمالت صفا عليها بندفاع حنون، وأخذتها بين أحضانها كأنها أم حنون، وقالت: احكي لي ما بكِ يا صغيرتي، فأنا أختكِ وأمينة سركِ، فلعلنا نجد حلًا لما تعانين منه.

فقالت كوثر، وهي تمسح دموعها بيديها: كان هناك شاب اسمه عبد الله عمر، وهو من أصول أمازيغية، ولكنه يعيش في الحضر، وكان قد أتى لزيارة العم أمرزاق، ورمته الأقدار في طريقي...

وروت كوثر لصفا كل ما حدث بينها وبين عبد الله حتى لحظة اختفائه.

وعندما أنهت كوثر كلامها، قالت صفا: حسنًا، ولكن الأمر لا يدعو لكل هذه الضيقة التي أراكِ تعانين منها.

فتركت كوثر حضن صفا، وقالت بعصبية: كيف لا يدعو للقلق؟ وأنا أقول لكِ إنه اختفى منذ شهور!! وإني أشك أن الجميع يعلمون شيئًا ما عنه ولا يريدون أن يخبروني به.

فقالت صفا: كما رويت لي، أنه لم يصارحك بحبه لك حتى الآن، وأنك أنتِ أيضًا لم تصارحيه، وأن الأمر كان مجرد تلميحات ونظرات عابرة، وهذا أمر يحدث بين كثير من الشباب وكثير من الفتيات، ولكنه لا يؤكد أن الأمر سينتهي بارتباط حقيقي، لذلك فربما يكون لديه فتاة في المدينة أو في فرنسا، أو أن أسرته خطبت له فتاة حضرية مثله.

فقالت كوثر: ولكن العم أمرزاق لمح لي أنه حدث والده عني، وأنهما ربما سيأتيان لخطبتي من أبي قريبًا جدًا.

فقالت صفا: ربما حدث شيء أخرهما. ثم استطردت قائلة: أقول لك، اصبري، فالغائب دائمًا حجته معه.

وحتى يحين لقاء الله مقدره، عليك أن تخلعي عنك رداء الحزن الذي ترتدينه، يا حبيبتي، فأنتِ تعرفين جيدًا أن أكثر النساء والبنات في قريتنا عقارب. وأصارحك القول، إنهم يتساءلون بينهم: لماذا كوثر تبدو بائسة هكذا؟ ولم تعد تهتم بنفسها كما كانت؟ وإن بقيتِ على هذا الحال، فسرعان ما سيطلقون إشاعة عنك، أن شابًا ما غرر بك.

أنتِ تعرفينهم أكثر مني، كثيرات منهن لا أدب ولا أخلاق ولا حياء، وهم يغارون من فتاة جميلة مؤدبة مثلك.

فأستحلفك بالله يا حبيبتي أن تعودي لرشدك، وأن تفكري بعقلك، ولا تدعي عواطفك تخطفك حتى تصل بك لأمور لا يُحمد عقباها، وبدلًا من أن يكون الأمر حبًّا وهناء وسعادة، ينقلب إلى بؤس وحرمان وتعاسة.

كانت كوثر تستمع لصفا وهي تضع رأسها على صدر صفا، فمسحت دموعها وقالت: حسنًا، سأستمع إليكِ يا حبيبتي وأصبر، لعل الله يأتي بالفرج من عنده، ولكن ماذا إن لم يعد عبد الله يا صفا؟

فقالت صفا: سيعود إن شاء الله، فقط لا تستقدمي الشر بالظنون والشكوك يا عزيزتي، استبشري بالله خيرًا، ولن يخذلك الله أبدًا يا كوثر.

فابتسمت كوثر وقالت: حسنًا، سأفعل.

ثم استطردت: أنا آسفة يا حبيبتي، فلقد أثقلت عليكِ بمتاعبي.

فردت صفا قائلة: يا غبية، أثقلتِ على أختك؟ فلا تقولي ذلك حتى لا أغضب منكِ.

فتبسمت كوثر وربّتت على يد صفا، وقالت لها: إذًا دعكِ مني الآن، وأخبريني عن أحوالك مع خطيبك وابن عمك محمد.

فقالت صفا ساخرة وهي تضحك: تقولين أحوالك مع محمد، بل قولي أهوالك مع محمد!

إيه يا ابن العم الطيب، دائمًا ما تجعلني في قلق عليك بسبب تصرفاتك الهوجاء.

فقالت كوثر: ما الذي حدث مرة أخرى؟ ألم يهدهِ الله وقد أتم خطبتك من والدك؟

فقالت صفا: قال له أبي بعد قراءة الفاتحة: يا محمد، سنة وتأخذ ابنة عمك إلى دارك. فتَصوّري، بماذا رد على عمه هذا الملعون؟

فقالت كوثر: ماذا قال إذًا؟

فقالت صفا: قال له يا عماه، إني ذاهب للجامعة في مصر لأتم دراستي، ولحين ينتصر العرب على اليهود، وربما سأحاول أن أشارك مع إخوتنا المصريين لو حدثت معركة بينهم وبين إسرائيل، فنأتي بالنصر، فتكون الفرحة فرحتين: فرحة بالنصر، وفرحة بزواجي من صفا!

فقالت كوثر: حسنًا، أرى أن له وجهة نظر نبيلة.

قالت صفا: ولكن ما لنا نحن ومال المصريين يا كوثر؟ هم عرب، ونحن أمازيغ، وإن كان كلانا على دين واحد، ولكن لماذا نعلق آمالنا وأحلامنا على انجلاء أحزانهم؟

عندئذ، قالت لها كوثر: إن ما حدث في النكسة يا صفا لم يكسر قلوب المصريين وحدهم، بل كسر قلوب كل المسلمين، وكل العرب، وكل الأحرار في العالم.

هل تعرفين أن مصر قبل النكسة كانت الرمز العربي والإسلامي الذي يضيء رايات الجهاد؟ وأنها بزعيمها المرحوم جمال عبد الناصر كانت تمثل حجر الزاوية الذي يستند عليه كل العرب من أجل استرداد القدس، والمسجد الأقصى؟ وهل تعلمين أن جمال كان الرمز الذي يدل على انتصار الخير، وبزوغ نجم العرب والإسلام من جديد بعد أفول طال قرونًا؟

هنا ردت عليها صفا بلهجة أمازيغية، وقالت لها: يا شيخة!

لا أعرف من أين تأتون بتلك الكلمات الرنانة، والشعارات الطنانة.

ولا أعرف كيف تتكلمون عن مصر وزعيمها جمال هكذا، وأنتم لم تروا مصر ولم تعرفوها، ولم تطأها أقدامكم!

فقالت كوثر بحدة: كيف لم نرها، وهي من وقفت مع شعب الجزائر أمام الطغيان الفرنسي؟

هيه، أين أنتِ يا هذه؟

فقالت صفا: حسنًا حسنًا، أيتها الثورية، أنا الآن لا يهمني كل ذلك، أنا لا يهمني سوى الفتى الذي أحببته، والذي يريد أن يرحل عني حتى يحارب مع المصريين، فمالنا نحن والمصريين حتى نُتم زواجنا؟

فضحكت كوثر مقهقهة بسبب رد صاحبتها، ثم قالت:

هكذا الأمر إذًا، يا صفا يا شريرة، لا تفكرين سوى في راحة قلبك بجوار حبيبك!

فقالت صفا وقد احمر وجهها خجلًا: أو ما كنتِ تفعلين أيتها المغرورة؟

فضحكت كوثر، وضحكت صاحبتها.

ولكن صفا تنهدت، وقاطعت الضحكات قائلة:

أنت لا تعرفين مشاعري يا كوثر نحو محمد، أنا أحس أني أمه، وأخته، وصاحبته، لذلك أخشى عليه كثيرًا من الحرب، وأريد أن يتم زواجنا، ثم يبقى بجواري طول العمر، لقد سئمنا الحرب، والقتل، والقتال.

يا كوثر، لقد أخذَت منا الكثير، أخذَت من أعمامي وأخوالي، وأخذَت أخي الأكبر عيسى.

أو تعلمين، أنا أخاف على محمد، لأنه يذكرني بأخي الأكبر عيسى، فهو يشبهه كثيرًا. هو الآخر كان متحمسًا لثورة الجزائر، ما زلت أذكر

آخر مرة رأيته فيها، كنت وقتها طفلة صغيرة، وكان هو شابًا يافعًا يرتدي ملابس عسكرية.

قلت له حينها: إلى أين أنت ذاهب يا أخي؟ فرفعني بيده عاليًا وقال: أنا ذاهب لآتي بالنصر يا صفا. "ولكنه لم يعد يا كوثر."

وانهارت صفا هي الأخرى بالبكاء، وألقت نفسها بين ذراعي كوثر. وندّت عينا كوثر بالدموع، ولكنها ربّتت على كتف صاحبتها، وقالت لها:

"ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا، بل أحياء عند ربهم يُرزقون."

وكان اللقاء بين صفا وكوثر لقاءً مثمرًا لكلٍ منهما، فلقد خففت كل منهما حملها بالشكوى لصاحبتها عما أهمها، ولكن تبقى المشاكل معلقة حتى يشاء الله بحلها.

ويومها، لم تترك صفا كوثر إلا عند باب منزلها، ثم مضت صفا وهي منشغلة البال على صديقتها.

وطرقت كوثر باب المنزل، ففتحت لها أمها، وأخبرتها أن الخال أمرزاق أتى لزيارتهم، وأنه بالداخل يتحدث مع أبيها ومع أخيها علاء.

ففرحت كوثر، وتناست غضبها من ابن عم أمها، وقالت لوالدتها: أدخليني عليه بالله عليكِ يا أمي.

فنظرت لها والدتها نظرة تدل على أنها تكشف أمرها، وأنها تعرف أن ابنتها تريد أن تستطلع أخبار عبد الله،

فطأطأت كوثر رأسها بخجل وتعصبت، وقالت: حسناً، لا أريد منك شيئاً.

ولكن لا لا تينهينان قرصتها في ذراعها بحنو، وقالت: أدعو الله لك دائماً بابن الحلال الذي يصونك، ثم هكذا تردين علي يا بنت أمزيان؟

ثم استطردت قائلة: أنا فقط أريد أن أعلمك أني أعلم ما الذي يشغل ابنتي.

ثم نادت قائلة: يا أبا علاء، قد حضرت كوثر وتريد أن تسلّم على خالها أمرزاق،

فقال أمزيان من الداخل: فلتأتِ إذًا، وهل خالها أمرزاق غريب عنها حتى تستأذن؟

وهكذا دلفت كوثر إلى داخل الدار، وألقت بنفسها بين ذراعي العم أمرزاق، الذي قبّلها بين عينيها، وقال لها:

كيف حالك يا صغيرتي؟

فما كان من كوثر إلا أن قالت: الحمد لله، أنا بخير. ولكن لماذا لم تكن تريد أن تقابلني يا أمرزاق؟؟

فارتبك أمرزاق، ونظرت لالا تيهان لأمزيان بتحرُّج،

ولكن أمرزاق تدارك الأمر بحنكة الأب، وقال:

حسناً يا ابنتي العزيزة، ولكن سأقول لك كما يقول المصريون: اللقاء نصيب.

ها أنا قد حضرت لأسأل عنك، وجئت لك بالهدايا أيضاً.

فقالت كوثر: والأخبار الحلوة؟

فقال والدها: أي أخبار حلوة؟

فارتبكت كوثر، وقالت وهي تنظر لخالها أمرزاق بنظرات فهم خالها مغزاها:

أقصد أخبار مشروعه الناجح الذي كان يمنعه عن زيارتنا كل هذا الوقت.

تنحنح أمرزاق وسعل في كفه، وقال: حسناً يا بنت الأخت العزيزة، المشروع بخير.

وقد زرت مصر في عمل، وجئت لك من هناك بمُسجّل (روكوردر) وشرائط كاسيت لأغاني أم كلثوم وعبد الحليم ومحرم فؤاد وفريد الأطرش، وكل ما تشتهين سماعه من ألوان الطرب.

أطرقت كوثر السمع لخالها بتحفز، ثم ردت عليه قائلة:

حسناً، أشكرك يا خال، لأنك أتعبت نفسك من أجلي، وتذكرتني وأنت بعيد عني، وأنا بعيدة عنك.

وكانت الكلمات تخرج منها، وكأن في الكلمات ألواناً من اللوم والعتاب والغضب، ولكن أمرزاق رد عليها بحنو، قائلاً:

كيف أنساك يا حبيبتي، وأنت ابنتي وابنة الكرام الأعزة؟

ولكن كوثر ردت قائلة وهي تخنقها الدموع: ولكني غاضبة منك، وواجدة عليك، ولن أصفو لك حتى تخبرني لماذا أبعدتني عنك، ولن أقبل هديتك يا أمرزاق، يا ولد لالا حبيبة.

فتدخل أمزيان، وقال: وما بعدها لك يا كوثر؟ أنت هكذا تحرجين خالك، وكأنك تريدين أن لا يزورنا مرة أخرى!

فقال أمرزاق: لا، لا يا أخي، كوثر لا تقصد، فأنا أفهم ابنة أختي، وأعلم ماذا تريد.

ثم وجّه حديثه لكوثر، قائلاً:

حسناً يا ابنة أختي الغالية، لندع الإجابة عن أسئلتك لغد، ولنتسامر، ولنَسهر، ولنفرح بلقائنا كعائلة، كما تعودنا دائمًا. ثم إذا أتى الغد فسأستيقظ باكرًا، وآتي بمفردي عندك في الحقل، ولنجلس حينها ونتحدث كما تشائين. عندئذ سأجيبك على كل أسئلتك، فإن صدّقتِ أسبابي فاقبليها، وإن لم تصدقيها فارفضيني وارفضيها.

فقالت كوثر: عفوًا يا خال، فمهما كان الأمر منك، فأنا لا أستطيع أن أرفضك، فأنت تبقى خالي.

فقال أمرزاق: لا يا ابنتي، فالدين يقوم على النيّة، وعلى إعطاء كل ذي حق حقه.

وهنا قاطعتهما لالا تينهان، قائلة:

أنا لا أعرف لماذا الدراما ووجع الرأس، كلما اجتمعت كوثر وأمرزاق في مكان ما!

فضحك الجميع عندئذ، وقال أمرزاق: يعني أقوم أرجع لداري؟

فقالت لالا تينهينان: بل تبقى أنت، وأذهب أنا وطويلة اللسان هذه إلى المطبخ حتى نعدّ لكم العشاء.

ثم استطردت قائلة: هيا يا بنت أمزيان، أمامي إلى المطبخ، رحم الله جدتك حبيبة.

ثم وجّهت حديثها لابن عمها، قائلة: أستحلفك بالله أن لا تحمل في قلبك زعلاً على هذه الفتاة الغبية يا أخي.

فقال أمرزاق: هوني عليكِ يا أختاه، فأنا أعلم إلى ماذا ترمين.

فقالت لالا تينهان: ولكن إن اقتنعت، فهي مدينة لك بالاعتذار أمام الجميع.

فقال أمرزاق بأسى: لا بأس، فربما أكون أنا المدين لها بالاعتذار.

فقالت الأم لكوثر: هل سمعتِ كرم أخلاق خالك؟ هيا إذاً معي إلى المطبخ، لأنني أحتاج لمساعدتك.

فقالت كوثر: حسناً يا أمي، ولكن دعيني أولاً أدخل لأغير ملابسي.

فقال أمرزاق: حسناً، لنرَ ماذا ستعدّ لنا زهرتنا الحلوة.

فردت عليه مداعبة: ولو، لن أصالحك حتى تبدي لي الأسباب.

فقام أمرزاق، وركضت كوثر للداخل، وضحك الجميع عليهما.

وهكذا تركت لالا تينهان الرجال يتحدثون، ودخلت للمطبخ لتحضير العشاء، ثم تبعتها كوثر بعد أن غيّرت ملابس الخروج وارتدت ملابس منزلية، ولم يمضِ من الوقت إلا القليل، حتى وضعوا العشاء أمام الضيف. وكان الجميع سعداء بلقاء أمرزاق بعد غيبة طويلة، استمرت لشهور، وما قطعها سوى زيارته المفاجئة. وظلّوا ليلتها يتسامرون، حتى مضى وقت كبير من الليل.

حينئذٍ أحسّت لالا تينهان بتعب النوم، فاستأذنت من زوجها ومن ابن عمها، ومضت لفراشها. ونام علاء على ساق خاله أمرزاق، فأراد أبوه أن يحمله للفراش، ولكن كوثر طلبت من أبيها أن يتركه لها. ومن ثم أخذته كوثر وأدخلته في الفراش، ثم غطته جيداً بالدثار، ولم تترك جواره حتى اطمأنت عليه. وعندما عادت، وجدت أن

خالها أمرزاق ذهب أيضاً لحجرته من أجل أن ينام. وكان والدها في الحمّام يغتسل، فمضت هي الأخرى لحجرتها، وكان يُجافيها النوم كعادتها منذ غاب عنها عبد الله، فظلت فاتحة الجفنين حتى الساعات الأولى من الصباح، ثم جاءتها سِنة من النوم بسبب التعب والإرهاق. وكانت أمها تعلم بقلق ابنتها ومجافاة النوم لها، لذلك لم توقظها عندما قامت مبكرة في الصباح لتهتم بشؤون المنزل، ولكن عندما أحسّت كوثر بأشعة الشمس قد ملأت غرفتها، قامت منتفضة وذهبت بسرعة للمطبخ، فوجدت أمها.

فقالت لها: صباح الأنوار يا أمي، لماذا لم توقظيني يا لالا تينيهنان حتى الآن؟

فقالت الأم: رأيتك متعبة، فتركتك تنالين قسطاً من النوم.

فقالت كوثر: أشكرك يا أمي، فلقد كنت فعلاً مرهقة جداً من أعمال الحقل.

الفصل الثاني عشر

وكانت في القرية عائلة اسمها عائلة أمقران، خليط من الأغوات القدامى، ومن البكوات الجدد، ومن الأمازيغ والعرب، والخلط والزيغ والتعالي. وكانت لالا فاطمة، سيدة العائلة الكبيرة، قد أصبحت في السبعين من عمرها، وكانت تريد عروسًا لابنها سيد علي.

وكان سيد علي أمقران قد بلغ التاسعة والثلاثين من عمره، وكان طويل القامة، أبيض البشرة مثل الفرنسيين، ذو عيون رمادية قاسية، وأنف منتصب كالرمح المغروز في وجه صحراء ذات سراب، ثقلت أرايحها حتى صارت حرونًا صعابًا تطير الألباب. وهكذا كانت تحار العيون إذا سافرت في ملامح سيد علي: هل هو شخص طبيعي أم أنه شخص سيكوباتي بغيض، لما يكتنفه من غموض.

وكان ذو شعر بُني فاتح، وكانت ملامحه تنبئ ذوي الإحساس العالي من أمثال كوثر، بأن صاحبها فيه الكثير من القسوة والرعونة، وحب النفس الشديد. ولم يكن سيد علي قاسيًا لحد ممارسة العنف مع الآخرين، فلقد كان أجبن وأضعف من ذلك بكثير، ولكن شره كان يتمثل في بعض ممارساته الخاطئة، وقدرته على خداع الآخرين، وجعلهم يتصورون أنهم مذنبون في حقه، رغم أنه هو من أجرم في حقهم وحق نفسه.

وكان انتهازيًا كبيرًا، يحب إيذاء الآخرين وإيذاء نفسه، ويحب أن يشهر على الناس سلاح معرفته بأخطائهم، ويحب أن يجلدهم ويضغط عليهم حتى يضجوا أو يعلنوا استسلامهم لمطالبه ونزواته، وألا يحتجوا على إذلاله لهم.

وكان، بسبب نحافته الشديدة وهدوئه الداهي، يعرف كيف يمثل دور البريء، ودور الراقي المتسامح الذي تم الاعتداء عليه. وكم نال سيد علي من أشخاص، فدمر حياتهم بسبب قدرته على اصطناع البراءة، والتظاهر بالأدب والرزانة والرقي.

وكان لسيد هذا ثلاث أخوات بنات، تفضله أمه عليهن، ولكنهن كن مثله قد نلن قسطًا من التعليم، ومنهن اثنتان سافرتا إلى فرنسا لتكملا تعليمهما.

أما الكبرى، فكانت لها قصة. وكانت قد أحبت في ريعان شبابها شابًا كان والده من أكبر ملاك الأراضي الزراعية بالقرية، وصممت على الزواج منه، ولكن أمها وأخوالها رفضوا الشاب عندما تقدم لها، وأضربت الفتاة عن الطعام، فصممت أمها على أن يتم زواجها من أحد الأثرياء. فلما أيقنت الفتاة بجحود أمها وقسوتها، وقلة دينها التي بلغت بها أن تفكر في تزويج ابنتها من شخص لا ترضاه، هربت من بيت العائلة في جنح الظلام، والتحقت ببيت من أحبت واحتمت به.

ولكن عائلة الشاب لم تكن لترضى بأن يلحق بعائلة الفتاة أي عار بسببهم، فأكرموها ثم ردوها لأهلها بعد ثلاثة أيام، بغير اقتناع منها ومن ابنهم، الذي كان متمسكًا بها لحد رضاه بالموت من أجلها. ولكن أخاه الأكبر حسن أخبره أنه إذا صمم على أن يتزوج الفتاة دون إذن أهلها، فسيكون ذلك سُبة تلحق بالفتاة وأهلها، وبأولادها منه فيما بعد. فرضخ الفتى، لأنه لا يريد أن يتسبب في أي ضرر لمحبوبته، التي كانت كل أمله في الحياة.

ولكن نفيسة كانت صلبة الرأي، صعبة المراس، ولم تكن لترضى أن يُجبرها أحد على الزواج من شخص لا تحبه. وكانت من الإيمان بحيث لا تحاول الانتحار، فهربت مرة أخرى من بيت العائلة، وسافرت نحو المغرب، ومنها إلى إسبانيا، ثم حطت الرحال أخيرًا في فرنسا. وكانت قد اتخذت خطًا متعرجًا في الترحال حتى تضلل كل من يبحث عنها من طرف أمها.

وتقدمت نفيسة لدراسة الأدب في جامعة السوربون، وعملت في عدة أعمال بسيطة بعد أن استعانت بمعاونة زوج أمها السابق معاوية، والذي كان يعتبرها مثل ابنته، مع العلم أنه بلغ الخامسة والأربعين عامًا في هذا الوقت، ولم يكن قد ارتبط بغير أمها، وبالتالي فهو لم يُنجب. وهناك، فكرت نفيسة في مقاضاة أمها لتحصل على ميراثها من أبيها المتوفى، وأقدمت فعلاً على ذلك بعد مرور سنة على استقرارها في فرنسا، وتم إعلان محاميها.

فاتصل المحامي بلالا فاطمة وأخبرها بمقاضاة ابنتها لها، طالبة رفع وصاية أمها عنها وتسليمها ميراثها من أبيها. ووجدت لالا فاطمة حينئذ نفسها في موقف صعب، سيؤثر على سمعتها وعلى سمعة أبنائها الصغار فيما بعد، كما فكرت أن تنقذ ما يمكن إنقاذه من تحكمها في أسرتها، وخافت أن يفعل الصغار مثل فعلة أختهم الكبرى حينما يشبون عن الطوق. وعلى كل حال، فقد أحست لالا فاطمة، بفطنتها المعهودة، أن وقت الحذر قد حان، وأن أول ما يجب أن تحذر منه هو طيش أبنائها عندما يكبرون أو اختلافهم في الرأي معها في يوم من الأيام. وصدق من قال: إن كثرة أخطاء المرء في شبابه قد تعلّمه الحذر، ولكنها لن تعلّمه الحكمة ما لم تكن أصيلة فيه. إنما الحكمة تتطلب من الإنسان علو الخلق مع التواضع، قبل علو الشأن.

وكانت لالا فاطمة حذرة لأبعد الحدود رغم ضراوتها، ولكنها كانت إذا تمكنت، تفتك بخصومها كاللبؤة المتوحشة، حتى وإن كان هذا الخصم أحد أبنائها. لذلك، كان على كل من يعاملها أن يتحلى بالمكر والدهاء والحذر، لذلك كان على نفيسة أن تقدر نتائج فعلتها جيدًا.

ولكن لالا فاطمة لم يهدأ لها بالًا حتى راسلت ابنتها وطلبت منها أن تعود لبيت العائلة، وتزوجها بمن تريد. ولكن نفيسة ردت على أمها بأنها، إذا كانت تريد أن تبدي حسن النية من ناحيتها، فعليها أن ترسل لها عن طريق محامي العائلة إذنًا كتابيًا بخط يدها، وممهورًا

بإمضائها، وبشهادة الشهود، تعلن فيه عن موافقتها على زواج ابنتها من بو طالب، وبعده تتولى الفتاة، بوكيل وشهود من طرفها، إتمام العقد دينيًا ومدنيًا.

ثم تكون دخلتها على هذا الرجل حيث تعيش أمها وأقاربها، وأن تتعهد أمها بإرسال مصروف شهري لها حتى تكمل دراستها في فرنسا. حينئذ فقط يمكن لنفيسة أن تتنازل عن القضية التي جعلت محاميها يرفعها ضد أمها. ولكن الأم أرسلت رسالة ردًا على ابنتها، توبخها فيها على صنائعها ضد نفسها وضد أسرتها، ثم أخبرتها أنه لا مانع لديها من إرسال المال لها، ولكنها لن ترسل أبدًا موافقة على زواجها من بو طالب أو غيره.

فردت الفتاة على أمها بالسلام، ثم قالت لها: أما طلبي منك أن ترسلي ورقة موافقة لي على زواجي ممن أرتضيه زوجًا لي، فذلك لأني عقدت العزم ألا أعود إلى الجزائر إلا وأنا زوجة أحدهم ممن يعجبني خُلقه ودينه ورجولته وأصله وفصله، حتى يحميني من غطرستك أنت وإخوتك، وحتى لا أُجبر على الزواج بمن لا أرتضيه من قبلك أنت وعصبتك، فأخسر نفسي وديني. وما المال عندي أغلى من ديني، ولا ما تدعينه من تقاليد وأعراف، ما أنزل الله بها من سلطان. فإما أن تستجيبي لما طلبته منك، وإما أن يحكم القضاء بيننا. ولتعلمي، يا أمي، أني أحطت المحامي بكل ما فعلته معي في الجزائر، وأنك كنت تريدين تزويجي رغمًا عني من ثري يكبرني بأربعين عامًا،

لطمعك في متاع الدنيا الزائلة، وجشعك الذي ليس له حدود، كما أني سأحيط المحكمة علمًا بأنك تزوجت سرًا من عمرو الشامي، وأنت وصية عليّ وعلى إخوتي، وأنك لم تكوني أمينة علينا كما يجب أن تكون الأم أمينة على أبنائها. فاختاري لأمرك، وأمري ما شئت... والسلام.

وعندما وصلت الرسالة للالا فاطمة وقرأتها، صارت كنار الحديد المصهور، واتصلت بمحاميها وطلبت منه الحضور فورًا.

وفي ركن مظلم بمكتب زوجها الراحل، اختلت لالا فاطمة بمحاميها، وأطلعته على رسالة ابنتها، وشاورته في أمر ابنتها. وكان رجلًا خبيثًا، ومستنقعًا من الأخلاق السيئة وقلة الضمير، فأخبرها أنها تستطيع أن تساير ابنتها حتى تصبح بين يديها. فإذا أمسكت بها، وكانت ابنتها قد تزوجت ولم تدخل على زوجها بعد، وكان زوج ابنتها لا يعجبها، فتستطيع أن ترفع قضية وتفسخ ورقة الاتفاق بينها وبين ابنتها فيما بعد، بحجة عدم التكافؤ، ويمكن أن تحجر على ابنتها على أساس أنها سفيهة وسيئة التصرف، أو أن تمسك ابنتها عندها حتى يمل الزوج ويطلقها، كما أنها تستطيع أن تهدده بقدرتها على إيذاء زوجته إذا لم يقدم على الطلاق، أو أن تحاول بنفوذها أن تؤذي أهله، فيجبروه على الطلاق منها قبل أن يدخل بها، درءًا للمشاكل.

كما أن وضع نفيسة في فرنسا، وأبو طالب بالجزائر، لا ييسر لهما زواجًا مدنيًا في فرنسا.

ثم ختم كلامه بدهاء: "والخيارات كثيرة، ولذلك أدعوكِ ألا تقلقي يا سيدتي إلا من شيء واحد، وهو أن تقاضيكِ ابنتكِ، فتخسرين سمعتك، وهي أغلى من المال بكثير، ولا أظن إلا أنه أُسقط في أيدينا في هذه الجولة، وعلينا أن ننحني للريح حتى تمر، فإذا مرّت مرور الكرام، حينئذ نتصرف."

فقالت لالا فاطمة: أو تظن ذلك؟

فقال المحامي: إن الأمر لن يكلفك سوى ورقة اتفاق لا قيمة لها، وبعض المصاريف الزهيدة التي سترسلينها إلى ابنتك، ثم ستحتفظين بإدارة إمبراطورية من الشركات والأموال والأراضي والفيلات والقصور والعمارات.

فانظري، هل يهمك أمر تنفيذ رأيك على ابنتك من كل ذلك؟ وهل تهمك ابنتك أصلًا أكثر من الإمبراطورية التي تركها زوجك لك؟

فقالت لالا فاطمة: يا لك من شيطان! حسنًا، سأتجنب طريق هذه الأفعى حاليًا، ثم أعود إليها يومًا ما لأدق رأسها السام، وسأرسل لها كل ما أرادت، فأعد لي ورقة الاتفاق.

وكانت نفيسة وبو طالب يتراسلان، وكانا قد فكّرا في كل شيء قبل أن تفكر لالا فاطمة ومحاميها، وما إن أمسكت نفيسة بورقة الموافقة

الممهورة بخط لالا فاطمة، والتي أشهدت أيضًا عليها أخواها اللذان هما أخوال الفتاة، حتى أرسلت الفتاة رسالة لبو طالب تطلب منه الحضور إلى فرنسا إذا كان يحبها، لأن أمها أرسلت لها إذنًا قانونيًا بموافقتها على الزواج منه، كما أنها بلغت الثانية والعشرين من عمرها وتستطيع أن تزوج نفسها.

فسافر إليها بو طالب بأقصى سرعة، بعد أن اتفق مع إخوته وأبيه أن يقولوا إنه قد حدث خلاف بينهم أدى لتركه بيت العائلة، وأن والده قد تبرأ منه. وهناك، اتفقت الفتاة مع بو طالب على أنهما لن يعودا للجزائر إلا بعد أن يتم زواجهما، لأن بو طالب كان يدرس في فرنسا منذ سنوات، وكان قد التقى بنفيسة في حفل عرس كانا قد دعيا إليه من قبل بعض الأصدقاء، وكان ذلك منذ ثلاث سنوات، وبسبب ما حدث في الخطبة من مشاكل، أجّل بو طالب دراسته حتى تنجلي الأمور، ولكن الأمور تعقدت، وهربت نفيسة من بيت عائلتها، ولم يكن أحد يعرف لها من طريق، مما أصابه بالاكتئاب الشديد، فأوقف دراسته مؤقتًا حتى يصل إلى مكان حبيبته أو يعلم عنها خبرًا.

فلما راسلته نفيسة، رجع إليه الأمل من جديد، ولزمت أسرته رأي ابنها عندما رأوا أن هذه المشكلة أثرت على مستقبل ابنهم بالسلب. وكان بو عزيز، رب الأسرة، فلاحًا داهية وذو حيلة واسعة وحكمة صائبة، وكان بو طالب لا يخبئ شيئًا عن أسرته، وعندما أطلعهم على

رسالة نفيسة، جمع بو عزيز أبناءه وأخبرهم أنهم يجب أن يدعموا أخاهم، ولن يكون ذلك إلا إذا اتبعوا نصيحته، فوافقوه.

وعندئذ، أمر بو عزيز ولده بو طالب أن يسافر لفرنسا بأقصى سرعة، ليس لنجدة نفيسة فقط، ولكن من أجل أن يستقر هناك ويكمل دراسته، أما إخوته ووالده، فسيقولون إنه ترك منزل الأسرة بعد خلاف دبّ بينه وبين والده وإخوته بسبب معارضتهم لزواجه من نفيسة. وهكذا تم ترتيب الأمر، وفي فرنسا قام بو طالب بترتيب أوراقه المدنية، وحصل على الإقامة بفضل أقارب له هناك، ثم تزوج نفيسة.

وبعد عدة أشهر، تحيرت لالا فاطمة من عدم رجوع ابنتها إليها، فأرسلت إليها رسالة تسألها فيها عن سبب تأخرها، فردت عليها ابنتها برسالة تخبرها فيها أن بو طالب يكمل تعليمه في فرنسا في دراسة الهندسة المدنية، وهو لا ينوي الرجوع للجزائر الآن، لذلك ارتأيت أنا وهو أن نتم الزواج في فرنسا بعد إذنك يا أمي!

وعندما وصلت الرسالة وقرأتها لالا فاطمة، هاجت وماجت، ولكن كان قد نُفذ سهم الأمر، وكانت نفيسة قد أصبحت زوجة لأبو طالب.

وما هي إلا عدة أشهر أخرى، إلا وأنجبت فتاة جميلة أسموها انتصار، وأتوا بعدها بسنة بجمال بو عزيز، ثم محمد ومحمود على

التوالي. وهنا كان قد أُسقط في يد لالا فاطمة وفي يد عائلتي الزوجين، ولم يستطع أحد أن يفعل شيئًا سوى إعلان موافقته على الزواج، وكانت عائلة بو طالب تسانده وتدعمه بالمال والمعارف دون أن يحس أحد بذلك، وكان حسن بو عزيز يحرسه بأصدقاء له دون أن يشعر بو طالب.

ولم تنسَ لالا فاطمة ما فعلته بها ابنتها، فكادت أن تفتك بها عندما جاءت لزيارتها بعد عشر سنوات، ولكن رؤيتها لأحفادها الأربعة، ومعرفتها لما وصل إليه زوج ابنتها من مكانة مادية وأدبية، جعلاها لا تقدر على فعل أي شيء يؤذي ابنتها. كما أن نفيسة أصبحت كاتبة صحفية معروفة في إحدى الصحف الفرنسية، وكان لها مكانة دولية يُشار إليها بالبنان، وهكذا استطاعت نفيسة أن تفرض إرادتها على عائلتها، وكان قد استحوذ عليها إحساس منذ زمن أنها إن لم تحذر من أمها ومن عائلتها، فسوف يتسببون لها بأضرار جسيمة، لأنهم أشخاص متعالون على الناس رغم كثرة أخطائهم وتجاوزاتهم.

أما لالا فاطمة، فقد كانت قد ترملت وهي في سن صغيرة، وكانت قد ورثت ميراثًا كبيرًا من زوجها، كما كانت وصية على أطفالها حتى يبلغوا السن القانونية. ولكنها، بعد أن ترملت بخمس سنوات، وكانت في الأربعين من عمرها، أحست بالوحدة الشديدة في مخدعها، ولم تتحمل فورات شبابها، وكانت تبات لياليها في نار وحيرة.

وكانت على قدر لا بأس به من الجمال، فقد كانت قصيرة القامة، وصاحبة وجه مستدير، وذات قوام مكتنز، وكان لها من فتنة النساء ودلعهن الكثير، ولكنها كانت قد أخفت كل هذا في رداء من الجدية والصرامة، اتخذته لباسًا لها حتى لا يطمع بها الطامعون. وحدث ذات مرة، أنها أرادت أن تخرج للمصيف هي وصغارها في أحد الأماكن القريبة من تلمسان، لأنها لم تعد تتحمل رطوبة الجو بالقرية، وكذلك أرادت أن تُسري عن الأطفال، كما كان يفعل أبوهم.

وفي المصيف القريب من الحدود المغربية الجزائرية، والذي يُسمى الآن شاطئ بن مهيدي أو شاطئ الوزراء، وهو بالقرب من مدينة بوكانون الجزائرية، قابلت لالا فاطمة شابًا مغربيًا يصغرها بخمسة عشر عامًا، اسمه معاوية بن ظريف.

ويبدو أن هذا الشاب كان فقيرًا، ولكنه كان خبيرًا بطرق النساء، وكيف يصل إلى قلوبهن، وعندما علم أنها غنية، أخذ يتلاعب بها حتى أوقعها في حبائل غرامه، فتعلقت به لالا فاطمة، واندفعت معه في علاقة بغير زواج. وكان من المتوقع أن يستغل الشاب لالا فاطمة ماديًا، أو أن يحاول ابتزازها بما كان بينه وبينها من غرام، ولكن على غير العادة، وقع الشاب في غرام لالا فاطمة بسبب ما لمسه منها من عطف وحنان، كما أن لالا فاطمة كانت عليمة بطرق إرضاء زوجها، وذلك بسبب ما اكتسبته من خبرة من زواجها الأول، ولأنها

حرمت من الحب بعد زواجها الأول، لذلك فقد عقدت العزم أن تستمتع بكل لحظة من حياتها عندما تلتقي بعشيقها الحالي.

ولكن معاوية، كشاب مسلم، لم يكن يرضى أن تكون علاقته بحبيبته علاقة يصنفها الدين بأنها علاقة آثمة، كما أنه كان في قرارة نفسه يحترم لالا فاطمة رغم علاقتها غير الشرعية، ويرى أن الظروف هي التي أجبرته وأجبرتها على ممارسة علاقة في الظلام، وأنه لو أتيحت لهما الفرصة، فستكون لالا فاطمة زوجة محترمة ومحافظة. كما كان يؤلمه تخفيها من أطفالها في الليل لتلتقي به في كثير من الأحيان، وكان يضايقه القلق الذي يعتريها ويعتريه أحيانًا بسبب نظرات الناس لهما، لذلك فكر معاوية في مفاتحة لالا فاطمة في أمر زواجه منها، ولكن لالا فاطمة ثارت عليه عندما فاتحها في هذا الأمر، وقالت له بصراحة إنها بنت عائلة كبيرة بالجزائر، وإنها لا تستطيع الارتباط به في الوقت الحالي، لأنها أكبر منه سنًا، كما أنه فقير، وهي من عائلة لا تعترف إلا بالأغنياء ذوي الأحساب والأنساب. وكان معاوية شابًا هادئ الطبع، ورقيق الحال، رغم أنه كان قوي البنية، ولكنه أيضًا كان أرقى من كثير من أبناء الطبقات العليا، إذ إنه كان لا يحب أن يغضب قرينته، مهما كان ضغطها عليه، ومهما كانت ثورتها عليه، لذلك آثر الصمت حتى تمر العاصفة.

وراجعت لالا فاطمة نفسها، فوجدت أنها أساءت لحبيبها إساءة كبيرة قد لا تُغتفر عند كثير من الرجال. فحاولت أن تصرف نظره

عن مسعاه بطرق أخرى، وأغرقته بالمال، وكانت تتحين الفرص للقاءه بين حين وآخر، وتقضي معه الكثير من الوقت، ولكن معاوية كان قد سيطر عليه إحساسه بأنه في علاقة آثمة.

وفي أحد لقاءاته بها، قال لها: إذا كنا لن نتزوج ونشهر علاقتنا أمام الناس، فعلينا أن نفترق.

فثارت في وجهه، وكاشفته بكل صنيع فعلته معه، وكل قرش أعطته له.

وكان معاوية قد دخل مشروعًا سياحيًا ناجحًا مع أحد أصدقائه، وأصبح صاحب شركة ومال، فقال لها: إذن، أعدي كشف حسابك، وسأدفع لك كل ما تطلبينه، ولنفترق في هدوء واحترام.

فثارت لالا فاطمة، وقامت إليه حيث يجلس، ولطمته، ودفعته دفعات متتالية، فترقرقت الدموع في عينيه، وقيد حركتها، ثم احتضنها حتى هدأت، ومسحت دموعها، وقالت له: اسمع، أنت ترفض أن تستمر لإحساسك المتخلف أن علاقتنا آثمة، ولكن ما رأيك إن أبرمنا عقد زواج عرفي؟

وكان معاوية في هذا الوقت قد تمكن منه حب لالا فاطمة وعشقها، لأنها لم تفعل له إلا خيرًا، وأمنته على نفسها ومالها، فوافقها على أن يكون هذا الأمر مؤقتًا حتى يجدا حلًا جذريًا ويرى زواجهما النور.

واستمر الزواج العرفي سنتين، وكانا قد اتخذا شقة في مدينة الجزائر يتقابلان فيها، ولكن حدث في يوم من الأيام أن رآهما أحد الجيران المتطفلين، وأراد هذا الجار أن يبتز لالا فاطمة، فلم تجد أمامها طريقًا سوى إشهار زواجها من معاوية.

وكانت أعمال معاوية قد توسعت في هذا الوقت، وأصبح من كبار رجال الأعمال.

وعندما قصّت عليه لالا فاطمة ما حدث، وجد أن هذه فرصته من أجل أن يعيش مع المرأة التي أحبها في النور، واتفق معها على أن يتقدم لإخوتها طالبًا يدها منهم، وبالفعل تم الأمر، وعلم جميع أهل القرية أن معاوية بن ظريف هو زوج السيدة الكبيرة لالا فاطمة.

وعاش معاوية مع لالا فاطمة في سعادة وهناء لأكثر من خمس سنوات، وكان يعامل أولادها وكأنهم أولاده، كما أنه نال احترام الجميع.

ولكن لالا فاطمة كانت كثيرًا ما تأتيها ثورات غضب بغير سبب أو لأسباب تافهة، فتصب على رأسه جام غضبها، وتُكيل له الشتائم، وكان أحيانًا لا يتحملها فيرد لها الصاع صاعين، وكان ينهاها عن التكبر، ويأمرها بالصلاة وبالمعروف، ولكنها كانت كثيرًا ما لا تستجيب، وتقول عنه إنه طيب وأبله، ويعيش في عالم نرجسي وفوق برج من عاج.

حتى حدث في يوم من الأيام ما أذن بنهاية هذه العلاقة، عندما اكتشف معاوية أن لالا فاطمة ومحاميها وآخرين يتاجرون في الألماس المهرّب، وأنهم متورطون حتى آذانهم في هذه التجارة، مع شخص عربي اسمه عمرو القباني.

وعندما واجه معاوية زوجته بما نما إليه من معلومات، ثارت عليه كعادتها، وأنكرت في بداية الأمر، ثم حدث بعد أن ضيّق عليها الخناق أن اعترفت له بكل ما كان من أمر هذه التجارة. فطلب منها برفق ولين أن تترك هذه التجارة، حرصًا على سمعتها وسمعة أبنائها، ولكنها تملصت بكل يد وحيلة، فلما فاض الكيل، خيّرها بين الاستمرار، وبين هذه التجارة الحرام.

فاختارت لالا فاطمة طريق الثراء والمال على حبها، رغم أنه كان لديها ما يكفيها هي وأولادها خمسمائة عام، ولم تكن بحاجة لمثل هذه التجارة، بقدر حاجتها لرجل شريف مثل معاوية تعيش معه في سعادة وأمان باقي عمرها، ولكنها في قرارة نفسها لم تكن لترضى أن يتحكم بها رجل هو في الحقيقة صنيعتها، فرأت أن تخالفه، حتى وإن كان على حق.

وهكذا انتهت قصة حب معاوية ولالا فاطمة إلى الأبد.

ولكن ظل أبناء لالا فاطمة يحبون الرجل ويحترمونه، ويرونه في مكانة أبيهم، وكانوا إذا حدث لأحدهم مشكلة يلجؤون إليه، فيساعدهم.

ثم ترك معاوية البلد، ورحل لفرنسا، واستقر بها، ونقل إليها مكتبه الاستشاري، ولكنه لم يستطع أن ينقل كل مشاريعه وأعماله، وكان يقول: تنتقل معنا الذكريات، ولكن دائمًا ما يبقى الحي والميت من هذه الذكريات في أجواء الوطن.

وبعد فترة من انفصال لالا فاطمة عن معاوية، تورطت لالا فاطمة في زواج سري مع عمرو قباني، وكانت هناك أقاويل بين إخوتها وأبنائها أنها قبلت الزواج من عمرو قباني هذا، لأنه كان قد وضع أدلة كثيرة تحت يديه تدينها وتدين إخوتها، وتزج بهم جميعًا في السجن، فأرادت أن تروّضه بقبول الزواج منه وتستألفه.

ولكن هيهات أن يُستألف المفترس، وإن بدا عليه خوفه من السوط أو حبه للمدرب، وقد يحدث أن يغتال مروّضه في نوبة من جوع، أو من عمى وضياع.

وفي موسم الشر كل عام، يخلع الأشرار أقنعة الخير، حتى يبدّلوها بأقنعة أخرى تخفي الترهل وأثر الرياء، فاحذر أن تفاجئهم وهم بدون أقنعتهم!!!

وعمومًا، فلقد حدثت كل تلك الأحداث في حياة عائلة أمقران، وكان الناس في غفلة، لا يرون منهم إلا وجوه الوجهاء، أهل المال والشهرة والصيت والعزة والمنعة.

الفصل الثالث عشر

عندما تنعكس الأضواء انعكاسًا حزينًا، يتوه الإنسان ويضلّ طريقه، ويظنّ كثيرون أن الإنسان هو السبب الأصلي لكل مآسيه، ولكن في الحقيقة هناك من البشر من تغلّبت أقدارهم وظروفهم عليهم، فمهما حاولوا الفكاك، لا بد أن يمروا بالتجربة. ولكأنها النبوءة القرآنية التي تقول على لسان الله: "أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا سُدًى؟".

هكذا غاب عبد الله عن الدنيا التي بها كوثر، وباعدت الأيام وفرّقت بينهما، وصارت كوثر في حرج من خطابها. كأنها زوجة أوديسيوس التي وقف الخطاب ببابها، وقد كان خطاب بينيلوبي يأكلون ويشربون في ساحتها قهرًا وقسرًا، ولكن خطاب كوثر لم يقتنعوا بحجج الإرجاء التي كانت تأتيهم من أهلها، حتى كادوا أن يعبثوا بسمعة الفتاة، ولم يتورعوا عن أكل لحمها ميتة.

فقرّر والدها أن يقبل بخاطب من خطاب ابنته، ولو مؤقتًا.

والحقيقة أن سيد علي كان أفضل الخطّاب من حيث المال والمكانة الاجتماعية والأدبية، لذلك سارعت لالا تينهيان، بأمر من زوجها

أمزيان، لقبول طلب لالا فاطمة من أجل زيارتها، وبالفعل دعتها هي وبناتها لزيارتها.

ويبدو أن لالا فاطمة قد تريّثت في طلب يد كوثر من أهلها في أول زيارة، فقد رأت أن تطّلع أولًا على أحوال الفتاة عن قرب، وأن تقدّر جمالها بنفسها، لذلك أحبّت أن تتبادل العائلتان الزيارات أولًا، ثم تستفتح الأمر مع لالا تنيهنان عندما تحين الفرصة. وفي تلك الفترة التي تبادلت فيها الأسرتان الزيارات، وجدت لالا فاطمة عند كوثر أكثر مما رواه الناس عنها من أدب وأخلاق وجمال، والتمست من الفتاة تدينًا واحترامًا ملفتين للنظر.

ومن العجيب أن لالا فاطمة كانت ترى أن هذا التدين لا يُحسب من مميزات كوثر، لأنها كانت ترى أن المرأة الطموحة يجب أن لا يعوقها التدين عندما تشرع في تحقيق طموحاتها وأحلامها، كما أنها كانت ترى أن التدين والتمسك بالأخلاق يجعلان الشخص حساسًا من ناحية أمور كثيرة، كما أنهما يجعلان المرأة من النوع الذي لا يصبر كثيرًا على تصرفات الزوج اللا أخلاقية، فتصبح المرأة تتعامل معه بدون صبر، وبدون تريّث ولا حكمة، وذلك راجع إلى أن لالا فاطمة كانت مقتنعة تمامًا أن الرجل مخلوق لا يستطيع أن يعيش بلا خطيئة، مهما قدّمت له المرأة الشرعية من ترفيه ومتعة وسعادة وحب.

ومن المدهش والعجيب أن هذه المرأة تقول ذلك، رغم أنها عاشت قصة حب عظيمة مع زوجها معاوية، الذي اكتفى بها دون نساء الأرض جميعًا، ولكن لالا فاطمة كانت ترى أن معاوية ظاهرة لا تتكرر كثيرًا في الرجال، وأما بقية الرجال، فمجرد نمور يبحثون عن فريستهم ليل نهار، وأن القدر وحده هو من يعتني ببعض النساء فيجعلهن ملكات مسيطِرات، أما أكثر النساء فهنّ فرائس ضعيفة للرجال، يتمّ التخلص منهن بمجرد انتهاء صلاحيتهن، أو بمعنى أدق بانتهاء قدرتهن على الجذب والتحكم.

وكانت لالا فاطمة تخشى من أن كوثر ستكون فريسة لابنها سيد علي، ولكن هكذا قالت لنفسها يومًا، قالت:

ما دام هو مشروع نمر متوحش، وما دمت أنا اللبؤة التي أتت به للحياة، فليفترس ما شاء الله له من الفرائس، فالأهم عندي أن أكون أنا الممسكة بالقيادة، والمتحكمة بزمام الأمور، بحيث لا يمكن له أن يتمرد عليّ في يوم من الأيام، وأن يبقى تحت طوعي وإرادتي ما حييت، هو وباقي إخوته. وهكذا سارعت لالا فاطمة بخِطبة كوثر من أبيها، فكان يومًا مشهودًا في القرية. وفي ذلك اليوم استعجلت لالا فاطمة والدي كوثر من أجل إتمام الزفاف، لدرجة أنها لم ترجع قصرها إلا وقد اتفقت مع والد كوثر على إتمام الزفاف بعد شهرين

من تاريخ إعلان الخطوبة، ومن ثم يسافر العروسان معًا إلى فرنسا، حتى يستكمل سيد علي فيها دراسته العليا.

وكان سيد علي يستشعر بعض الجفاء من كوثر، التي أراد التقرّب منها ببعض الوعود، والتي من بينها مساعدتها على إكمال دراستها بمجرد استقرارهما في فرنسا، وكانت كوثر تسمع منه، ولا تملك إلا أن تهزّ رأسها بالإيجاب، وهي قلبها ممتلئ بحزن دفين، فقد رضخت لأهلها لأجل القبول بأمر الزواج منه، بينما كانت تتقطع حزنًا على عبد الله، وعلى حبها له الذي أهدره القدر رغمًا عنها. بل كانت أكثر حزنًا لأنها فقدت إرادة الصمود أمام أحكام المجتمع، الذي كانت ترى أنه جائر عليها.

وأيًّا كان أمر الفتاة الحزينة، فقد مرّت الأيام سريعًا، نعم، مرّت كلمح البصر، لتضع كوثر أمام أقدارها، وكأنها تلقّنها درسًا في غلبة القدر، مهما قاومت، ومهما حزنت، فما يجب أن تمرّ به، ستمرّ به، ولن يتمكن أحد من إيقاف مرورها به، مهما أوتي من قوة ومن حكمة، ولذلك عليها أن تواجه مصيرها بكل شجاعة وإقدام.

وهكذا رضخت كوثر، عندما أقدمت على الزواج من سيد علي، مغمضة العينين، صامّة الأذنين عن كل أصوات التراجع والأحزان، ومضت في طريقها لتمنح سيد علي أملًا وحياة وسعادة، لم تستطع أن تمنحهم للرجل الذي أحبته. ولكن، أين هو الرجل الذي أحبته؟

لقد تلاشى وجوده من حياتها فجأة، ولم يعد طوال ثلاثة أعوام، مرّت كأنها ثلاثة قرون، بل كأنها مليار سنة. لذلك، كان الواجب الزوجي يُحتّم على كوثر أن تأمر عقلها بنسيان عبد الله، ولقد نجحت في إقناع عقلها بذلك إلى حدّ كبير جدًّا، حتى إنها ظنّت في وقت من الأوقات أن سيد علي قد ملأ عليها حياتها، وأنها لم تعد تفكر في عبد الله إلا على فترات متباعدة، ربما كانت تتساءل عن مصيره، بسبب ما اكتنف اختفاءه من غموض.

وحدث في تلك الأيام أن أتى العم أمرزاق لزيارة ابنة أخته في فرنسا، ويبدو أن تلك الزيارة واكبت رحلة بحثه عن عابد العجب وصديقه المصري.

ولقد ارتعدت فرائص سيد علي عندما روى له أمرزاق كيف تمكّن من استرداد صديقيه بكل سهولة.

فلقد سألت كوثر خالها يومًا عن تلك القصة، وكان سيد علي جالسًا معهما، فابتسم أمرزاق، ونظر إلى الأرض، ولكن كوثر ألحّت عليه.

فقال أمرزاق: شعرت بعد مقابلة هذا اليهودي أنه يتحايل علي، وأنه يخفي أمورًا لا أعلمها، ولكن كل ما كنت أريد أن أعلمه هو مكان بو عابد العجب وعلي المصري، لذلك اتفقت مع بعض الأصدقاء على استضافة عائلة الرجل لدينا لبعض الوقت.

ومن حسن الحظ أن الرجال الذين توجهوا لأداء تلك المهمة أتوا مع عائلة الرجل بصيد ثمين جدًا، لقد كانت أوفيرا رومنسكي ابنة رئيس مجلس إدارة الشركة الأم، ويبدو أن أسر هذه الفتاة مع عائلة رئيس الفرع الفرنسي قد فتّ في عضد القوم، فسارعوا لمحاولة الاتصال بي عن طريق أحد المعارف، وقد أجبتهم عن طريق وسيط متخصص أنه ليس هناك أي كلام بيننا قبل معرفة مصير أبو عابد العجب ومصير صديقه علي المصري.

ويبدو أنهم ثاروا في أول الأمر، وأنكروا أي معرفة لهما بالرجلين، ولكني عاودت إجابتهم مع نفس الرجل قائلًا لهم: إن رجالهم في موريتانيا هم آخر من شاهد الرجلين، كما أن هناك شهودًا من موريتانيا شهدوا بأن رجال الشركة الأجنبية هم من اختطفوا الرجلين بواسطة حراسهم يوم حدوث التشاجر بينهم، وأنه لا داعي للإنكار أو التعنت.

عندئذ طلب السيد رومنسكي مقابلتي شخصيًا في مكان محايد، فاستجبت لطلبه، وحددنا ميعادًا في التاسعة صباحًا في إحدى ضواحي باريس الهادئة.

وقد ذهبت له أنا ورجالي ورجال من الجالية، وكنا مدججين بالسلاح، وكنا قد نوينا بهم الشر إذا هم غدروا.

ولكن عندما قابلت رومنسكي وجدته رجلًا هادئًا ودمث الطباع، ولا أعرف أكانت تلك طبيعته أم لأنه كان يقدّر أن عزيزته لدينا.

وهنا قالت كوثر: ولكن يا خال، هل كنت لتؤذي ابنته لو أنك تأكدت أنهم تخلصوا بالفعل من أبو عابد العجب ومن علي المصري؟

أمرزاق: من الصعب، ويكاد يكون مستحيلًا يا حبيبتي، محاسبة قرابة المجرمين الأبرياء على أمر اقترفه هؤلاء المجرمون، مهما كان الجرم غير إنساني ووحشي. فسيبقى القانون الإلهي الذي يقول: "ولا تزر وازرة وزر أخرى"، وسيبقى العقل حيث يهمس للضمير، ويقول له إن كل شخص مسؤول عن أفعاله الخاصة، وليس مسؤولًا بأي شكل من الأشكال عن أفعال قرابته مهما كانت درجة صلتهم به. وأرى أن الشخص هو من يضع نفسه موضع المطالبة عندما يؤيد أفعال غيره الشريرة، بدعوى تأييده لأصحابه وقرابته.

وهنا قال سيد لأمرزاق: إذا فأنت ترى يا خال أن الشخص العاقل يجب أن يكون منصفًا، ولكن ألست معي أن أغلب الناس ليسوا منصفين؟ وأن كل من حاول أن يكون منصفًا أصابته الخطوب؟

وهنا أجابه أمرزاق قائلًا: أتقصد أن التاريخ يكتبه المنتصرون فيشوهون المنهزمين كما شاءوا، أم تقصد أنك تعارض مبدأ الشخص المنصف من الأساس؟

فقال سيد: وهل هناك فرق بين الموقفين؟

فقال أمرزاق: بل هناك الكثير من الفروق، وليس فرقًا واحدًا فقط.

فقال سيد: أخبرني يا خال بأهم تلك الفروق؟

فقال أمرزاق: أهم تلك الفروق أن السياسات تمثل الأمم من حيث اقتناع الأمم بنبل مقاصدها، اقتناعًا يجعل الأفراد والجماعات في الشعوب لا يرون اعوجاج الحكومات على وجه حقيقته، فيبدو لهم في شكل غير أخلاقي وهو بعيد عن ذلك تمامًا.

أما الأخلاق، فهي القضيب الذي يجب أن يمشي عليه الجميع في معاملاتهم التي ليس لها شأن بالسياسة،

وهو الصراط، لا تستطيع الأمم ولا يستطيع الأفراد أن يحيدوا عنه في كل تعاملاتهم، لأننا عند التعامل لا نكون بصدد حروب ومعارك، ولكننا نكون أكثر بصدد إنجاح هذا التعامل بحيث يحقق الجميع الربح ويتجنب الجميع الخسارة.

هنا ضحك سيد وقال: ولكن ألم تعلم يا خال أن أي تعامل يجب أن يكون فيه خاسر وكاسب؟ أراك مثاليًا وخياليًا لحد بعيد، يبدو لي أن عملك بالفنون قد أثر على ديناميكية تفكيرك.

تململ أمرزاق في جلسته بثقة فيها بعض الامتعاض بسبب ما لمس من سطحية في محدثه، ولكنه حاول بكل ما أوتي من قدرة أن يخفي هذا الامتعاض عن محدثه، لأنه بمثابة صهر له وبحكم غلاوة كوثر

عنده. ولكن يبدو أن هذا الامتعاض سيتحول لاحتقار من طرف أمرزاق في وقت لاحق، بعد تكرار التعامل والحديث مع سيد علي. وبحركة عصبية بليغة وبطيئة جعل أمرزاق راحته تقبض على ظهر يده، بينما كان يجلس على الأريكة جلسة معتدلة، ثم نظر مليًّا لسيد وقال: عندما يشتري شخص ما جوهرة غالية الثمن من الصائغ الذي محله تحت بيته، قد يشعر الجواهرجي بعد إتمام عملية الشراء والبيع بنجاح، وأنه قد ربح فرق السعر الذي نقده إياه المشتري ثمنًا للجوهرة، ولكن قد يراوده شعور أنه خسر جوهرة قيمة لا مثيل لها.

ولا تدري، فلربما يكون اقتناؤه للجوهرة كان عنده أفضل من كل أموال الدنيا، وكذلك هذا الشخص الذي اشترى الجوهرة، فربما يكون قد ربح الجوهرة، وقد أمسى وأصبح وهو مالك الجوهرة، ولكنه قد يكون يفتقد المال أكثر.

وقد يقدّر الرجلان أن كلاهما رابح، وأن كلاهما سعيد بما حقق، - هذا سعيد باقتنائه للجوهرة، والآخر سعيد بما حقق فيها من ربح -

لذلك فالأمر نسبي، لا يجب القطع فيه بنتيجة إلا بعد سؤال كل منهما عمّا يشعر به اتجاه ما حققه من تلك العملية التجارية البسيطة.

أما الأرقام، فلا يحقق ربحيتها إلا خبير، يبرز ماذا فعل هذا بماله، وماذا فعل هذا بجوهرته.

فلو فرضنا أن صاحب المال تمكن عن طريق استخدام أمواله من إنقاذ حيوات كثيرة، وفي نفس الوقت الذي أقدم فيه على فعل هذا الخير الكبير،

ثبت صاحب الجوهرة جوهرته لديه، وأوقفها عن التعامل،

حتى صار ثمنها مثل الثمن الذي بيعت به مئة مرة، عندئذ من الذي يكون قد ربح؟

فتح سيد علي فاه ليجيب، ولكن أمرزاق قال: دع أمرزاق العجوز يخبرك بتخيله، كما تقول أنت.

ثم استطرد قائلًا: عندئذ ربما يكون الذي ربح ثمن الجوهرة المعاصر هو من ربح مالًا أكثر، ولكن في الواقع، وفي حقيقة الأمر،

يكون الذي ربح سباق الحياة هو من أنقذ الحيوات، لأن حياة واحدة فقط لا تقدر بكل كنوز الدنيا.

نعم، سيكون الرابح هو من استخدم أمواله في إنقاذ حيوات الناس وإسعادهم، ولو لم يتبقَّ لديه من تلك الأموال فلسٌ واحد.

أوَ تعلم أنه يكون في أغلب الأحيان أعلى قدرًا من صاحب المال، لأن تلك الأيادي الغامضة التي تمتد عبر ضباب خيبات التآمر وخطوب الدواهي، لن تستطيع أن تمتد إليه بأي سوء، لأنهم سيفكرون ألف مرة قبل أن يدعوا عليه ظلمًا، لذلك سيقف الشر عاجزًا حياله في

أغلب الأوقات، وحتى في بعض الأوقات التي قد يتغلب فيها عليه جبار غاشم، ستبقى جزوته مشتعلة حتى بعد أن تنطفئ جمرة هذا الجبار، لأنه لا يبقى من المرء إلا سيرته. أحست كوثر أن رد أمرزاق كان مفحمًا لزوجها، فتألمت، ولكنها عبّرت هذا الألم بابتسامة حزينة، وقالت: دعكما من هذا التناطح، وأخبرنا يا سيد أمرزاق عمّا حدث بينك وبين رومنسكي؟

وسايرها سيد حتى يفلت من قبضة أمرزاق، فقال: نعم، نعم، لقد أخذنا النقاش، ولم تخبرنا ماذا فعلت مع هذا المدعو رومنسكي؟

فقال أمرزاق: حسنًا، لقد سألني رومنسكي: هل ابنتي لديكم؟

فقلت له: نعم، وهي معززة مكرمة حتى أحصل على ما أريد، فأردها لك، وأرجو أن تعتبرها حتى ذلك الوقت أمانة قد أودعتها عندي.

فقال رومنسكي: حسنًا، ماذا تريد يا سيد؟

فقلت: أريد أصدقائي، أبو عابد العجب، وصديقه المصري.

رومنسكي: حسنًا، ولكن لدينا شروط.

أمرزاق: أنا أيضًا سيكون لدي شروط حتى أرد عزيزتك، وأعزاء السيد المدير.

رومنسكي: هل قال لك أحد إنك صعب المراس يا سيد أمرزاق؟

أمرزاق: كثيرون يقولون عني مثل قولك هذا، من بينهم أولادي.

رومنسكي: ولكني أثق أن نبلك الشرقي لن يدعك تمس صغارنا بأي شر.

أمرزاق: لا تراهن على ذلك، فلربما لا أتركهم حتى أطلعهم على حقيقتكم، وأنكم خطفتم رجلًا بريئًا طمعًا في ثروته وفي عائدات مشروعه المستقبلية.

رومنسكي: مع احترامي، ولكنك لن تستفيد شيئًا إذا أخبرتهم.

أمرزاق: ها أنت نفسك أخبرتني أنهم يؤيدون جرائم آبائهم، فثق أن ذلك سيجعلني أستعجل النهاية وأنا مرتاح الضمير.

رومنسكي وهو يتصبب عرقًا: ولكن فيهم أطفالًا.

أمرزاق وهو ينظر لرومنسكي نظرة ذات مغزى: من قال لك إننا نؤذي الأطفال والنساء؟

ولكن أليست الحضارة الغربية هي من اختارت نظام إبعاد الأطفال عن هؤلاء الآباء الذين لا يصلحون لتربيتهم بسبب منشأ الآباء الإجرامي، وسقوطهم الاجتماعي والأخلاقي؟

رومنسكي بحدّة: سيد أمرزاق، أنت لست مؤسسة اجتماعية حكومية، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فعليك أن تعلم أننا لن نترك

السيد بو عابد وعلي إلا إذا اتفقنا على نسبة شراكة محترمة في المنجم الموريتاني.

ثم استطرد، وقد هدأت حدته بعض الشيء: وبالمناسبة، فأنا أؤكد لك أننا نحافظ على سلامتهما الشخصية، ونعمل على حسن معاملتهما.

ولكننا أردنا أن يكونا منتبهين أثناء فترة التفاوض معنا، وبدون أي انشغال يعطل هذه المفاوضات التي ستحقق الربح الوفير لكل الأطراف.

أمرزاق: هههههه، يعجبني فيك أنك تصدق نفسك يا سيد رومنسكي، يا رجل، هذان الرجلان المحتجزان لديكم قد تعطلت أعمالهما لشهور، وتكفل أهلهما وأصدقاؤهما بالمال والوقت والجهد من أجل البحث عنهما، ناهيك عما سبب اختفاؤهما لأسرة كل منهما من ألم.

رومنسكي: أما المهندس علي المصري، فلا يبحث أحد من أهله عنه في مصر، اللهم إلا الشرطة المصرية، لأنه متهم بقتل ثمانية أفراد ذبحًا في بيته، وأظن أن وجوده معنا لبعض الوقت يوفر له مخبأً جيدًا حتى تنتهي مشكلته مع الشرطة المصرية.

أما بو عابد، فنحن سنتكفل له بالتعويض اللازم بمجرد أن يوقع عقوده معنا، وذلك إن هو أراد.

أمرزاق: ها أنت تلمّح أنك ستسلم المهندس علي للشرطة المصرية؟ حسنًا، إذا كان مذنبًا، فعليك تسليمه لخارجية بلاده، فلم لا تفعل ذلك؟!!!

أما بو عابد، فهو لن يوقّع معك طالما يعلم أنك يهودي وصهيوني.

رومنسكي: لماذا تجرفنا بتلك العنصرية البغيضة يا سيد أمرزاق؟

أمرزاق متهكمًا: وكأنك لا تعرف!!؟

ثم رفع طبقة صوته، وقال: لأنك صهيوني ويهودي، يا سيدي، ولأنك تستخدم نفس أساليبهم، ونحن كأمتين مختلفتين، وبيننا قضايا تاريخية لم تُحسم، ولن تُحسم إلا بعد عقود، وأخشى أن أقول إن هذه القضايا قد تستمر قرونًا بدون أن يُوضَع حل لها بسبب مماطلتكم يا سيد، فكيف يمكن أن تكون بيننا أعمال ومشاريع، ونحن في حقيقة الأمر أعداء؟

رومنسكي: حسنًا، سيد أمرزاق، إذًا أنت تقول إنك لا ترفضنا بسبب عرق أو لون؟

أمرزاق: إطلاقًا، فكيف يكون ذلك إنسانيًا؟!!!

رومنسكي: سأكون صريحًا معك لأبعد الحدود، عسى أن نتوصل لحل يرضي جميع الأطراف.

فلربما أكون من الأشخاص الذين يميلون نحو تلك الوعود الصهيونية. وربما أكنّ الإعجاب لهؤلاء الذين يحاربون في الأراضي المقدسة من أجل إعادة الوطن. ولكن أنا أيضًا كإنسان، لا يرضيني إيذاء الآخرين، ولا يرضيني سلب ممتلكات الآخرين بقوانين لا تجلب إلا اللعنة، ولا يرضيني إزهاق الأرواح لمجرد المعارضة برأي يخالف التصورات المتعسفة، المتعنتة، المريضة. كما أنني يا سيدي لست إسرائيليًا، بل أنا أفتخر بأني رجل إنجليزي، وطني من أصول روسية. وسأظل هكذا ما حييت، لا أدين بالولاء لأحد إلا لحكومة جلالة الملكة، كما أن شركتنا لا تضم أي رجال أعمال من طرفي النزاع في الشرق الأوسط، سواء كان من عند شقيقتكم أو من عند شقيقتنا.

أمرزاق: حسنًا، ولكن ماذا تقول في أنكم فرضتم أنفسكم على المشروع، وعلى بو عابد وشركائه؟

رومنسكي: لا يا سيدي، فأنت تجهل أن بو عابد كان يعمل لدينا، وأنه استقى معلوماته عن هذا المنجم من مصادرنا.

ولقد استغل توقف نشاط الشركة بسبب بعض المتاعب اللوجستية والقانونية التي أثارتها جهات حكومية بيروقراطية، ولم يكن لنا يد فيها، فقدم استقالته، وحصل على حقوقه كاملة.

ثم توجه لموريتانيا بعد أن حصل على إخلاء طرفه. وقام هناك بالتعاقد مع صاحب المنجم، في الوقت الذي كان فيه التفاوض

قائمًا بيننا وبين صاحب المنجم. مما أدى لوقوعنا في خسائر كبيرة، وكل ما أردناه من السيد أبو عابد العجب هو التوقيع معنا بصفته الشريك الممول والمستغل، بنسبة شراكة بسيطة تعوض خسائرنا. ولكنه رفض، بحجة أننا يهود، وكأنه لم يكن يعمل معنا من قبل، وكان يعلم أن منا يهودًا ومنا مختلفين ومسيحيين وملحدين، ولم يقدّر عندما افتعل معنا تلك المشكلة أن الأمر له علاقة بالعمل والمال، وليس له أية علاقة بالدين والعرق، ولا أدري كيف ألّف أبو عابد العجب ما ادعى، ولكني أرى أن أصعب ما في بعض العقول العربية هو توهّمهم وإيهامهم بالباطل، وبما لم يحدث ولم يكن أصلًا، وذلك عندما يجدوا أن إثارة مثل تلك الأمور ستخدم مصالحهم غير العادلة، لذلك يتصورون أنهم المستفيد الأوحد من إثارة البلبلة في عقول الآخرين.

أمرزاق: احذر يا سيد، فإنك توجه اتهامات لأخي أبو عابد بدون بيّنة، وبدون دليل واضح يدينه.

رومنسكي: حسنًا، سيد أمرزاق، ماذا تريد؟ إذ يبدو أن نفسك قصير، ولن تتحمل مواجهة الحقيقة.

أمرزاق: أثبت لي صدق كلامك، وسأساعدك من أجل أن تحصل على حقوقك كاملة، وحتى تتمكن من إثبات ما تدّعي، فأنا أطلب منك ألا تذكر أخي بو عابد بأية معلومة تُسيء إليه.

رومنسكي: هل أنت جاد حقًا فيما نطقت به؟

أمرزاق: كل الجد، ولا يمنعني إلا الموت من الوفاء بوعدي.

وكان خضر، ابن شقيق أمرزاق، معه ويصغي لكلام الرجلين جيدًا، فقال:

وحتى الموت يا عمي لن يمنعك من الوفاء بوعدك، لأن خلفك رجالًا سيوفون بعهدك وبوصيتك.

رومنسكي مقاطعًا: حسنًا، حسنًا، سيد أمرزاق، سأحاول أن أرتب اجتماعًا يكون حاضرًا فيه أبو عابد والمهندس علي، وعليك أن تعلم أنني عندما أقوم بذلك، فإني أخاطر بكل شيء، ولكنني أرى أني تورطت للحد الذي أصبح عليّ فيه أن أفكر بالتراجع، وإلا سقطنا جميعًا في هوة لا يعلم ما في قاعها وقواقعها إلا الله...

ثم افترقنا على وعد بلقاء آخر بعد يومين، في نفس التوقيت، حتى يقوم رومنسكي بمناقشة المجلس وإقناعهم بضرورة مقابلة بو عابد العجب. وعندما حان الموعد الأخير، قمت أنا ومجموعة من الرجال بالتوجه نحو المكان الذي حددوه لنا من أجل إجراء المقابلة، وكانوا قد أبلغونا قبل الميعاد بيوم أن اللقاء سيكون في مرسيليا، بأحد اليخوت الأجنبية التي ترابض على الشاطئ. وقد كان، وعندما وصلنا للمرسى المحدد، استقبلنا رجال بيض أشداء يلبسون بدلات غالية، وكانوا شديدي التأنق والرقي، إذ يبدو أنهم المكلفون بإدارة الأمن

حول هذا اليخت وداخله، وكانوا ذوي أدب جم، لأنهم سألونا عما إذا كنا نحمل أسلحة، فعلينا تركها لديهم حتى ينتهي اللقاء، ولكني أجبتهم أننا تركنا أسلحتنا في المكان الذي جئنا منه، ففهم مدير الأمن مغزى كلامي، ورد قائلًا: حسنًا، سيدي، كما تريد، ولكن هل تسمح لنا أنت ورجالك بالتأكد من ذلك؟ فقلت له: عليك أن تثق بكلامي. فقال: أنا أثق بك يا سيدي، ولكنها الإجراءات الروتينية. فقلت: حسنًا.

ولاحظت أنهم لم يحاولوا أن يفتشوا أحدًا بطريقة اعتيادية مهينة، وكانوا قد أظهروا لنا أنهم يراعون آداب الضيافة والاستقبال بكل الطرق، ابتداءً بالابتسامة، وحتى يطمئن رجل الأمن أنك جالس في كرسيك مرتاح وآمن، حيث مركز الاجتماع. وما هي إلا لحظات، حتى دخل رجال عجائز قد علا الشيب رؤوسهم، يبدو أقلهم سنًا وكأنه قد تخطى السبعين من العمر، وكانوا على درجة عالية من الهندام، وعندما دخلوا من باب قاعة الاجتماعات، أشاروا لي أنا وابن أخي بتحية ما، ثم عادوا ليتحدثوا مع بعضهم بصوت منخفض. ثم دخل رومنسكي، فمد يده ليصافحني، فتصافحنا، وكل منا يبدي انحناءة خفيفة تعبّر عن احترام كل منا للآخر، وإن كان كل منا قد أصبح يتوجس من صاحبه خطرًا قد يحيط به.

ولكن ما إن اتخذ رومنسكي مجلسه على طاولة المفاوضات، حتى وجدت بعض الرجال الأشداء قد دلفوا للقاعة، ومعهم بو عابد العجب، والمهندس علي المصري، وكان كلٌّ منهما يبدو في صحة جيدة، ولا يعاني من تعذيب أو إساءة معاملة. عندما اتخذ بو عابد مكانه في المجلس، تفرّس في وجوه الحاضرين، وأحسست أنه عندما رآني، وكأنه قد أخذه العجب الشديد، وبانت على ملامحه الحيرة والتساؤل والدهشة، وكأنه كان يتساءل: كيف استطعت أن أصل إليه حيث مكانه؟ وهل أتيت حقًا لنجدته؟ أم أني أحد المستثمرين؟ ورغم كل هذه التساؤلات التي شعرت بها من مجرد النظر في وجهه، إلا أنه رفع يده ليشير لي بإشارة ترحيب، فبادلته التحية، وابتسمت ابتسامة توصل له أنني سعيد بأنني وجدته سالمًا، لأحاول تهدئة روعه، وحتى يستنبط سبب وجودي، الذي هو تخليصه مما هو فيه من أسر، وأن أطمئن ذويه على سلامته الشخصية.

وقطع النظرات بيني وبين أبو عابد كلام رومنسكي، الذي افتتح الاجتماع مرحبًا بي، ومرحبًا بالسيد بو عابد العجب، ومرحبًا بالمهندس علي المصري، وأضاف أننا ضيوف شرف الاجتماع، ويجب معاملتنا بكل احترام وود وتقدير. وأخذت الكلمة من السيد رومنسكي، فأعربت عن شكري العميق له، وما بذله من جهود حتى نطمئن على رجالنا، كما شكرت السادة الحضور لأجل الاستقبال الكريم المبهر الفخم، ولأنهم أكرموا رجالنا، ولم يسيئوا لهم رغم

الخلاف القائم بينهم. ثم طلبت أن يتأكدوا هم بدورهم من أن ضيوفهم لدينا يلقون منا أحسن معاملة، مع سبل الراحة، بالإضافة إلى إحساسهم الكامل بالحرية.

وقد تعجب أحد الحاضرين من كلمتي الأخيرة، واستهجن مني قولي "إحساسهم الكامل بالحرية"، فقلت له بكل لطف: ثق يا سيدي أننا قادرون على فعل ما قلت بالحرف، وأن قولي لم يكن فيه أية مبالغة، وذلك أننا لم نكن لندع صغاركم يعرفون أنهم رهائن لدينا، بل الذي يعرفونه حتى الآن أنهم ضيوف عندنا في رحلة بحرية بأحد جزر الأرخبيل الأوروبي.

فقال أحدهم: إذا فهم ما زالوا في أوروبا؟

فقلت: هم يظنون ذلك، أو قل نحن جعلناهم يظنون أنهم ما زالوا في أوروبا.

الفصل الرابع عشر

قاطع رومنسكي حديث السيد أمرزاق قائلًا: ما علينا من وضع رهائننا عندكم يا سيد أمرزاق، ونحن نثق في أمانتكم وحيادكم إن استدعى الأمر منكم أن تكونوا منصفين.

ولكن ها أنت ترى السيد بو عابد العجب بصحة جيدة، ومعه صديقه المهندس علي المصري.

وكنت أحب أن أوضح نقطة هامة لم أوضحها لك في لقائنا السابق، ولكنني أحببت أن أوضحها لك في حضور السيد بو عابد. مختصرها أنه عندما حدث التشاجر بين رجالنا في موريتانيا، لم يكن الأمر مقصودًا، ولم يكن مخططًا له، وإنما حدث الأمر بسبب عصبية الرجال، وبسبب ضغائن وأمور ملتبسة لم يكن علينا أن نفكر بها على هذا النحو، وأن نكون أكثر روية وأكثر تحضرًا.

وقد حدثت إصابات لرجال من عندنا، وكذلك أُصيب السيد بو عابد والسيد علي وبعض الرجال من عندهما، وظن رجالنا أن إصابات السيدين خطيرة، وقد تودي بحياتهما، لذلك قاموا باصطحابهما معهم، وذلك من أجل علاجهما، ثم اتخاذ الإجراءات القانونية حيال ما أحدثوه هم ورجالهم من إصابات في رجالنا، لم يكن لها أي داعٍ.

ولكن رأى مجلس الإدارة أن يكون اهتمامنا في المقام الأول هو الحفاظ على حياة السيدين، وأن نوفر لهما العلاج حتى يتم تعافيهما من جراحهما تمامًا، ومن ثم نحاول حل الأمور باتباع طرق سلمية يستفيد منها جميع الأطراف، وحتى لا يتورط أيٌّ من أطراف التفاوض في نزاع قانوني لن يفيد أيًّا منهم، بقدر ما سيضيع وقت كلٍّ منهم، وسيضعهما في حرج بالغ أمام الجهات القانونية في موريتانيا وخارج موريتانيا.

أشار أمرزاق بيده لرومنسكي كأنه يطلب الكلمة لتوضيح أمرٍ ما، فأشار له رومنسكي أن يتكلم، فقال أمرزاق: لي بعض التحفظات على روايتك ووجهة نظرك سيدي الكريم، ولكن سأدعك تكمل حديثك أولًا.

فحرّك رومنسكي يده نحو نظارته كأنه يثبتها على وجهه، أو كأنه يعدلها بإبهامه وسبابته حتى تعطي مجالًا أفضل للرؤية، ثم نظر في الأوراق أمامه وقال:

سيد أمرزاق، لقد طلبت مني دليلًا في باريس يثبت أن السيد بو عابد العجب كان يعلم بأمر المنجم الموريتاني من خلال عمله بشركتنا، وها أنا أقدّم لك ملفًا كاملًا عن هذا المنجم، يحتوي على المراسلات التي كانت بين صاحب المنجم وبين الشركة منذ عام ١٩٦٧م، كما أن الملف كان فيه معلومات كاملة عن حجم المنجم، وعن

التوقعات حول قوة إنتاجه في المستقبل، وبه أيضًا معلومات عن جيولوجية المنجم وخرائط كثيرة توضح مواضع الفلز في المنجم.

ولا أظن أن السيد بو عابد ينكر أنه استعان بذلك الملف واطّلع عليه قبل أن يتعاقد مع صاحب المنجم.

عندئذ وجّه أمرزاق حديثه مباشرة لبو عابد قائلًا: أخي بو عابد، هل كنت تعلم شيئًا عن هذا الملف؟

فرد بو عابد العجب على أمرزاق قائلًا:

أولًا، أشكرك أخي أمرزاق أنك أتيت من أجلي أنا والباشا المهندس علي، وأقترح أن تنأى بنفسك عن هذا الموضوع الذي نحن بصدده، لأني أخشى أن أتسبب لك ولعائلتك في مشاكل أنت في غنى عنها.

فرد أمرزاق عليه بحزم قائلًا:

عليك أن تُجيب، لأنه قد حدثت مشاكل بالفعل، وهناك أرواح تتعلق مصائرها الآن على كلمتك، كما أن الأمر لا يرجع إليك الآن يا صديقي، بقدر ما يرجع لعائلتك، ولأصدقائك، ولمن يدعمونك.

لذلك عليك أن تعلم أن كل ثانية ستضيعها في الالتفاف، ستعود بالضرر على الجميع، بما فيهم أنا وأنت وأسرتك وأسرتي، وأناس أبرياء لا يعلمون أي شيء عن هذا الأمر الذي نتحدث عنه.

وكانت كلمات أمرزاق من الحزم والصدق بحيث أنها قد تركت أثرًا في نفوس جميع الحاضرين، وكانت بالنسبة لبو عابد العجب كأنها طبول حربية تحثه على أن يخبره بالحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، أو كأنها مُحلّف يستحلفه بكتاب الله وبكل الكتب المقدسة أن يقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.

وأحس الجالسون كأن بو عابد يزدرد ريقه بصعوبة، ثم رد قائلًا:

نعم، لقد اطّلعت على الملف عندما كنت أعمل بالشركة، وأنا لم أنكر ذلك في يوم من الأيام، ولكن كانت الشركة قد اتخذت قرارًا بشأن المنجم يقتضي تأجيل أمر العمل به لسنوات، وتم التأشير على الملف بعبارة "غير مطروح للتعامل حوله في الوقت الحالي" وألا يوصى به الآن، مما فتح باب المنافسة للشركات الأخرى التي تعمل بنفس المجال.

وكان رأي خبرائنا يجعل آخرين يحجمون عن هذا المشروع، وكان أمر هذا المنجم معروفًا عالميًا لجميع العاملين بهذا المجال.

ولا أظن أن اطلاعي على الملف، بوصفي جيولوجيًا عاملًا، يعطي للشركة الحق في أن تشاركني فيما وصلتُ له بعرقي وجهدي ومالي، وإلا كان حقًّا مكتسبًا لجميع الشركات التي جمعت ملفًا عن المشروع، ثم أشارت أنه لا يُوصى بالتعامل معه إلا بعد وقت طويل.

كما أني اطّلعت على هذا المشروع من خلال الكمبيوتر الخاص بالشركة، لأن الشركة كانت قد طلبت مني دراسة تبيّن أفضل المشاريع المؤجلة، ووقتها قمت بوضع تقريري لدى الرؤساء بكل أمانة، وبيّنت لهم أفضل خمس مشاريع مؤجلة يجب العمل بها، وكان ترتيب هذا المشروع فيهم الثالث أو الرابع.

ولكن وقتها نحّى الرؤساء رأيي جانبًا، ثم تقاعدتُ بعد هذا التقرير بسنتين، ولم تكن هناك أية مؤشرات توحي باهتمام الشركة بهذا الموضوع، حتى بعد تقاعدي بشهور، لم أسمع أن أيًّا من تلك الشركات مهتمة بهذا المشروع، بينما كنت أرى أن هذا المشروع هو فرصة عظيمة لأي مستثمر واعٍ، وكانت لدي إمكانيات الاستثمار، فقمت باستغلال الفرصة التي أحجم عن خوضها الجميع.

أتراني أخطأت لأني قمت باستغلال فرصة كانت سانحة أمامي وأمام الكثيرين أيضًا؟

ثم وجّه حديثه للسيد رومنسكي قائلًا:

لا أظن أن أي رجل عربي مهما كان بسيطًا، وفقيرًا، وضعيفًا، يقبل بأن يُؤخذ منه أي شيء يملكه غصبًا، ولو كان هذا الشيء سُرّة غبار أو قطعة قماش مهترئة.

ثم نظر في اتجاهه مباشرة وقال:

إن ما تطلبه يا سيد رومنسكي يأباه على نفسه أحقر الناس، فكيف تجرؤ أنت وتطلب مني أن أجعلكم شركاء معي بقوة الحديد والنار، وعن طريق تهديد سلامتي وأمني وحياتي؟

ثم تأتي وتقول إني مسؤول قانونيًا عندما أرد اعتداءكم على أرضي في الليل!

هنا رد رومنسكي على بو عابد قائلًا:

هل تنكر يا سيد بو عابد، أنك عندما توجهت لإبرام عقودك في موريتانيا، كنا نتفاوض مع صاحب الأرض؟ فما إن وصلت حتى قطع المفاوضات وأبرم عقوده معك!

وهل تنكر أنك طرت نحو موريتانيا لأنك علمت من صاحب الأرض أننا كنا نتفاوض بشأن الحصول على المنجم؟

فقال بو عابد:

كانت فرصة سانحة أمامي، ولقد اغتنمتها بكل أمانة وجسارة، أما أنتم فلقد ضيعتم وقتكم ووقت الرجل في المفاوضات حتى تحصدوا ربحًا أكبر، وتمتصوا دماء الرجل، ولأني أعرفكم وعملت معكم سنين طويلة، فلم أكن لأسمح لكم أن تفعلوا ما أردتم من شر بالرجل،

ولكن لم أكن أحتاج أن أفعل شيئًا، لأن جشع مفوضكم كان كفيلًا بأن يرسو بكم على شاطئ جزيرة الفشل.

هنا ضرب رومنسكي الطاولة بيده وبعصبية شديدة وقال:

أرجو أن تلتزم بحدود اللياقة في كلامك يا سيد بو عابد.

فنظر له بو عابد شزرًا وقال:

هذه هي الحقيقة، لا تعجبك لأنها تتعارض مع مصالح شركتك يا سيد!!!

فقال رومنسكي:

أيّ حقيقة؟ تعني حقيقة أنك استفدت من معلومات اطّلعتَ عليها بحكم الأمانة التي أولتك إياها الشركة طوال سنين خدمتك فيها؟

أم حقيقة أنك أصبحت تدّعي أن الشركة التي عملت فيها أكثر من ثلثي عمرك ما هي إلا تنظيم عصابي استغلالي؟ وهذا يعني أن كل ما اكتسبته من عملك معنا ليس قانونيًا وليس حلالًا، فلم لا تعيده إلينا يا سيد؟ وتوفّر علينا هذا العناء؟

هنا وقف بو عابد في مواجهة رومنسكي ورد له الصاع صاعين عندما قال له:

لم أكن أعرف قبل الآن أن الأفراد العاملين هم الذين يُحاسبون على سقطات الصفوة الأخلاقية والإدارية، ولم أكن أعرف أن جشع رأس الهرم الإداري يُحتم على عامل الأسانسير والماسح الجيولوجي رد أجورهم له، وذلك لأن جشع الإداري ومحاولاته المستميتة في الانقضاض على ما لا يملكه غيره، شرفٌ ليس بعده شرف، بل هو غاية الأمانة والنُبل!

ولم أكن أعرف، ولم يُخبرني أحد، أن كل موظف خدم شركة ما في دولة ما، فإن تلك الشركة استعبدته حتى أنها تدّعي حقها في شراكته في مشروع قام بإنشائه بعد تقاعده من العمل في تلك الشركة.

ولكن يا سيد رومنسكي، ها أنا أقولها لك وجهًا لوجه وأمام الجميع:

أنا لا أحتاج شركاء، ولن أحتاج شركاء في المستقبل غير صاحب الأرض.

ثم قال مؤكدًا وهو يدغم الحروف:

أنا لا أحتاج شركاء، فانظروا من الذي يحتاج شركاء، واعرضوا شراكتكم عليه.

عندئذ وقف أحد السادة، وكان رجلًا عجوزًا، يبدو عليه الوقار، وتَشِعّ عيناه ذكاء.

وقف هذا الرجل الوضيء وطلب من السيدين أن يهدآ ويجلسا، فجلس كل من رومنسكي وبو عابد العجب وسط همهمات الحاضرين.

فطلب الرجل من الجميع الصمت والإنصات إليه مرة أخرى، ثم قال:

لقد قال السيد بو عابد كل ما يجب أن يُقال من رجل حر عندما تتعرض ملكيته للخطر، وعن نفسي أشكر الظروف التي عرفتني برجل محترم مثله، وإن كنت أعيب عليه أنه كان يعمل معنا، وكان يظن أن من هم في قمة هرمنا الإداري مجرد رجال جشعين لا يهمهم سوى الاستيلاء على مقدرات الآخرين.

لأن هذا لا يمت للحقيقة بأية صلة، فلقد كان أكثر ما يهمنا دائمًا هو حصول الجميع على حقوقهم الكاملة، سواء كانوا موظفين أو عملاء، ويعلم جميع من تعامل معنا أن هذه النقطة من أهم النقاط التي وضعناها من أهدافنا قبل الربح.

وقبل هذه النقطة كان الالتزام الأخلاقي والقانوني، والحفاظ على سلامة البيئة والإنسان، حتى ننام مرتاحي البال والضمير.

لذلك، فأنا أرى أنه لا داعي لأية حروب أو مناوشات أخرى، وأعتذر للسيد بو عابد بسبب الضغوط التي مُورست عليه من قبل بعض العاملين بالشركة في الفترة السابقة، وأعتذر عن أية أضرار أخرى قد

لحقت بك يا سيدي بسبب تلك المنافسة التي أَحسب أنها منافسة ليست عادلة.

كما أطلب من السيد أمرزاق أن يتسلم صديقيه ويمضوا معًا آمنين.

وهكذا رجع بو عابد العجب لأهله سالمًا غانمًا معنا، أما المهندس علي المصري، فقد كانت له قصة طويلة معنا. ولكن يبدو أن أوفيرا كانت قد أُغرمت به عندما كان يقيم في كنف أبيها، لذلك ما لبث أن عاد لموريتانيا ليمارس عمله في المنجم، وعادت خلفه أوفيرا لتتوج قصة حبهما بالزواج.

الفصل الخامس عشر

عندما أتت لالا فاطمة لفرنسا، كانت تسيء الظن بكوثر، وتحسب أن كوثر ترمي ابنها بالاتهامات الباطلة، لذلك عملت في أول أمر وصولها على أن تعامل كوثر بجفاء ظاهر، كما أنها نهرت كوثر عندما روت لها ما يحدث بينها وبين سيد علي، وقالت لها: اتقِ الله، إن ابني لا يفعل تلك الأفاعيل الشنعاء.

ولكن كوثر طلبت منها أن تتأكد بنفسها، ولم تجد بدًّا من إظهار الصور التي وصلتها لها ولأخته.

فما كان من لالا فاطمة إلا أن تلوم كوثر على احتفاظها بمثل تلك الصور لزوجها، واتهمت لالا فاطمة كوثر بأنها تريد أن تستغل هذه الصور في طلب الطلاق من ابنها، وأنها تلفق الاتهامات. وعندما وجدت علجية أنها استدعت أمها كي تصلح الأمر، فما كادت أمها تصل إلى فرنسا حتى ندمت علجية على استدعاء أمها، ووجدت كلام أختها نفيسة يرن في أذنيها عندما قالت لها: إن التعالي عند أمكِ يسبب لها حالة من حالات الحماقة، وتلك الحالة تجعلها تخرب كل شيء، وهي للأسف لا تندم ولا ترجع رغم خسائرها وخسائر المحيطين بها.

ولذلك انسلت علجية بهدوء من الحديث الدائر بين لالا فاطمة وكوثر، واتصلت بأختها نفيسة وأخبرتها بما حدث، وأخبرتها أنها يجب أن تحضر حالًا، وإلا فاض الأمر بكوثر وطلبت الطلاق من أخيها، وهكذا يكون قد تم تخريب بيت أخيها بسبب حماقة أمهم، كما ستسبب حماقات أمهما وأخيهما في فضيحة كبرى لعائلتهما في قرية جرجرة، ناهيك عن فضيحتهم أمام أزواجهم في فرنسا. ولكن نفيسة في أول الأمر قالت لعلجية: فليحدث ما يحدث، وما أدراك أن أمك وأخيك ليسا مفضوحين أمام الناس بسبب تصرفاتهما الهوجاء الطائشة؟ فلقد جعلوا سيرة فضائح العائلة على لسان الجميع، فلم لا يُكمِلوا الفضيحة في فرنسا؟

فقالت علجية: ولكن يا أختاه، كوثر إنسانة طيبة ولا تستحق ما يحدث معها.

فقالت نفيسة: حقًا، لقد قابلت كوثر في عرسها وفي أيام خطبتها من أخي، والحق أقول إنها شابة جميلة ونبيلة وصادقة.

فقالت علجية: أرجوكِ يا نفيسة، لا تتخلي عنها، فأنتِ الوحيدة التي تستطيع أن توقف معتوه هذه العائلة.

فقالت: حسنًا، سأستأذن من زوجي وسأحضر حالًا.

وخلال هذه المكالمة، كانت الأمور قد اشتعلت بشكل كبير بين كوثر ولالا فاطمة، حتى انهارت كوثر باكية، فأخذتها علجية في صدرها، وأخذت تهدئ من روعها.

ولكن لم يمضِ قليل من الوقت، حتى حضرت نفيسة، وعندما حضرت وجدت زوجة أخيها منهمرة في البكاء، فطلبت منها أن تروي لها ما حدث، فروت لها كوثر ما حدث من أخيها وأمها، وأظهرت لها صور أخيها مع الغانيات، عندئذ ثارت ثائرة نفيسة، واتصلت بأخيها، وقالت له أن يحضر حالًا لأمر مهم. ثم ذهبت لحجرة أمها، وأيقظتها من نومها، وقالت لها: انزلي حالًا للريسبشن، فأنا أنتظرك لأمر هام. وعندما نزلت لالا فاطمة، حدثتها نفيسة بما حدث بين ابنها وكوثر، وعاتبتها على موقفها من زوجة ابنها، وقالت لها: أهكذا تشكرينها على موقفها من الحفاظ على سمعة ابنك وسمعة عائلته؟ ولو كانت غيرها، ولو كنتِ أنتِ نفسك، لأخذتك الغيرة والحمية لنفسك، ولفضحتِ زوجك بهذه الصور.

فقالت لالا فاطمة: كيف تقولين هذا؟

فقالت لها نفيسة: أنا أعرفكِ جيدًا، فلا تتظاهري عندي، لأني أعرف الناس بك، دعك من هذا التظاهر أمامي، افعلي ذلك مع امرأة أخرى لا تعرفك مثلي.

فقالت لالا فاطمة لنفيسة: أيتها اللبؤة المفترسة، متى أتخلص منكِ ومن شراستكِ؟

فصبّت عليها نفيسة جام غضبها، وقالت لها: لا تظني أني سأتركك تدمرين حياة هذه المسكينة، أنتِ وابنكِ الأحمق، تربية أمه ال...

فقالت لالا فاطمة: اخرسي، ماذا تقولين؟ لا بد أنكِ قد جُننتِ.

فقالت لها نفيسة: ومن الذي يعاشر أمثالكم من أسافل الناس الذين يظنون أنهم علية القوم ولا يُجنّ! اسمعي يا هذه، أنا لن أقول لكِ "يا أمي" مرة أخرى، إلا إذا حصلت هذه المسكينة على اعتذاركِ واعتذار ابنكِ، وأن يراعي ابنكِ بيته وزوجته ويتقِ الله في زوجته، كما أني سأقف بجوار تلك المسكينة التي وقعت فريسة بينكم وتريدون أن تنهشوها.

وما كادت نفيسة تتم كلامها، حتى دق جرس الباب الكبير، وكان سيد علي قد حضر، وعندما حضر، أخبرته الخادمة بحضور والدته وأختَيه، وأنهم ينتظرونه جميعًا في الأنتريه.

وما كاد سيد علي أن يدخل الأنتريه، وقبل أن يسلم على أمه وأختَيه، وقفت نفيسة، وأخرجت الصور، ثم توجهت نحوه وأعطته إياها، فتناول الصور منها، وقال: ما هذا؟

فقالت: تصفحهم جيدًا لتعرف ما هذا.

وانزوت لالا فاطمة في كرسيها، وكأنها طفلة تخاف العقاب، أما علجية فقد وضبت حقيبتها بجانبها، واعتدلت في جلستها، وكأنها تستعد لمشاهدة صراع بين وحشين كاسرين.

والحقيقة أن نفيسة كانت سيدة قوية الشكيمة، لا يغلبها رجل أو امرأة إن كانت على حق، وحاول سيد علي أن يفلت قبضة أخته عنه، فوجه إليها الكلام قائلًا: مالك ومال الأمر؟ ولماذا تتدخلين فيما لا يخصك؟ ثم أردف: ومن أين حصلتِ على هذه الصور؟ أأعطاها لكِ زوجك؟

عندئذ ذهبت فيه نفيسة بتحدٍّ قائلة: لا تَأتِ بسيرة زوجي على لسانك الدنس، أيها الغبي المغرور الأحمق، لأن زوجي أنبل من أن يراقب الناس، وأنبل من أن يتصيّد أخطاءهم. إن هذه الصور أرسلها أصدقاؤك الحقيرون لبيتك، واستلمتها زوجتك عن طريق البريد، يا هذا! فانظر في أمر من تصادقهم، فليس فيهم من يساوي قامة زوجي في أدبه وتدينه وأخلاقه وتحضّره.

فقال سيد علي مستهزئًا: إذًا، فلقد جئتِ لتلقي علينا قصيدة فخر بزوجك! وصفّق بيديه، ثم قال: نحن نعرف زوجك، ونعرف عائلته في الجزائر، فلا داعي أن تخبرينا عنه.

فقالت نفيسة: يا ليت أخي مثل زوجي، حتى أفخر بكليهما، ولكن الزمان ابتلاني بأخ مستهتر لا يقيم لشيء وزنًا إلا لشهواته، عليك لعنة الله أنت ومن علّمك.

فقال سيد علي: لن أرد عليكِ، لأنكِ أختي الكبرى. وخلاصة الأمر، ماذا تريدين؟

فقالت نفيسة: ورأس أبيك إن لم تسترضِ زوجتك، لأجعلنّك عبرةً لكل أخٍ مستهتر، ولكل عابث.

فقال سيد علي: وماذا ستفعلين؟

فقالت نفيسة متحدية: سيد، اسمع، لا تمتحن جراب الحاوي، ولا تحاول أن تختبر صبري.

عندئذ أحسّت لالا فاطمة بالخطر على ابنها من أخته ومن أهل زوج أخته، فقامت وقالت: سيد، يا حبيبي، اسمع ما تقوله أختك ولا تخالفها.

عندئذ علم سيد أنه أُسقط في يده، لأن أمه تخلّت عنه، وودّ لو أن أمه وقفت معه في مواجهة نفيسة، ولكن هيهات، فمن في العائلة يستطيع أن يتحدى نفيسة؟

فقال سيد: حسنًا، حسنًا يا أمي، ولكنها لم تقل شيئًا حالًا.

فقالت نفيسة: عليك الآن أن تسترضي زوجتك، وأن تعدني وتعد أمك أن تبتعد عن هذه النزوات المُشينة.

سيد علي: ولكني لم أفعل شيئًا، أنا أحضر حفلات كما يفعل الجميع في أوروبا، وذلك لأنها تعزز علاقات العمل.

فأمسكت نفيسة بصورة من الصور، وقالت: ولكن هذه الحفلات عادة ما تكون في بهو البيت، فما الذي جعلها تنتقل لحجرة نوم المضيفة؟ وهل يحضر الناس هذه الحفلات بملابسهم الداخلية؟!

ثم استطردت قائلة: سيد، يا أخي، لا تُدارِ كما تعوّدت.

ونظرت لأمها نظرة ذات مغزى، فاستدارت لالا فاطمة وهي تدق على كفها بيدها، وحتّى تهرب من نظرات نفيسة القاسية التي تتهمها أنها أفسدت ابنها، وقالت وهي مولية وجهها لناحية أخرى: سيد، عليك أن تعترف بخطئك، وأن تسترضي زوجتك حتى ننهي هذه المشكلة.

فرد سيد قائلًا: ولكن إن قمت باسترضاء زوجتي، فلن يكون ذلك من أجلك يا نفيسة، ولا من أجل زوجتي، ولكن سيكون ذلك من أجل لالا فاطمة.

فنظرت نفيسة إليه نظرة غاضبة، وقالت: بل لأنك مخطئ، ولأنك المستفيد الوحيد من استرضاء زوجتك.

فقامت لالا فاطمة، وقالت: حسنًا، حسنًا يا نفيسة، سأجعله يفعل كل ما تريدين منه.

فقالت نفيسة: يسترضي زوجته، وينتبه لدراسته ولعمله، وينسى أمر تلك الحفلات الماجنة، وإلا جعلته ينسى رغما عنه بطريقة أخرى لن تعجبكِ ولن تعجبه.

فتكهّنت لالا فاطمة في الحديث، وقالت: ولكن يا نفيسة، هذا أخوكِ حبيبكِ، وفي النهاية أنتما لبعضكما، والغريب سيخرج من بينكما.

فقالت نفيسة: من تقصدين بالغريب؟

فتحرجت لالا فاطمة، وقالت: بالطبع لا أقصد زوجك، فهو صهرُنا وأبو أولادنا.

فقالت نفيسة: جد؟ حسبتُك تقصدين شيئًا آخر! ثم أردفت: لعلك تقصدين زوجة ابنك؟

فقالت لالا فاطمة بدهاء: لا يا حبّة قلبي، بل أقصد من أرسلوا هذه الصور حتى يفرقوا بين الزوج وزوجته، وبين الشقيق وشقيقته.

فقالت نفيسة: ليسوا هم الملومين، ولكن الملوم الأول هو من سمح لهم بأخذ تلك الصور عليه، والملوم أيضًا هو من يترك بيته وزوجه، ثم يترنح بين الغواني وأهل البغي.

يا أمي، عليكِ أن تعظي ابنكِ، أو أن تبحثي عن من يرشده للطريق المستقيم، فأنا أخشى عليه من الضلال، أن يُخرب بيته، وأن يُدمّر سمعتنا وسمعة أبنائنا وإخوتنا.

الفصل السادس عشر

عندما تدخلت نفيسة في الإشكال الأخير الذي حدث بين أخيها وزوجته، عملت على نزع فتيل قنبلة كادت أن تودي بحياة أخيها الزوجية، ولكن بدا أن سيد علي لن يرتدع أبدًا، لأنه بعد شهور شرع في استئناف حياة المجون التي كان يعيشها في الخفاء، وبعيدًا عن أعين عائلته وزوجته. ولكن سرعان ما وصلت الأنباء لكوثر عن طريق الصدفة، إذ أخبرتها إحدى صديقاتها أنها كانت في حفل هي وزوجها، وهناك شاهدا سيد علي بصحبة غانية شقراء ذات ملامح أوروبية.

وعندما سمعت كوثر هذا الكلام من صديقتها، شعرت وكأن أحدًا أضرم النار فيها وفي قلبها، ولم تشعر إلا وهي تخطط لمراقبة زوجها حتى تقف على حقيقة أفعاله. ولكن يبدو أن القدر لم يكن ليدعها تقدم على هذه الخطوة، وكأن هناك من يراقب سيد علي بدلًا عنها.

فقد حدث حدث عجيب بعد أسبوع من حديثها مع صديقتها، إذ أنها كانت تعيد ترتيب أوراق زوجها، فإذا بخطابات غرامية لزوجها تقع بين يديها، وكانت خطابات من الغانية مكتوبة بالفرنسية وموجهة لسيد علي. وعندما قرأت كوثر الخطابات، شعرت أن هذه الغانية تبتز زوجها ماديًا، وأدركت أنه خاضع لهذا الابتزاز، وبكت

كوثر وهي تقرأ هذه الخطابات، وكادت أن تنهار عندما علمت أن زوجها يضاجع هذه الغانية في مكان ما تطلق عليه الغانية اسم "عش العطر".

وحاولت كوثر أن تعرف عنوان هذا الوكر من الخطابات التي عثرت عليها، ولكنها لم تفلح، ولكنها لاحظت أن الغانية تقول في فقرة من فقرات أحد خطاباتها: (أيها السيد الحبيب، لماذا لا ننطلق بالقرب من الشانزليزيه، ثم ننطلق لعش العطر؟ أرجو إحضار الأموال معك لتقيم عثرتي). إذًا فوكرهما بالقرب من الشانزليزيه. قالت كوثر في نفسها: يا له من شخص مدنس نجس، لا عهد له، هذه المرة سأضبطه بنفسي، ولن يكون هناك مرة بعدها، فلقد فاض بي الكيل.

وبالفعل، استأجرت كوثر مخبرًا سريًا عن طريق إحدى صديقاتها، ربما كانت هي الصديقة التي أخبرت كوثر بأنها رأت سيد مع امرأة أوروبية خليعة، وكانا يتنزهان معًا، وكان يحتضنها وكأنهما عاشقان.

ولم تمضِ إلا أيام قليلة، حتى أخبر المخبر السري صديقة كوثر بالعنوان الذي يلتقي بداخله العاشقان، وبتوقيت لقائهما. ومن الصديقة إلى كوثر، ومن ثم ضبطت كوثر توقيتها، وما إن خرج زوجها في الموعد المحدد حتى تبعته، واستقل تاكسي، فاستقلت هي الأخرى تاكسي، وانطلقت خلفه.

ثم نزل زوجها في مكان يبعد عن الشانزليزيه عدة أميال، كان كأنه فندق، ونظر لأعلى البناية، ثم دخل لهذا الفندق، وطلب من عامل الاستقبال أن يصعد لغرفة معينة، فقال له العامل: تفضل مسيو، فالسيدة تنتظرك في غرفتها بالدور الرابع، فتوجه مسرعًا للمصعد.

أما كوثر فقد كانت قد أعدت هي وصاحبتها خطة مسبقة، إذ أنها بالفعل كانت قد استأجرت غرفة بالفندق منذ أيام باسم الآنسة "تريس" صديقتها، ومن ثم قالت للعامل إنها ستصعد لآنسة تريس في الدور الخامس، وما إن دخلت المصعد حتى ضغطت زر الدور الرابع، وانتظرت في ردهة الدور الرابع بعض الوقت حتى اطمأن العشيقان ودخلا لحجرة النوم.

فإذا بكوثر تقرع الباب، فظنت الغانية أنها إحدى العاملات، وطلبت من سيد أن ينظر ماذا تريد؟ فإذا بسيد يفاجأ بأنها كوثر، التي اقتحمت الباب بكل قوتها، واندفعت من البهو لحجرة النوم، لتجد الغانية في فراش زوجها، فامتلأت عيناها بالدموع، وخرجت مولية والدموع تنهمر على خدها، لتقول لسيد كلمة واحدة فقط: (طلقني).

وحاول سيد أن يرد، وأن يدفع عن نفسه، ولكنها صرخت في وجهه وقالت: يكفي! لتنهي ما جئت من أجله، ثم لتأتِ إلى المنزل ليتم

الطلاق بيننا. حاول سيد أن يعترضها، وأمسك بها من زنديها، ولكن كوثر نظرت في عينيه نظرة ذات مغزى، ثم قالت له: انتهينا.

وما حدث بعدها معروف، فلقد توجهت كوثر لمنزل الزوجية، ولحقها سيد بعد قليل، لتطلب منه كوثر الانفصال، وتصمم على مطلبها. ولقد حاول سيد أن يثنيها عن موقفها، ولكنها لم ترجع عما طلبته، ومن ثم طلب تدخل أسرته، ولكن هيهات أن ترجع كوثر عما رأته، لأنها أصبحت على يقين من أن سيد لن يتغير. وحدث الانفصال في صمت، وكانت كوثر متألمة بسبب ما بلغ إليه حالها مع سيد، ولكن مواقف سيد علي معها كانت قد جعلت السيل قد بلغ بها الزبى.

الفصل السابع عشر

بعدما انفصلت كوثر عن سيد علي، ضاقت عليها الدنيا، وكانت لا تريد أن ترجع إلى الجزائر، لأن شيئًا ما بداخلها كان يحدثها أن فرنسا ستحقق أحلامها يومًا ما، وكانت أيضًا لا تريد أن ترجع لنفس الأماكن التي بدأت محنتها منها، تلك الأماكن التي تذكرها بعبد الله، وتذكرها أيضًا ببداية زواجها الفاشل من سيد علي، ذلك الزواج الذي سبب لها آلامًا نفسية مبرحة.

وعندما وجدت نفسها في حاجة إلى المال، فكرت أن تعمل بأحد البارات، وكانت تلك فكرة إحدى جاراتها بالنزل الذي تعيش فيه، ولكن لم يكن هذا العمل يناسبها من حيث إنها فتاة مسلمة، والإسلام يحرم الخمور والملابس الفاضحة.

فقالت لها إحدى جاراتها بالغرفة، وكانت تُدعى فولفا جاستن، إن العمل في البار كساقية لا بأس به بالنسبة لفتاة مهاجرة، وأنها ستقدم مشروبات روحية ليس أكثر. ولكن كوثر قالت لها: أخشى أن وضع أسرتي في الجزائر يتعارض مع هذا العمل.

فقالت لها جاستن بخبث: ومن سيخبر أسرتك؟ بل قولي بأنك مسلمة وهذا العمل يتعارض مع دينك!

فردت عليها كوثر بذكاء قائلة: لو أن عملي كساقية كان في الكنيسة أو في المعبد أو في مكتب من مكاتب الإبداع والتجارة المحترمين، ما كنتُ رفضته أبدًا يا عزيزتي، ولا كنتُ ترددت في قبوله. فالأمر لا يتعلق فقط بما تُقدّمين، ولكنه يتعلق بالمكان وبمن تُخدَمين من الناس، فتلك البارات أكثر زبائنها من حثالة الناس ومن المدمنين، وهذا لا يتعارض مع ديني بقدر ما يتعارض مع ثقافتي وأخلاقي ومبادئي، وما تربيت عليه من احتجاب عن الرجال.

فقالت جاستن محرجة: ولكن حبيبتي، ماذا ستعملين في بلد أوروبي أنتِ فيه غريبة؟!

فردت كوثر بحزن عميق: سيجعل الله لي مخرجًا، فلا تقلقي يا حبيبتي، لا تقلقي، فأنا أعلم أنكِ قلقة عليّ، ولا تريدين لي إلا الخير.

وكأن الله كان يسمع دعاءها، وقرر أن يجيبه في الحال، فما كادت أن تتم كلامها حتى رن جرس التليفون. فجرت جاستن لتعرف من بالهاتف، فإذا به رجل يتحدث الفرنسية بلهجة، وكان اسمه ريمون جوزيف، وكان يسأل عن كوثر، فأخبرته جاستن أنها موجودة، ونادت على كوثر، وأخذت كوثر السماعة من جاستن بعد أن أخبرتها أن شخصًا ما يريد أن يُحدّثها.

أخذت كوثر السماعة وقالت: ألو.

ريمون: ألو آنسة كوثر، هل أنتِ معي؟

كوثر: نعم، أنا كوثر، من معي؟

ريمون: كوثر، أنا ريمون المصري، لقد تقابلنا عندما تشاجرتِ أنتِ وزوجك في الريف الفرنسي منذ شهرين، وكنتُ قد استضفتكِ أنا وزوجتي في تلك الليلة.

كوثر: أوه نعم، تذكّرتك مسيو ريمون. آسفة لأني لم تسنح لي الظروف أن أشكركم وأطمئنكم عليّ. كيف حال زوجتك مدام ميري؟

ريمون: هي معكِ الآن، ستحدثك لتطمئن عليك.

ميري: هاي كوثر، كيف حالك؟ كنت قلقة عليكِ جدًا.

كوثر: الحمد لله يا حبيبتي، بخير. كيف حالكِ أنتِ؟ وكيف حال صحتك الغالية؟ كيف تمكنتِ من الحصول على رقمي؟ إنها معجزة أن تتصلي بي!

ميري: أنا بخير، ولقد حصلت على رقمك من صديقتك علجية التي قلتِ إنك ستمكثين عندها بعد رجوعك وحتى تنحل الأمور بينك وبين زوجك. ولكن ماذا حدث بشأن زوجك؟ أريد أن أطمئن عليك، وأشعر أن صوتك حزين.

كوثر بنبرة مكتومة وصوت شجي: لقد انفصلنا يا ميري، وأنا الآن أبحث عن عمل حتى أكمل دراستي بفرنسا، وأُقيم في نزل بلبيه بباريس.

ميري: حبيبتي كوثر، إنه أمر محزن، لا أعرف ماذا أقول لك أيتها العزيزة كوثر.

كوثر: حسنًا ميري، لا تقولي لي شيئًا، لأن انفصالي عن سيد علي كان أفضل ما حدث لي في حياتي. ميري، هل أنتِ معي؟

ميري: نعم حبيبتي كوثر، أنا معكِ.

كوثر: أرجوكِ لا تبكي الآن، لأني أريد منكِ خدمة.

ميري، وهي تمسح دموعها على الجانب الآخر: حسنًا يا حبيبتي، اطلبي ما تريدين، فهو مُجاب بإذن الله تعالى.

كوثر: لا شيء كثير، ولكنه مهم جدًا بالنسبة للوضع الذي تركني فيه الانفصال.

ميري: حسنًا، لكِ ما شئتِ إن كنتُ أستطيع.

كوثر: أعلم أنكِ تستطيعين توفير عمل لي. ثم استطردت قائلة: ميري، أريد عملًا عاجلًا وبأسرع وقت ممكن.

ميري: حبيبتي كوثر، أنتِ محظوظة. أنا أبحث عن جليسة للطفلين بأجر مميز، ستعملين ثمان ساعات يوميًا، كما أن إقامتكِ ستكون ملحقة بالفيلا التي تقيم بها العائلة. صدقيني يا حبيبتي، ستكونين أختي، وستكونين جزءًا من عائلتنا.

كوثر: حسنًا يا ميري، أرسلي لي العنوان، أنا موافقة على العمل.

ميري: هكذا دون أن تسألي عن أجرك وإجازتك؟

كوثر: أعلم أنكم لن تظلموني يا ميري، أنتِ أو المسيو ريمون، فلقد كنتِ لي أنتِ وزوجك خير معين عندما تركني سيد في تلك الليلة.

ميري: لا تقولي هذا يا حبيبتي، فهذا واجب العربي نحو العربي في بلاد الغربة. وأقسم بالمسيح الحي أني استرحت لكِ منذ رأيتك، ورأيت فيكِ أختي الصغرى التي تركتها في القاهرة، وكم أنا مشتاقة إليها، وكذلك زوجي ريمون، فهو يعزكِ جدًا ويعتبركِ شقيقة له.

كوثر: لا أعرف كيف أشكركم جميعًا على تلك الحفاوة التي تغمرونني بها. وضعت كوثر سماعة التليفون، ثم أخبرت صديقتها بما جرى بينها وبين ميري، ثم قالت لها: ولكني أخشى أن تعوقني متأخرات حسابي بالنزل عن اللحاق بالعمل لدى ميري وزوجها، ولذلك سأحزم حقائبي في الصباح فور أن أتلقى العنوان من ميري، وعليّ الآن أن أتصل بالخال أمرزاق لأقترض منه بعض المال حتى أتمكن من الوصول إلى ميري في الريفييرا.

وأدارت كوثر قرص التليفون، وهي خائفة من ألّا تجد الخال أمرزاق في مكتبه بباريس، وبعد دقتين أو ثلاث، رد صوت أجش قائلًا: "بونسوار، من معي؟"

فردت كوثر قائلة: بونسوار، أنا كوثر ابنة أخت مسيو أمرزاق، وأنا أرجو محادثته حالًا لأمر هام، أو إن كان غير موجود فليُخبره

مخصوص أن يُحادثني على هذا الرقم، ضروري جدًا، لأنها مسألة حياة أو موت.

فرد صاحب الصوت الأجش قائلًا: أرجو أن تُعطيني رقمكِ سيدتي، لأن السيد أمرزاق في الوقت الحالي متواجد في العاصمة حاليًا، ويمكنه الرد على رسالتك بعد دقائق حين وصوله لمكتبه.

فأعطتهم كوثر الرقم، وانتظرت مكالمة الخال أمرزاق، وهي قلقة للغاية. ولكن ما إن مرت عشرون دقيقة، حتى دق جرس التليفون عندها، فرفعت سماعة الهاتف، فإذا هو الخال أمرزاق.

قال: ألو، كوثر، أين أنتِ يا حبيبتي؟

كوثر متلعثمة: أهلًا بك يا خالي.

أمرزاق: أين أنتِ؟ أخبريني حتى آتي إليك حالًا.

كوثر: أرجوك يا والدي وخالي العزيز، هدئ من روعك، لأني أريد مساعدتك.

أمرزاق: حسنًا، حسنًا. أنا هادئ جدًا، ولكن أخبريني بعنوانك حتى آتي عندك وأطمئن عليك.

كوثر: أنا في فندق بلبيه كونتال بوسط باريس، وأنا نزيلة في الغرفة ٧٠٨٠.

أمرزاق: حسنًا، ابقِ عندك، فأنا آتٍ إليكِ.

وضعت كوثر السماعة، وانتظرت خالها حتى يأتي، بينما تحرك أمرزاق مسرعًا قاصدًا الأوتيل الذي تقيم به كوثر. وما هي إلا دقائق أخرى، إلا ودق باب كوثر، فقامت وفتحت الباب، وكانت صديقتها قد تركتها بمفردها لتُقابل خالها، وكان الخال أمرزاق هو الطارق على الباب.

وما إن فتحت له كوثر، حتى ارتمت بين ذراعيه وهي تبكي. قال لها، والدموع تملأ عينيه، وكان يشير بإصبعه: ما فعلتِه معي لا أغفره حتى لبناتي، ولكن لا بأس، فأنتِ كما تعلمين أحب إليّ من بناتي.

فقالت كوثر: بل أنا ابنتك.

فقال العجوز: حسنًا، تعلمين أنك ابنتي، فلماذا لم تتوجهي لشقتي مباشرة بعد طلاقك من هذا المدعو سيد علي؟

كوثر: والله لم أشأ أن أثقل عليك وعلى والدي في الجزائر، فلقد كنت أعلم أنك ستخبرهما، ولم أشأ أن تغمك أخبار طلاقي، وأن تعكر صفو حياتك.

أمرزاق: عذرًا أقبح من ذنب، فإن لم أكن أنا من سيتحمل متاعب ابنته، فمن الذي سيتحملها غيري؟ وخصوصًا أن والدي ابنتي هما أخي وأختي، وهما بعيدان عنها من حيث المسافة، وأنا الأقرب إليك، مما يجعلني الأسبق في اللحوق بك، والأقدر على مواجهة كل صعوبة تواجهك، والذود عنك، وتخفيف ما تعانينه من محن.

كوثر: أنا آسفة يا خال، فأنا لا أعرف كيف فكرت هكذا؟ ربما كنت مشوشة بسبب الصدمة من الطلاق.

أمرزاق: حسنًا يا صغيرتي، سأعرف كيف أحاسب هذا الوغد.

وطلبت كوثر من خالها أن يدخل، فدلف مسرعًا وفي يده عصاه، وجلس على الأريكة.

فقالت كوثر: سأعد لك بعض الشاي يا خال.

فتبسم وقال لها: لا أريد الشاي، ولكنني أريد أن تحزمي حقائبك وأن تأتي معي.

كوثر: بالفعل، أنا حزمت حقائبي، ولكن ليس من أجل أن أقيم عندك، ولكن حتى أتوجه للريفيرا في الصباح، حيث عملي الجديد لدى بعض الإخوة المصريين كجليسة أطفال.

أمرزاق: كوثر، ماذا تقولين!

كوثر: لقد حان الوقت لكي أعتمد على نفسي، يا خالي، وأن أتم تعليمي العالي كما تمنيت دائمًا، وأظن أن الفرصة أصبحت سانحة أمامي بعد انفصالي عن سيد علي، ولن أضيعها أبدًا.

أمرزاق: ولكن ألا تعطين نفسك بعض الراحة والاستجمام؟

كوثر: لا، دع الأمور تتم في حماوتها، فأخشى إن انتظرت أن تتيبس أعصابي بفعل الحزن والكسل، فتفتر عزيمتي.

أمرزاق: حسنًا، ولماذا أرسلتِ لي إذن؟

كوثر: أريدك أن تقرضني حتى أقبض مرتبي، فأرد لك ما اقترضته منك، فأنا لدي متأخرات لم أدفعها، لذلك أريد تسوية جميع حساباتي قبل أن أترك المدينة.

أمرزاق: حسنًا، أتكفيك ألفا يورو؟

كوثر: هذا كثير.

أمرزاق: ليس كثيرًا على ابنتي، وأريد منك شيئًا آخر.

كوثر: حسنًا، ما هو؟

أمرزاق: اكتبي لي الآن قائمة بالمتأخرات التي عليك، وسأكلف من يسدد عنك، وستصلك الفواتير حيث تقيمين.

كوثر: خالي، هذا كثير.

أمرزاق: لا شك أنك مرهقة بسبب كل ما مررتِ به في الأيام السابقة، فلماذا تتحملين عناء تسديد فواتيرك، وأنا لدي الموظفين الذين يمكن أن يتحملوا هذا العناء عنك؟

كوثر: حسنًا يا خالي، لن أعارضك فيما طلبت، ولكن اخصم أموال السداد من المال الذي ستقرضني إياه.

أمرزاق: أموال السداد ستكون هي القرض الواجب السداد بمجرد أن تحصلي على أجرك، أما الألفا يورو التي سأرسلها لك، فستكون

بمثابة تأمين لك في سفرك، فإن لم يعجبك العمل أو صادفتِ هناك أية مضايقة، حينها لن تكوني مجبرة على البقاء من أجل المال، ولتعودي إليّ فورًا.

أرادت أن تتكلم، فأشار لها بيديه بأن تتوقف، وقال: لنعتبرهم قرضًا أيضًا، ولكنه قرض مؤجل السداد حتى تستقري تمامًا في عملك، والآن أريد أن أسألك سؤالًا مهمًا.

كوثر: أعرفه.

أمرزاق: ما هو إذن؟

كوثر: أرجوك يا خالي، ليس الآن.

أمرزاق: بل وقته الآن، فإن لم يكن وقته الآن، فمتى سيكون وقته إذًا؟

كوثر: حسنًا، أنا أعرف أنني كان يمكن أن أوفر علينا كل عناء هذا الابتعاد، وأن أعمل معك، وأن أعيش في كنفك، ولكني الآن أريد أن أبتعد عن كل شيء يذكرني بحياتي السابقة.

ثم انهارت باكية، وارتمت بين ذراعيه مرة أخرى.

فاعتدل أمرزاق وربت عليها بحنو الأب.

وفي الصباح، رحلت كوثر وهي لا تعلم متى ستعود، أو - على الأصح - متى ستعود روحها الخلاقة إليها.

الفصل الثامن عشر

الحب، يا لها من كلمة.

كان جستو في العقد الخامس من عمره، وكان أبيض البشرة، متوسط القامة، وكان ذو عينين زرقاوين تشعّان بالذكاء وتخبران محدثه بقوة شخصيته وعلمه الكثيف.

ولكن طالما آمن القس جستو بالحب.

فالحب كان يعني له كل شيء، بل هو الرمز الذي يشير للمسيح، وهو أيضًا عنده جوهر المسيحية الحقيقي. لذلك فكّر كثيرًا، فلربما يكون الحب شعورًا معنويًّا محسوسًا لدى البشر، وهو يعلّمنا كل المُثل العليا، مثل الرفق والشفقة والوفاء والمصداقية... إلخ، وهو في نفس الوقت لفظ يشير لأعظم نعم الإله الأعظم على الإنسانية، بل يمكن أن يكون الحب هو الإله الأعظم نفسه، ولكنه يأتي في شكله الأصلي بشكل لا يعرفه البشر... ومن يدري، فقد يكون المسيح أهم وأصدق أشكاله، ومن يدري، فقد يكون له أشكال أخرى لا يستطيع أن يتخيّلها البشر... ولكن ما نستطيع أن ندركه أن من الشكل الأصلي للحب وحده تتدفّق كل مشاعر القلوب الرحيمة المحبة.

نعم، فلربما أتى هذا التدفق من نابض هو أعظم من كل النابضين، وربما يكون منبثقًا من نور أعظم من كل الأنوار.

لا أعلم، فكلها أشكال أعظم وأكثر تعقيدًا من تحليلات العقل البشري، الذي مهما أوتي من القوة ومن الرجاحة ومن الذكاء، فإنه لن يدرك كنه تلك القوة... تلك القوة التي تُستمدّ منها سعادة الحياة، ويُستمدّ منها كل النابضين نبضاتهم المتحنّنة الرحيمة التي تحلّق بأجنحة المودّة.

وكما أن كل شعور طيب هو في أصله متدفّق من الحب، فالحب بدوره متدفّق من الحكمة الإلهية، تلك الحكمة التي لا يمكن أن تَبلغ كنه حقيقتها عقولنا البشرية.

هكذا كان يفكّر جستو.

لذلك أراد أن يساعد كوثر، وأن يساعد كل المعذبين الذين هم في عالمه، وأن يرفع عن كاهلهم بعضًا من هذا الألم الجامح الذي تملّكهم وتشبّث بهم.

ولكن، حذارِ أيها الطيب سليم القلب، لأن لكل فكرة بشرية عقبًا متشبّثًا بالأرض، وخالدًا إليها في نفس الوقت، بسبب بشرية المفكر وبشرية المنتفعين بالفكرة من بعده.

وقد يكون هذا العقب هو جذر تلك الفكرة النبيلة الذي تستمدّ منه الحياة من عند طرف اتصالها بأسباب الحياة.

لذلك، ففيه أيضًا تكمن العصابيات التي يتولّد عنها التعصّب لكل ما نشأ عليه صاحب هذه الفكرة.

ومن تلك العصابيات أيضًا تتولّد التشنّجات الأدبية والفلسفية، وذلك يرجع لحالة التخبط التي تنتج عن فقدان أثر الأفكار في آخر مرحلة من مراحل الفكر لدى الباحث عن الحقيقة.

فينتج عن ذلك الفقدان خيالات، قد يتوهّم متخيّلها أنها حقائق، وذلك بسبب ثقته الزائدة في حدسه، مع فرط ثقته في الطيبين.

وقد يكون ذلك بسبب إخفاق المفكّر والمعتنق في استخدام أداة الشك استخدامًا جيدًا، لأن وظيفة الشك ليست كما يعتقد الآخرون هي الطعن في الحقائق، ولكن الوظيفة الحقيقية للشك هي إخراج ما علق من شوائب بالحقائق، فترجع نقية وحقيقية كما كانت.

ولو أنه استخدم الشك استخدامًا جيدًا، لكانت أول نتيجة يصل إليها أن الجميع عُرضة للسهو وللنسيان، لأنهم بشر، حتى هو نفسه قد نسي وسهى وتخبّطت به الطرق.

لذلك، كان عليه أن يبحث باهتمام في كل طريق مُدَّ إليه، ويدّعي من طرقوه أنه هو من يوصل للحقيقة.

ولذلك، فعلينا أولًا أن نعلم أن أصل التلبّس بالحقائق يرجع لظروف ولادة ونشأة زهرة فكرة الإيمان الإنساني، التي يحتوي عليها الضمير الإنساني بأشكال مختلفة.

لأن هذه الفكرة، عندما ظهرت، طرقت عقولًا كثيرة وناهضت عقائد كثيرة.

ولا شك أن كثيرًا من تلك العقول ومن تلك العقائد، عندما أدركت رجاحة فكرة الإيمان الحق، قد حاولت التوفيق بكل جهدها بين الفكرة وبين ما يُرضي ضمائرهم من معتقدات.

فلم يوجد شخص بعد يستطيع أن يتخلّى عن عقائده القديمة التي نشأ عليها بكل سهولة، وذلك بسبب ظنونه أنه كان هناك من يرعاه قبل أن يؤمن، وكان يجيبه عندما كان وثنيًا.

وقد يكون ذلك التفكير نابعًا من نفسه، وقد يكون ذلك من الشيطان، ولكن الأجدر أن تلك الظنون بقيت عنده بسبب ضعف إيمانه وقلّة سماحته وبعض الشك فيما استجد عليه أمره من إيمان نظيف.

ولو أنه فكّر قليلًا لأدرك أن من كان يرعاه منذ البداية هو خالقه، ولو أنه ضلّ عن حقيقة خالقه، ما ضلّ خالقه عنه ولو جزءًا من الثانية...

ولا شك أن الأيادي التي ساهمت في غرس شجرة الإيمان ورعايتها ونحتها عبر الأجيال المختلفة، كان فيها بعض الذين جالت أفكارهم في تلك المساحات المظلمة، ولم يستطيعوا أن يشعلوا لأنفسهم عود ثقاب واحد يضيء لهم ولإخوانهم من بعدهم.

فكانوا، بعد أن عادوا من تلك المساحات المظلمة، إما ضعاف الإيمان، وإما منافقين، أو على الأقل صاروا مؤمنين أصابهم بعض الشك.

وقد حاول أكثرهم تصدير هذا الشك للمؤمنين الجادين بطرق مختلفة، فساهموا بذلك في نشر الأباطيل بين الناس عبر العصور.

كما أن علينا أن نعلم أن كل نبتة خيّرة، وكل زهرة منيرة، متأسس في جذرها مع الصدق والنبل والإيمان وحب التعاون والإنسانية كثير من المعتقدات الخاطئة، وكثير من الأكاذيب القبلية والقومية المخادعة.

وهذا ليس من صنع زهرة الإيمان، ولا كان بيد من أسسها، سواء كان نبيًا أو رسولًا أو مصلحًا أو داعية أو فيلسوفًا.

ولكن ما أوجد تلك الأكاذيب الفخورة هو نَزَق أكثر الأيادي التي ساهمت في زراعة زهرة الإيمان عبر العصور.

ويبدو أن الخالق جعل لتلك الأيادي دورًا في نشر كلمته الصحيحة، لأنه كتب على كل خلقه الاختبار والابتلاء، ولأنه يريد أن يفخر بأفضل مخلوقاته على باقي المخلوقات.

ولربما أراد أن يُنعِم على الأولين بأن يجعل الآخرين في خدمتهم، ولا يكون للآخرين عليه حجة، ولا حجة لهم أيضًا على السابقين في الإيمان الحق.

وهذا لا يدحض شيئًا في علمه تعالى بمخلوقاته، ولكنه أراد ذلك، كونه أراد أن يكافئ كل شخص على قدر اجتهاده بالقدر العادل الذي يستحقه، وحتى تدرك المخلوقات أهمية حكمته ودقة منظومة عدله، وليعرف البشر أنهم، مهما أوتوا من عقل، فإن إلههم أعظم منهم بكثير عدلًا وحكمة، وأن حكمتهم وعدلهم لا يُمثلان حتى ولو نقطة من محيط بالنسبة لعلم خالقهم، سبحانه وتعالى.

الفصل التاسع عشر

عاشت كوثر مع العائلة المصرية كصديقة للعائلة وجليسة لأطفالهم، والحق أنهم كانوا يعتبرونها كأخت لهم.

وكان القس جستو صديقًا للعائلة، وكان يتردد عليهم من حينٍ لآخر.

وكان في بداية الأمر معجبًا بكوثر، ولكن حدث أمر عجيب؛ فقد أصبح القس جستو ذات يوم مغرمًا بكوثر! تبا، كيف حدث ذلك، وهو الذي كان يعاني بالأمس من تذكّر اسمها!

لقد كان يتذكر اسمها بالكاد. نعم، كان يهتم بها، ولكنه لم يكن يحس بالشوق إليها، ولم يكن يريد أن يبقى معها دائمًا كما يشعر الآن.

ولكن يا الله، كيف سيكون هذا الحب، وهو قس، وهي فتاة مسلمة؟ كما أن هناك فرقًا كبيرًا في العمر بين كوثر وجستو، هذا الفرق يُقدَّر -على الأقل- بربع قرن من الزمن يفصل بين جستو وبين ميلاد كوثر!

أي أن جستو كان شابًا في الخامسة والعشرين عندما وُلدت كوثر.

يا إلهي، كيف دبّت شرارة الحب في قلب جستو، وهو الرجل التقي الورِع؟

وكيف سيتعامل مع كوثر؟ وكيف ستتعامل معه إذا أخبرها بمكنون مشاعره اتجاهها؟

ولكن القس اتخذ قرارًا ألا يُشعر كوثر بأي من هذه المشاعر التي يشعر بها نحوها.

ولكن يبدو أن كبيرة الراهبات جانيت لاحظت كيف أصبح رقيقًا في تلك الأيام، فقالت لأخت لها وهي تضحك وتُداري فمها بيديها:

قالت: ألا ترين أن الأب جستو قد تغيّر في تلك الأيام، فأصبح أرقّ وأجمل؟

فقالت الأخرى، وكانت تُسمّى سيستر جاسمين:

قالت: أرى أنه يشعر بعواطف جياشة، وأخشى أن يكون السبب هو هذه الفتاة المسلمة.

فقالت جانيت: بل قولي من يوم أن تواجدت هذه الفتاة العربية المسلمة.

فردّت جاسمين عليها وقالت:

قد تكون هذه الفتاة من الذين نشأوا بين أحضان اللغة العربية، ولكنها يا عزيزتي من مجاهل الجزائر الإفريقية.

جانيت: وماذا يعني ذلك بالنسبة إليك أو بالنسبة إلينا؟

يعني أنها فتاة من عِرق أمازيغي، وإن نطقت بالعربية بسبب نشأتها على الدين الإسلامي، وعلى تعلُّم كتابهم المقدّس الذي يدعونه "القرآن"، وطقوسهم المتوغّلة في التصوّف.

جانيت: ما زلت لا أعرف ماذا يعني وضعها هذا بالنسبة إلينا.

جاسمين: يعني أنها يمكن أن تتحوّل عن دينها لدين آخر، مثل كل الوثنيين عندما رأوا نور المسيح الأعظم.

صرخت جانيت صرخة مكتومة، ثم وضعت يدها على فمها، ثم حرّرت لسانها وقالت في لهجة آمرة ناهية:

جاسمين!! جاسمين، إياكِ أن تفكّري هكذا مرة أخرى، وإياكِ أن تطرحي هذه الفكرة على أحد في الدير، ولا حتى أن تتحدّثي بها بينك وبين نفسك!

جاسمين: لماذا يا سيدتي؟

جانيت: أيتها الخرقاء، نحن قمنا بإيواء هذه الفتاة مؤقتًا لأنها أميّة تحتاج المساعدة. فهدف مساعدتنا لها هو نَيل رضا المسيح عن طريق التعامل بالإحسان والسماحة، التي أمر المسيح كل مسيحي أن يتعامل بها مع المختلفين من الأمم.

وليس هدفنا هو التسلط على تلك المسكينة، فنسقيها عقيدتنا قهرًا.

جاسمين: سيدتي، لم أقصد ذلك.

جانيت: ماذا تقصدين إذًا؟

جاسمين: أقصد أنها إذا عاشت معنا وأحبّتنا، ووجدت منا كل شفقة ورحمة ودعم، فقد يأتي اليوم الذي ترى فيه نعمة المسيح بدون أن يدلّها أحد إلا قلبها، وعندئذ لن يقهرها أحد، ولن يرغمها أحد.

جانيت: كم أخشى من قلبك الطيب وروحك النقية، يا جاسمين.

جاسمين: معذرة، تخشين من ماذا؟

جانيت: أخشى عليكِ يا حبيبتي، أخشى عليكِ أنتِ.

تحيّرت جاسمين من ردّ السيّدة جانيت، ولم تدرِ ماذا تقول، وما كادت تحاول الردّ، إلا وكانت السيّدة جانيت قد تحرّكت من أمامها وتوارت في منعطف من الردهة.

وأرادت جاسمين أن تتبعها، ولكنها أجّلت ذلك لمرة أخرى، وانصرفت لتقضي بعض شؤون الدير المكلّفة بها في هذا الصباح.

الفصل العشرون

بعد المفاوضات التي أجراها أمرزاق مع الشركة الفرنسية، رجع كل من بو عابد والمهندس علي المصري إلى أصحابهم، وكان من أمر أمرزاق أنه رتب اجتماعًا بين جميع الأطراف، فتم في هذا الاجتماع حسم كل الخلافات التي كانت بين بو عابد وبين الشركة الأنجلوفرنك، ثم تسلم أمرزاق أصدقاءه، وبعدها تم الاتفاق بينهم على كيفية التعويض عما لحق بهما من أضرار من أثر تصرفات صاحبه – وهذا كما سبق واقترح السيد أمرزاق – لإنهاء هذه الخصومات فيما بينهم والعمل معًا في المستقبل في وئام وسلام، وأن تسود بينهما أخوّة تتسق مع معايير الأخلاق الحسنة ومبدأ الأخوّة والإنسانية القائم على الود والاحترام وتبادل المنافع والمصالح.

كما تم إبرام عقود بين بو عابد وبين الشركة الأنجلو فرنسية، وكانت تلك العقود تحدد نسب الشراكة بينهما، وكانت تحدد أيضًا واجبات وحقوق كل منهما في الشراكة التي هم بصددها.

والحقيقة أن بو عابد استفاد كثيرًا من الاستعانة بخبرات الأنجلو فرنك في منجمه.

أما المهندس علي، فقد كان مطلوبًا على ذمة قضية مشاجرة كبيرة في مصر، وكان عليه أن يسافر لتبرئة ساحته من الاتهامات الموجهة إليه. وبعد أن أخلت الإنجليز سبيله، سافر إلى القاهرة عائدًا من ليفربول عن طريق البحر.

وفي القاهرة، تمت محاكمته، ثم أطلق سراحه بعد ذلك، بعد أن تمّت تبرئته من كل الاتهامات الموجهة إليه. فعاد مرة أخرى إلى ليفربول، ثم ارتحل إلى ضاحية ماكنزي ليبحث عن جاليا التي أغرم بها، وعندما وجدها عرض عليها أن يتزوجها، فوافقت، وعاشا معًا بعد ذلك في سعادة، وتلك قصة أخرى سنرويها لكم في المرة القادمة إن شاء الله تعالى.

ولكن ما يهمنا الآن هو أن المهندس علي المصري كان قد أُغرم أثناء أسره بغاليا، ابنة مدير الشركة الإنجليزي، والذي كان في الأصل يهودي الديانة، وكانت زوجته تارا فرنسية يهودية الديانة أيضًا.

وكان قد تم احتجاز بو عابد وعلي المصري في قصر يملكه هذا المدير، وكان القصر في الريف الإنجليزي. وكان المدير يستجم أحيانًا في هذا القصر بصحبة عائلته، وتصادف أن حضرت ابنته غاليا إلى القصر أثناء وجود علي وبو عابد فيه.

وكانت غاليا، مثل أبيها، على الديانة اليهودية، وكانت ذات جنسية فرنسية مثل أمها، بل كانت تميل إلى أخوالها الفرنسيين في لغتها

ومظهرها ومأكلها ومشربها واستمتاعها بالحياة. وكانت شقراء فارعة الطول، ولها عيون زرقاء، نقاء الزرقة فيهما كالبحر، وكانت شابة جميلة في العقد الثالث من عمرها، وكان علي في العقد الرابع من عمره، وقد أعجبه فيها عطرها النسائي الأخاذ وشخصيتها الرقيقة. وكان هناك شيء ما في عينيها، وكأنها كانت تضمه بعينيها.

وكان اللقاء بينهما أول مرة في حديقة القصر، وبذلك قصة طريفة، إذ كان علي يعاني من ألم في الكلى، وكان الحرس ينقلونه من الحجرة التي يقيم فيها، بسبب أنها لم تعد صالحة لإقامته بها. وكانت جاليا في هذا الوقت تتنزه في الحديقة، فإذا بها تسمع صوت شخص عربي يتأوه ويسب الحرس الذين يحملونه باللغة العربية، وكان يقول: بالراحة يا ولد، أنت وهو، أنت يا حيوان. ويبدو أن علي كان يمزح معهم ويداعبهم، وكان يتألم تارة ويمازحهم تارة أخرى، قائلًا: بالراحة يا بغل!

عندما رأت جاليا الموقف اندهشت جدًا من الرجل الذي يعصره الألم، ثم لا يلبث أن يعود ويمازح الحرس كلما ذهب الألم عنه. وضعت يدها على فمها ولم تتمالك نفسها من الضحك، وقالت: يا للهول، هذا الرجل شخصية أسطورية! يا إلهي!

ثم ذهبت إلى علي والحرس، وعندما وصلت عندهم ألقت عليهم التحية، ثم وجّهت الحديث لعلي باللغة العربية الفصحى: ألا تخشى أن يفهم الرجال ماذا تقول!!؟

فتبسم علي في وجهها وصفّر، ثم قال معبرًا عن انبهاره بجمالها: اللهم صلِّ على النبي، ما هذا الجمال الرائع؟

فقالت له معترضة، وهي تضحك: يا سيد، في ماذا أنت الآن!!؟

فقال علي، يغازلها: أنا في الجنة الآن، أخاطب حورية من حورياتها، فلكِ مني كل احترام وتحية يا سيدتي، واسمحي لي أن أجيبك عن سؤالك.

فقالت له: أجب إذن. فأجابها قائلًا:

دعيهم يفهمون، ألا يفهمون؟

ولو كانوا يفهمون، لأخبروك أن عيونكِ أجمل عيون.

يا جنوني، علمتُ الآن عندما رأيتكِ، سبب جنوني.

ألا تعلمين أنني أنعتهم بالغباء، وهم ينعتونني بالجنون؟

وما أفقدني صوابي إلا جمالك، عندما كانت روحي ملتصقة بروحكِ، منذ أشهدنا الله على أنفسنا...

عندئذ عطفت عليه جاليا كثيرًا، ورأت ضرورة إحضار طبيب له بسرعة. أما علي، فلم تفارق صورتها مخيلته من يومها.

وكان أن حدث بينها وبين المهندس علي المصري ماسٌ عاطفي، فأصبح معجبًا بجاليا، بل نقول إنه عشقها، وأنها أصبحت معجبة به أيضًا، وصارت جاليا، بعد لقائهما الأول، تزوره في حجرته وتتحدث معه كثيرًا، وفي كثير من الأحيان كانت تأمر الحرس بإخراجه للحديقة، وتتنزه معه عند السياج الأبيض مرحبة به، وكانت كثيرًا ما تصرف الحرس حتى تتحدث معه على انفراد.

ومن خلال حديثهما معًا، عرف علي عنها أنها كانت تدرس الآداب الشرقية ما بين القاهرة وبيروت، ولكن ظروف الحرب في الشرق الأوسط جعلتها تفكر أن تتقدم لمنحة هارفارد، وبالفعل حصلت عليها، ولسوف تواصل الدراسة في العام المقبل بهارفارد، الولايات المتحدة.

كما أخبرها علي بأشياء كثيرة عن نفسه، منها أنه من صعيد مصر، وأنه من عائلة محافظة ومتصوفة في نفس الوقت، وأنه ذهب للعمل في الجزائر بسبب عداوة بين عائلة أبيه وعائلة أخرى ذات بطش وظلم متواتر بين أهل القرية، إذ أنهم حاولوا اقتحام داره بعد وفاة أبيه، وكادوا أن يهدموا الدار فوق رأسه، بسبب ما أطلقوه من أعيرة نارية.

فما كان منه يومها إلا أنه تربّص ببعضهم، وطعنهم بالسلاح الأبيض واحدًا تلو الآخر، ثم تمكن أن يحصل على سلاح أحدهم بعد أن أخذه منه عنوة، ومن ثم أدار ضرب النار فيهم، ففر الجمع وولّوا الدُّبر.

ولكن الشرطة جاءت، ففضت النزاع بينهم.

وتم التحقيق في الأمر، ثم أمرت النيابة باحتجازه هو وآخرين لحين البت في الأمر، ولكن علي هرب أثناء ترحيله عن طريق البحر نحو الجزائر، التي كان يعتبرها نقطة عبوره نحو فرنسا. ولكن الأقدار شاءت أن يتعرف على بوعابد ويتلقى عرضًا بالعمل معه في موريتانيا. ثم حدث ما حدث بين بوعابد وبين الشركة التي يعمل بها والدها.

والحقيقة أن جاليا أعجبت بعلي المصري بسبب مزايا لاحظتها فيه، مثل أدبه الجم وتدينه الشديد وجرأته، وشاعريته، وكان صوته ساحرًا، كأنه صوت ملاك قادم من الشرق، ولأنه كان يعاملها باحترام ولا يشهر عينه بها مثل كثير من الرجال الوقحين.

ورغم أخلاقه العالية، كان علي المصري سريع البديهة جدًا وسريع الرد، وكان يبدو في بعض الأحيان شديد اللسان على محتجزيه، ولا يخشاهم ولا يخشى الموت!!

ولكن أهم ما لفت نظرها فيه قوة عينيه، أنه كان يجيب محدثه كما لو أن أحدًا يلقي عليه الإجابة من السماء.

كان يُنصت قبل أن يُجيب، ثم ينطق بحكمة بالغة، وبجرأة عجيبة، وبما لا يتوقعه محدثه.

وسألته جاليا في مرة من المرات:

لماذا لا تحاول الهرب؟

فقال لها: قبل أن أقابلك، كنت أود أن أعود للصحراء، ولكني لم أفكر في الهرب، لأني أعلم أن البوابات ستفتح من تلقاء نفسها لي يومًا.

فتعجبت وقالت: كيف؟ وأنت وصاحبك لم يعبركما أحد حتى الآن! أراك مغرورًا يا سيد علي.

فقال لها: وما أدراكِ؟ بل معنا أحد.

واحد، أحد طيب، هو عُرس الأبد.

فقالت: من هذا؟ أنا لم ألمحه.

فأشار إلى السماء وقال:

انظري حيث رب محمد وإبراهيم وموسى وعيسى، إنه الله الإله الأحد، رب الحسن والحسين، وعمر وأبو بكر وعلي وعثمان.

فقالت ساخرة:

ومن هؤلاء؟ وأين هؤلاء الآن يا سيدي؟

فقال لها: أعرف ماذا تقصدين، ولكن اعلمي أن أرواحهم حولنا وفي كل مكان، ليس هم فقط، ولكن هناك أكثر مما تتخيلين من الأرواح.

هم يبتهلون لله من أجلنا، من أجل أن ينصرنا الله، وسينصرنا الله برحمته وبدعائهم ودعائنا على ظالمينا، مهما كنا ضعفاء، ومهما كنا مخطئين، ومهما كان فينا من خونة.

فقالت له: أنت مجنون، كيف سينصركم وكل هذا البلاء فيكم؟

فابتسم وقال: بالبركة يا سيدتي.

فقالت: وما البركة؟

فأجابها قائلًا: رجل واحد من علمه وصلاحه صار يعدل أمة، وشوارع تمشي فيها النساء آمنة ومؤمنات، أحصن فروجهن، وفتيات تقيات يصُنَّ شرف آبائهن وإخوانهن، ويحفظن شرف أمتهم.

ورجال صالحون انقطعوا في بيوتهم لذكر الله، والصلاة والسلام على الرسل والأنبياء.

فتعجبت منه جاليا كثيرًا وقالت:

لو كان أبي يعلم أنك مجنون، ما أسرك، فلا فائدة من المجانين أمثالك.

فقال علي: ها أنت قد قلتِها، لا فائدة من... المجانين.

ولا أحد عاقل يمكن أن يزهو بنصر حققه على المجانين، لأنهم مجانين!

ولكن اعلمي أنهم يأسرون المجانين حتى لا يعترضون حياة العقلاء بصدمة تجعلهم يفكرون، من المجنون ومن العاقل حقًا.

بعدها صارت صداقة ومحبة بينه وبين جاليا.

وأتى يوم أن وضعوه في السيارة ليعودوا به ويسلموه لأمرزاق، يومها قال لجاليا وهي تودعه:

سأعود، وسأطلب يدك من أبيك، فهل ستوافقين على الزواج مني؟ أم ترغبين في الزواج من ابن عمك؟

فضحكت جاليا وقالت: ومن أين علمتَ بأمر ابن عمي؟

فضحك علي وقال لها: إذا فلكِ ابن عم ويريد الزواج منك، كنت أقصد أن اليهود جميعًا أبناء عمك.

فضحكت جاليا أيضًا، ثم قالت: صه يا مجنوني!

لو أنا وافقت، فإن أبي لن يوافق عليك زوجًا لابنته، فأنت عربي، وأي عربي... أنت مصري فرعوني!!

فمازحها علي قائلًا: وها أنا قد بعثتُ لكم مرة أخرى من البحر بعد أن آمنتُ بموسى.

ثم استعاد جديته وقال: اسمعي يا جاليا، أنا لا يهمني إلا موافقتكِ.

فقالت له جاليا، وكأنها تختبره:

ولكنكم، أيها المصريون، تحاربون اليهود في سيناء، وتؤلبون عليهم العرب والعالم كله.

فقال علي: حسنًا، عزيزتي جاليا، نحن لم نحارب اليهود، وإنما نحارب الصهاينة.

والصهاينة هم من بدأوا الحرب، عندما احتلوا أراضينا، وقتلوا إخوتنا، واستولوا على أموالهم ومنازلهم، وأجلوهم من أوطانهم، واغتالوا أبطالهم غدرًا.

نحن لا نريد أن نرميهم في البحر كما يدَّعون، بل نريد سلامًا عادلًا.

جاليا، جاليا، جاليا حبيبتي، نحن نقاتل من أجل سلام عادل، أما هم فيقاتلون من أجل ثأر تاريخي، ويا ليت ثأرهم المزعوم كان حقيقيًا، بل هي أكذوبة كراهية مكبوتة.

قولي لي بالله عليك، ماذا سنستفيد من الغرقى إلا الجيف والوباء؟

ونحن يا جاليا سباع لا نأكل الجيف.

فقالت له جاليا: هكذا يتردد عنكم...

علي: أكاذيب يا طفلتي، فنحن مثل أي شعب، لا نقاتل إلا من يعتدي علينا وعلى أراضينا، والعالم كله يعلم أن الصراع ليس صراعًا عرقيًا، ولا هو صراع ديني – على الأقل من جانبنا – إنه صراع مثل صراع الحلفاء مع النازية، صراع وجود وحقوق لا أكثر ولا أقل.

ولو أخذ كل ذي حق حقه، ما وُجدَ بمنطقتنا أي صراع.

لن أقول لك صدقيني يا جاليا.

أتعرفي لماذا؟

جاليا: لماذا يا مجنون؟

علي: لأني أعرف أنك تعرفين حقيقة أباك، وحقيقة أقاربك، ولكنك تكابرين، لأنك تودين لو أن أباك وقومك على حق. ولقد كنت أودها أنا أيضًا لأصهاري، ولكن هيهات يا زهرة أوروبا الغربية، هيهات...

وهكذا عاد علي بعد أن وضع رسائله في روح وقلب جاليا.

فشعرت جاليا وكأنهم اقتطعوا قطعة من روحها، وشعر علي وكأنه فارق الحياة، ولن يعود إليها إلا بعد عودته لجاليا.

أما ما كان من أمر عبد الله، فلقد استعاد عافيته بمساعدة نورمينا. وجدت نورمينا بالبحث عن عائلة عبد الله كما أخبرها هو، فحالفها

الحظ وتواصلت مع أبيه في الجزائر، فلما علم الأب بسلامة ابنه، كاد أن يطير من الفرح، وشكرها كثيرًا على ما أبدت من رغبة صادقة في مساعدة عبد الله، وعلى ما قدمته من عون له أثناء رحلة مرضه.

وكم شعرت نورمينا بالسعادة لأنها استطاعت أن تقدم يد العون لإنسان مثل عبد الله، مما تسبب في شفائه وفي رجوعه لعائلته، لذلك رأت أن عليها أن تذهب للكنيسة وأن توقد شمعة للعذراء.

أما عبد الله، فقد كان يتماثل للشفاء، ولكن قلبه كان يسأله دائمًا عن كوثر.

أين هي؟ وماذا تفعل الآن؟ وما أخبارها؟

وكان يخشى أن يقول لنورمينا إن كوثر كانت معه طوال فترة غيبوبته، وأنه لم يتركها أبدًا، ولم يشعر أنه تركها إلا بعد أن استيقظ من غيبوبته، وكأنهما كانا في الصباح يعدوان معًا عند أشجار غابة جرجرة، ثم يعودان في المساء ليمرحا ويتحدثا معًا، ثم يتعبا فتغفو أعينهما، ولا يشعرا إلا وكلٌّ منهما نائم في حضن الآخر.

فأين أنتِ الآن يا كوثر؟!

الفصل الحادي والعشرون

الجزء الأول

أخيرًا رجع عبد الله لعالم الأحياء، ولكم كانت هذه الرجعة متعبة له ومريحة لمن كانوا حوله ويتمنون عودته، وذلك لأن عبد الله كان يحتاج لعلاج مكثف، كان سوف يستمر لشهور قادمة حتى يستطيع أن يقف على قدميه بصورة طبيعية، وحتى يتغلب على ضعف عضلاته وعظامه الناتج عن رقدته الطويلة، وأنه كان يعيش على المحاليل والجلوكوز عندما كان في الكوما. وقد كان العلاج في أول الأمر صعبًا، بل وكاد أن يكون مستحيلاً من وجهة نظر عبد الله أن يقف على قدميه كما عهد نفسه في الماضي، ولكن كل العقبات تذللت بسرعة بمساعدة الدكتورة نورمينا، وبفضل نصائحها، وشحذها لقوى الأمل والصمود في نفس عبد الله، ناهيك عما كان يُحدثه حضورها من بهجة في نفس عبد الله.

أما بالنسبة لنورمينا، فيبدو أنها تأكدت مع مرور الأيام من مشاعرها اتجاه عبد الله، ومن أنها مغرمة به، بدون سبب معين إلا إحساسًا بالجذب يجذبها إليه بدون إرادة منها، وكانت تشعر أنها تود أن تبقى

مع عبد الله طول عمرها، وأن سعادتها لا تتألق إلا وهي بجواره. ولكن عبد الله ما انفك يُحدثها عن كوثر، حبه القديم، مما أثار غيرتها وحنقها في أحيان كثيرة، ولكنها كانت تُقدّر أن عبد الله كان بعيدًا عن أحبابه وعن ناسه لمدة ثلاث سنوات، وأن القدر شاء أن يكونوا هم آخر من رأى وتعامل معهم قبل محنته، وآخر من عقد عليهم أفضل آماله. لذلك، فقد كان من الطبيعي أن يكون متعلقًا رغما عنه بذكرياته، وكأنها كانت في الغد القريب، وألا يُقدّر أن هذا الوقت الذي كان مُبعدًا فيه غيّر فيهم الكثير من الأشياء، ناهيك عن تغيّر الوقت نفسه.

ولكنها اطمأنت بعض الشيء عندما انفردت بوالد عبد الله وسألته عمن تُدعى كوثر، والتي يسأل عبد الله دائمًا عنها، فأجابها الوالد بحزن: لقد كانت مشروع خطبة لعبد الله قبل محنته، وكان عبد الله متعلقًا جدًا بها، وكانت الفتاة الوحيدة التي أثارت إعجاب عبد الله. ثم روى لها ظروف لقاء عبد الله بها، وأخبرها أنها تزوجت بعد أن مر على اختفاء عبد الله عام ونصف، وذلك تحت ضغط أهلها، وكما تتطلب عادات المجتمع الشرقي، وأنه -أي الوالد- لا يريد أن يخبر عبد الله بأمر زواجها إلا بعد أن يتم شفاؤه. وهنا قالت له نورمينا: حسنًا ما فعلت يا سيد بوعمر، وأما عن نفسي فسأتابع علاج الدكتور عبد الله دون أن أخبره بما سمعته منك. وأرجو ألا

تخبر زملائي الأطباء بسر كوثر، اللهم إلا الطبيب النفساني، ليخبرك متى يمكن أن تخبره بما كان من أمر حبيبته.

ولكن عبد الله ما انفك يسأل الزائرين من أهل بيته عن كوثر، وعن خالها أمرزاق. ففي مرة من المرات التي زاره والده فيها، سأل عبد الله والده عن كوثر، وعن أخبارها، وكان والد عبد الله يعلم بزواج كوثر، ولكنه كان لا يعلم شيئًا عن انفصال كوثر عن زوجها سيد علي منذ شهور مضت، وكان كما ذكرنا سابقًا لا يحب أن يصدم ولده بعد إفاقته بمسألة زواج كوثر، فلقد كان هذا الخبر سيتسبب في تعكير مزاج عبد الله، مما كان سيؤدي لتأخر شفائه. فأراد الوالد في بادئ الأمر أن يتهرب من أسئلة عبد الله، ولكنه عندما فكر قليلًا، وجد أنه يجب أن يجيب على أسئلة عبد الله، حتى يريح باله ولو مؤقتًا ليتابع علاجه في اطمئنان، وحتى لا يؤثر انشغاله بأمر كوثر على حالته الصحية.

فأجاب بو عمر ولده بإجابة زئبقية، وأخبره أنه منذ سنة أو أكثر انقطعت أخبار كوثر وعائلتها عنه، فلما سأله عبد الله عن السيد أمرزاق، قال له والده: إن السيد أمرزاق نقل أعماله من الجزائر إلى الخليج العربي، حيث يقيم أبناؤه، وأنه أحيانًا يأتي إلى فرنسا أو يذهب إلى الجزائر. فقال عبد الله: نعم، فلقد أخبرني عندما كنت أزوره، حيث بيته الريفي في قرية جرجرة بالجزائر، أن له أبناء

يعيشون في الكويت، ولكن لماذا لا نتصل به، حتى نطمئن عليه ونسأله عن كوثر؟ فأجاب بوعمر ولده قائلاً: حسنًا رأيك، وخصوصًا أنه سيفرح عندما سيعلم بخبر رجوعك لنا، ولكني أخشى أني سأنتظر حتى يتصل بي، لأني للأسف أضعت نمرته، ولكن اطمئن يا ولدي، فهو دائم الاتصال بي والاطمئنان عليّ وعلى العائلة، فهو أخٌ وصديق وفيّ.

فتمتم عبد الله قائلًا، والحزن قد بدا على وجهه: ولكن أخشى أنك أضعته يا والدي. فقال الوالد: لقد سمعتك، ولكن عليك أن تعلم أني لم أضعه، فهو إذا لم يتصل بي، فسننتظر حتى يحين موعد شفائك، ونذهب إليه أنا وأنت، فنحن أضعنا نمرته ولكننا لم نُضِع عنوانه. ثم قام، ونظر من نافذة الحجرة، واستطرد بأسى قائلًا: يا ولدي، كان اختفاؤك شديد الوقع عليّ أنا وأمك وإخوتك، فلقد كنا جميعًا في أول الأمر نعاني من حالة ذهول وصدمة، واستبد بنا القلق على مصيرك، ثم مع طول غيابك تحول كل ذلك إلى هم وحزن شديدين. ولا أنكر أن الحزن تمكن منا بطريقة عجيبة، وبلغ بنا حد اليأس، ولكن الإيمان بالله سرعان ما كان ينير أمامنا الطريق، فنرجع إلى الله ونرضى بقدره ونسأله أن يصبرنا على فقدك، وأن يهدينا. ويبدو أننا كنا قد أفرطنا في الحزن حتى ألهتنا الهموم عن مودة الكثير

من الإخوة والأصدقاء والمعارف. ثم صمت برهة عمَّ فيها السكون بالغرفة، ثم استطرد قائلًا:

المهم الآن يا دكتور عبد الله، أريدك أن تنتبه إلى ممارسة العلاج الطبيعي، وأن تأخذ علاجك بانتظام، وأن تنفذ تعليمات الأطباء حتى يتم شفاؤك، وكل شيء بعد شفائك سيكون ميسرًا وسهلًا بإذن الله تعالى، وليقضِ الله أمرًا كان مفعولًا. عبد الله: حسنًا يا والدي، وأرجو أن تسامحني على ما سببته لك من أحزان، أنت وأمي، وأعتذر إن كان يبدو من كلامي أن ألومك على انقطاع اتصالك بالعم أمرزاق، ولكن هذا لم يكن قصدي. عندئذ قاطعه بوعمر قائلًا: مهما تسبب اختفاؤك من آلام لي ولوالدتك، فإن ذلك لم يكن عن قصد منك يا ولدي الحبيب، لذلك فأنا وأمك سامحناك دائمًا، وكنا ندعو الله أن يطيل عمرنا حتى ترجع لنا سالمًا غانمًا، وها قد استجاب الله لنا، ورجعت لنا سليمًا معافى، لذلك ستجد أن فرحتنا بعودتك أنستنا كل الهموم والأحزان. أما بالنسبة للعم أمرزاق، فأريدك أن تتأكد أنه هو من انقطع عني، ولست أنا من انقطعت عنه، وذلك حدث بعد عودة عمك بو العجب من غيبته. أما كوثر، فلقد سمعت أنها سافرت لبلد أوروبي حتى تُكمل دراستها، وهذا كل ما أعلمه، ولذلك أريدك أن تطمئن حتى يتم شفاؤك، فإما أن آتيك بأخبار عنها، هي وعمها أمرزاق، وإما أن ينتهي علاجك، وعند ذلك، فمن سيعترض

طريقك؟ كل ما أرجوه منك الآن أن تتريث حتى تسترد عافيتك، وألا تفكر فيما يُكدرك، واعلم أنه قد فاتك الكثير، وعليك أن تُعوّضه بمجرد أن تتماثل للشفاء، فلا تدع هذا الفوت يُحزنك.

فلما استمع عبد الله لكلام أبيه، استراح قليلًا، ووافق فيما ذهب إليه من نصيحته بضرورة أن يهتم باسترداد عافيته قبل كل شيء.

ومن ثم؛ انصرف الوالد بعد أن قضى وقتًا طويلًا مع عبد الله ليقضي بعض حوائجه، وكان قد وعد ابنه قبل أن ينصرف أنه سيعود إليه مُصبحًا، وأنه لن يتركه حتى يتعافى تمامًا. وقد كان بو عمر في أعماقه فرحًا وسعيدًا بعودة ولده، ولكنه كان قلقًا مما سوف يواجهه ولده بعد شفائه من وقع أخبار زواج كوثر بعد اختفائه بعام، فمن المؤكد أنه سيكون لتلك الأخبار وقعًا سيئًا على عبد الله، يرجو من الله ألا يكون له آثارٌ سلبية على صحة عبد الله وعلى إكمال مسيرته.

أما كوثر فقد كانت في هذه الأيام أتمّت العام الأول من دراستها للأدب الفرنسي، بعد انفصالها عن زوجها ولحوقها بالجامعة، وكانت ما زالت تقيم عند عائلة ريمون المصري، بل وما زالت تحتفظ بعملها لديهم. ولكن هذه الأيام التي عاودت فيها دراستها هيّأت لها أن تتعرّف على معلمها العراقي، وقد كان يُدرّس لها مادة أسلوب الأدب المقارن باللغتين العربية والفرنسية.

وكان هذا المعلم معجبًا بكوثر بسبب نباهتها، وبسبب نشاطها وذكائها والتزامها في تأدية فروضها. وكان اسم هذا الأستاذ الدكتور سعيد الفارضي، وكان قد وُلِد لأبٍ شيعي المذهب في إحدى ضواحي كربلاء، وكان بحكم نشأته مسلمًا على المذهب الإثني عشري الجعفري. ولكن الدكتور سعيد كان منفتحًا على كل المذاهب والأديان الأخرى منذ نعومة أظافره، مما جعله محبوبًا من كثير من زملائه وأصدقائه الذين كانوا من كافة الأطياف والأديان والمذاهب والأعراق.

وفكّر سعيد بعد حصوله على ليسانس الآداب من جامعة بغداد أن يسافر لفرنسا ويتم دراساته العليا للآداب بفرنسا، لذلك فاتح والده فيما أراد، فوافق والده ورحّب بالفكرة، كما أبدى استعدادًا كبيرًا لمساعدة ابنه، وذلك لأن والد سعيد كان يرى أن ظروف العراق في هذه الأيام من أواخر الستينات لم تكن مبشّرة بالنسبة للمثقفين، وكانت قد سادت حالة من القمع بسبب الصراع الذي دب بين الرفاق في حزب البعث، ثم الصراع الذي دب بين حزب البعث وبين الفصائل والأطياف الأخرى، وخصوصًا الإسلاميين الشيعة والسنة.

ولذلك رأى الفارضي أن مستقبل ولده خارج العراق سيكون أفضل، وخاصة أن سعيد كان يُحدّث والده عن رغبته في العمل بمجال الصحافة، ومن المعلوم في هذه الآونة أن كثيرًا من الكُتّاب

الصحفيين كانوا عرضة للقمع في أكثر الدول العربية، وذلك في حالة إذا خالفوا الأنظمة الوليدة من رحم الانقلابات العسكرية التي يعضدها تأييد شعبي ثوري ذو اتجاهات اشتراكية متأثرة بالمد الشيوعي أو بالمد التقدمي.

وكان الفارضي قد ربّى ابنه على الأخلاق الإسلامية السامية المعتدلة، ولكن بالرغم من ذلك، فقد كان الابن قد ورث من أبيه الاعتزاز بالرأي والثبات على الحق أيًّا كانت التضحيات، هذا مع الاعتزاز بحسّ الوطنية العراقية والقومية العربية، كما كان لديه إيمان شديد بالمظلومية الحُسينية.

وحدث في هذه الأيام أن تهيأت كل الظروف لتدفع سعيد إلى أن يترك العراق ويشدّ رحاله ناحية فرنسا، أو كما كان يدعوها والده "بلاد الفرنجة"، ولقد سافر سعيد بالفعل ليتم دراسته للأدب الفرنسي بجامعة السوربون، ولقد كان سعيد متفوّقًا وعبقريًا، كما كان سريع البديهة، وبسبب ما كان يتمتع به من تفوق، فقد خيّرته الجامعة في بغداد أن يختار إحدى الدولتين: إنجلترا أو فرنسا لدراسة أدب إحداهما، فاختار سعيد السفر لفرنسا، لأنه كان من عشّاق الأدب الفرنسي، كما كان يعشق اللغة الفرنسية ويحب التحدث باللغة الفرنسية، وكثيرًا ما كان يقول لوالده: لو أنهم خيّروني أي

اللغات أتكلم، لاخترت اللغة العربية، ومن بعدها الفرنسية، فليست هناك لغة في العالم أجمل من هاتين اللغتين.

ولكن بعد أن حقق سعيد ما طمح إليه من دراسة الأدب الفرنسي، وجد في نفسه الرغبة أن يسافر ليعمل في الولايات المتحدة، ولكن الأقدار شاءت أن يعود مرة أخرى إلى فرنسا لتدريس الأدب الفرنسي، وفي هذه المرة التي عاد فيها سعيد إلى فرنسا، التقى بكوثر، طالبته الجميلة النجيبة، وبعد أن تم التعارف بينهما في الجامعة كالطالب وأستاذه، بدا أن الأقدار جعلته أستاذها لحكمة لا يعلمها إلا الله، ولأن الأقدار كانت تحمل لهما في جعبتها الكثير من الأحداث التي سيشتركان فيها معًا.

وكانت كوثر تلجأ إليه كلما تعرضت لمشكلة دراسية أو أُشكل عليها أمر، ولما كان الأمر يمضي على هذا المنوال، فقد كان من نتائجه أن توطّدت علاقة سعيد بكوثر، وكان سعيد وكوثر متقاربين في العمر، لذلك لم يكن عجيبًا أن يتحول الأمر من جانب سعيد لأكثر من إعجاب بهذه الأنثى المدهشة.

ولكن كوثر كانت ما تزال تعاني من جراح الماضي، وكانت لا تعرف بمن تثق وبمن لا تثق، وكان يُخشى عليها أن تستمر بالهرب فتضيع من حياتها أجمل ما يمكن أن يحدث لها ويعوضها عما عانته.

وكانت كوثر تتساءل بينها وبين نفسها عما مرت به من ظروف عاطفية بالغة السوء، وهل العيب كان فيها أم فيمن أحبوها، أم أن ما حدث لها من أحداث مأساوية كان من ترتيب الأقدار لحكمة لا يعلمها إلا الله.

ولكن كوثر أحست بصفات رجولية إنسانية وفكرية كانت لدى سعيد، ولم تكن لدى غيره ممن قابلتهم من الرجال، أمثال عبد الله وسيد علي.

اللهم إن هذه الصفات والمزايا كانت تتشابه إلى حد كبير مع ما لدى العم أمرزاق من فكر متميز ورجولة.

ولكن لماذا تظلم عبد الله لحساب سعيد؟ فهي لم ترَ شيئًا سيئًا من عبد الله، ولكن للحق فلقد كان سعيد مختلفًا حتى عن عبد الله.

وربما يكون سر اختلافهما يكمن في أنها ما إن تفكر في سعيد حتى تجده أمامها، عكس عبد الله الذي اختفى فجأة فلم تجده بجانبها، كما أن سعيد كان يهب لنجدتها ومساعدتها دائمًا في أي مشكلة تتعرض لها، كما أنه كان يفاجئها بآرائه المتحضرة التي تنصف وتحترم المرأة احترامًا كبيرًا.

إذ أنها ما زالت تذكر أن عبد الله، رغم حصوله على شهاداته من أوروبا، إلا أنه قال لها يومًا وهو يحدثها أمام والديها والعم أمرزاق:

إنه يتمنى أن يتزوج بفتاة ريفية، ليس برأسها هذه الخزعبلات الأوروبية عن ضرورة عمل المرأة وتحصيلها للعلوم المختلفة، وأن الأفضل للمرأة أن تهتم بشؤون زوجها وبيتها وشؤون أولادها، ولتدع العمل والفكر للرجل.

وتذكر أنها اختلفت معه في رأيه هذا، وأن العم أمرزاق يومئذ هو من ساندها وأقرها على رأيها.

ولكنها عندما سألت سعيد عن رأيه في هذا الأمر، أخبرها أنه لا يوافق على أن يُنظر للمرأة نظرة رجعية تحصر دورها في الزوجية والأمومة وإدارة المنزل، لأن هذه النظرة في حد ذاتها هي عدم احترام للمرأة، وعدم اكتراث بما وهبها الله من ذكاء وقدرة على التعلم.

كما أن هذه الأدوار التي يدعون أنها تكفي المرأة، هي الأدوار الطبيعية لمعظم الناس، فالرجل أيضًا له أدواره كزوج ووالد وكرب أسرة، كما أنه في معظم الأحوال يكون له الدور الأكبر في إدارة مصروفات بيته، ناهيكِ عن إدارته الاجتماعية والأخلاقية لحياته هو وزوجته وأبنائه.

أما العمل، فهو شيء آخر، فهو مهارة أو فن يمارسه الشخص حتى يحقق ذاته كفرد له أهمية إبداعية في المجتمع، أو كفرد يحسب أنه يقدم خدمة لمجتمعه تجعله قادرًا على أن يفيد المجتمع الذي يعيش فيه، وقادرًا أيضًا على تحقيق استقلاله المادي، مما يجعل

الفرد مستمتعًا بدرجة من درجات الأمان، وهو أيضًا الممارسة التي تجعل الشخص يقدم قيمًا وأفكارًا حضارية جديدة لمجتمعه، وهو لا يختلف مع قيم الزواج الناجح وحسن التربية ما دام الاعتدال عند ممارسته، وما دامت فيه الأخلاقيات والمثل.

كما أن العمل هو الذي يحدد رقميًا درجة وقيمة الفرد الاقتصادية والسياسية في مجتمعه، وهو الذي يجعل المجتمع ينظر له بالبنان فيعتزم تكريمه بصور شتى.

كما أن عمل المرأة يجعلها هي وأولادها في أمان إذا حدث أي مكروه لرب الأسرة لا قدر الله.

وأخيرًا، أقول لك يا كوثر: إن المرأة لا تقل في المواهب عن الرجل، ولا تقل عنه في بذل الجهد والذكاء، فلماذا لا ندعها تساهم بهذا الذكاء وبتلك المواهب في تقدم البلد الذي تعيش فيه، ومن ثَمَ في تقدم كل الإنسانية؟

ولماذا لا يفخر بها وطنها كما يفخر بأندادها من الرجال؟

لماذا لا ندعها تحقق طموحها، ما دام أن هذا الطموح لن يعيبها في شيء؟

هكذا كان سعيد يبهر كوثر بآرائه، وكلما مر يوم على معرفتهم ببعض أكثر، كانت كوثر تزداد إعجابًا به.

وفي أحد الأيام، قابل سعيد كوثر في الجامعة أثناء الدرس، وقبل أن يلقي المحاضرة، طلب منها أن تبقى بعد انتهاء الدرس لأمر هام يريدها فيه.

وبعد انتهاء المحاضرة، توجهت كوثر لمحادثته وكأنها تريد أن تسأله عن شيء أشكل عليها في المحاضرة، فأشار إليها بالإيجاب وأبقاها حتى انفض الطلاب من حوله، ثم قال لها:

هل تحبين أن تشربي معي القهوة؟

فقالت كوثر: ولِمَ لا؟

فابتسم سعيد وقال: شنوو؟ حينا، فأنا أريد أن أعرض عليك أمرًا هامًا.

ثم أشار لها بيده وقال: أرجو أن تتفضلي يا سيدتي.

فضحكت كوثر وقالت: أستاذي رجل قمة في التحضر والأدب.

فقال سعيد: أو تعنيها حقًا؟

فقالت كوثر: بالطبع أعنيها، فأنا لا يمكن أن أهرطق بأمر يخصك.

سعيد: إذا فأنتِ تعلمين أني لا أعتبرك تلميذتي فقط، ولكن أنظر إليك كصديقة وأكثر من أخت.

كوثر: لست تحتاج أن تتحدث عن تقديرك لي يا أستاذي، فأنا أراه وألمسه في معاملتك الفاضلة لي.

سعيد: إذا، فهيا بنا لنحتسي القهوة معًا، ولأحدثكِ عن مشروعي الجديد الذي أريدك أن تكوني أحد أعضائه البارزين.

وانطلقت كوثر مع سعيد ليعبرا الرُدهة معًا، وهما يتحدثان، حتى أصبحا أمام باب الخروج من الجامعة، ثم عبرا الشارع ليجلسا معًا بداخل أستران سان ديو، المواجه للشارع الرئيسي المؤدي للجامعة.

وكان جلوسهما من الداخل بجوار حائط زجاجي كأنه نافذة يُرى منها المارة، وكان الأستران مكونًا من كافيه يقدم المشروبات وبه مطعم أيضًا، وكانا يجلسان على كراسي خشبية محشوة ومبطنة بالجلد الأحمر، والمنضدة التي يجلسان عليها كان لونها بني محروق، ويبدو أنها كانت مصنوعة من الخشب الزان.

وما إن دخلا ونحّى كل منهما حقيبته جانبًا، حتى تقدم منهما النادل ليسألهما عما يطلبانه من طعام أو شراب، فطلب سعيد قهوته المعتادة، وطلبت كوثر قهوة بالحليب، وما إن انصرف النادل ليحضر المشروبات حتى قال سعيد:

اسمعي يا سيدتي، لقد قررت أنا ومجموعة من أصدقائي أن نستصدر جريدة، وسنسميها...

كوثر: واو! ستطلقون عليها اسمي! يا لَسعادتي بك يا أستاذي.

لا، اسمع، أنت، قهوتك على حسابي احتفالًا بتلك المناسبة السعيدة.

سعيد: دعينا لا نختلف، فلقد سبق ودعوتك، ولقد قبلتِ الدعوة، فإن كان لا بد أن نحتفل، فادعيني أنتِ في وقت آخر، ولنقل في المساء مثلًا.

كوثر: لا يا أستاذ، لن أتنازل.

سعيد: حسنًا، سأقبل عزيمتك على القهوة بشرط.

كوثر: وما هو؟

سعيد: أن تبقي ونتحدث حتى موعد الغذاء، فإذا جاء موعده قبلتِ عزيمتي لك على الغداء.

كوثر: هكذا تعمل فرقًا وتحاول أن تردها!

سعيد: ولِمَ لا تفكري أني استبقيكِ أطول وقت منك لأناقشكِ في أمور هامة تتعلق بإدارة تلك الجريدة؟

كوثر: وما هي تلك الأمور؟

وما كادت كوثر تنهي سؤالها، حتى حضر النادل وهو يحمل المشروبات، ثم وضعها أمامهما بأدب جم وحرفية كبيرة.

وعندما انصرف، قال سعيد:

أولًا، أريدكِ أن تكوني سكرتيرة مكتب مدير التحرير.

كوثر: ومن مدير التحرير هذا؟

سعيد: أنا طبعًا.

لمعت عين كوثر من الفرح، وأضاء وجهها، وقالت: هذه ثقة غالية أتشرف بها يا أستاذي.

سعيد: تعلمين أنكِ تستحقين أكثر من منصب سكرتيرة، ولكن قلت أن هذا سيبقيك معي حتى تنهي دراستك، وبعدها سيكون لنا خطة أخرى، هذا إن عشنا بإذن الله.

كوثر: أطال الله عمر أستاذي لي، ولوالديه، وتلاميذه، وقرائه.

سعيد: إيه يا كوثر، لكم يوحشني والدي.

كوثر: لماذا لا تذهب لزيارتهم؟

سعيد: سأفعل بعد حصولي على الجنسية الفرنسية في الشهر المقبل.

كوثر: أو ستحصل على الجنسية الفرنسية! هذا رائع.

سعيد: أو لم أخبركِ!

كوثر: لا، لم أعلم منك إلا الآن. حسنًا، مبارك لك يا رجل.

سعيد: بوركتِ يا سيدتي.

لم تكن كوثر لتستطيع أن ترفض عرض سعيد الفارضي المتعلق بعملها معه في الجريدة الجديدة التي أنشأها وبعض أصدقائه والتي كُلِّفَ أن يكون مدير تحريرها، وكان صديقه أحمد علي السوري رئيس تحريرها.

فلقد كانت فرصة رائعة لكوثر حتى تُخبر بأساليب الكتابة الصحفية بشكل عملي، ولكن كوثر لم يكن طموحها العمل الصحافي، ولم يكن طموحها منصبًا على الجانب الأدبي، بل كانت تريد أن تلمس مهمة الدعاية والإعلان عن قرب، وكانت تود أن تكون خبيرة في هذا المجال، وأن تشتغل فيه مستقبلاً، وأن يصبح لديها شركتها الخاصة في مجال الدعاية والإعلان.

ولكن إن رجعنا لليوم الذي عرض فيه سعيد على كوثر العمل معه، سنجد أن كوثر كانت في حيرة من أمرها، إذ أنها كانت لا تستطيع أن ترفض عرض سعيد، كما أنها كانت لا تقدر أن ترد جميل العائلة القبطية بتركها لهم، لذلك لم تجد أمامها إلا حلًّا واحدًا، وهو التوفيق بين أعمالها الثلاثة كطالبة، وجليسة أطفال، وأمينة سر لمدير تحرير جريدة الكوثر.

ولكن يبدو أنها في المدة التي مارست فيها تلك الأعمال، أصابها الإرهاق الشديد، ومن ثم فقدت بعض وزنها، ولازمها شيء من الشحوب.

لذلك نصحها سعيد بمتابعة أحد الأطباء بسبب ما تشعر به من إرهاق وضعف شديد، ولكن يبدو أن كوثر نسيت أو تناست - بسبب أنها قلقة من أن تعرض نفسها على طبيب - وذلك بسبب بعض الوساوس التي تنتاب بعض النساء، ويبدو أن كوثر كانت من ذلك النوع من النساء الذي تنتابه الوساوس من الأطباء، واللواتي لا يحببن أن يواجهن حقيقة متاعبهن الصحية.

وكانت تبرر ذلك لسعيد، فتخبره أنها من الناس الذين يتوكلون على الله في أمر شفائهم، ولا يحبون الذهاب إلى الأطباء.

ولكن سعيد قال لها في إحدى المرات:

كلنا يا كوثر نتوكل على الله، ولكننا عندما نمرض أو نشعر بالضعف الشديد نسأل الأطباء، وهذا من سنن النبيين والمرسلين جميعًا، فلا تتشاءمي من استشارة الأطباء كعادة الكثير من الشرق أوسطيين.

فقالت له كوثر: ليس تشاؤمًا، ولكنه توكل على الله، كما أني أشعر أن ما لدي لن يزيد عن كونه ضعفًا بسبب كثرة مسؤوليات العمل، ولأني أنسى وجباتي أحيانًا.

سعيد: لكن إن ذهبنا إلى الطبيب فسنطمئن أكثر على صحتك، وربما يصف لك بعض الفيتامينات التي تعوض نسيانك لبعض الوجبات بسبب استغراقكِ في العمل.

فداعبته كوثر قائلة: أتعرف أنك تذكرني بالعم أمرزاق؟

فقال سعيد: هذا خالكِ تاجر الفضة الفنان الذي حدثتني عنه من قبل، ولكن من أي ناحية؟

فنظرت إليه كوثر نظرة خاطفة، وكانت ترتب بعض الأوراق أمامها، ومن ثم رفعت نظارتها بسبابتها وقالت: دخلت عليه يومًا، فوجدته يردد بصوته موالًا مصريًّا، كان يقول:

"يا طبيب روحت لك أدور على دوا عندك، لا لقيت الدوا ولا كلامك شفاني، ولما حكت لي قصتك زدت وجعي وأحزاني".

فضحك سعيد وقال لها: جميل الموال المصري، يبدو أن عمكِ غزير الثقافة كما وصفته لي، ولكني لا أعتقد أن قائل الموال كان يقصد المرض الجسماني.

كوثر: وماذا كان يقصد برأيك؟

سعيد: يقصد سقم الروح من جراء الأحزان، أو العشق الذي ليس فيه أمل اجتماع العاشقين.

كوثر: ربما، وربما.

سعيد: كوثر، ألم يبلغكِ أمر هذا المؤمن الذي عاش في كل زمان ومكان؟ عاش لدى الفراعنة، والآشوريين، والإغريق، والرومان، والفينيقيين، كما عاش لدى الفرس، ولدى الأقباط، واليهود، والمسلمين، ولدى الهندوس، والسيخ، والبوذيين، كما عاش في نوميديا وقرطاجنة.

هذا المؤمن يا كوثر كان موجودًا في كل زمان ومكان وفي كل حضارة.

كوثر: أول مرة أسمع عنه، ماذا عن أمره؟

سعيد: كل ما كان من أمر هذا الإنسان أنه شعر بألم مبرح وإعياء شديد في يوم من الأيام، فذهب يسأل رجل الدين عن ما ألم به من مرض لعله يصف له رقية أو عشبًا يساعده على الشفاء.

فقال له رجل الدين: يا صديقي، أخشى أنك لا بد وأن تعرض نفسك على طبيب ليصف لك دواء يعالج آلامك.

فقال له الرجل: ألا تدعو لي؟

فقال له رجل الدين: أدعو لك على شرط أن تذهب للطبيب، لأن هذا واجبك نحو نفسك، وسوف تُحاسب على نفسك أمام الإله الحق.

فلما عرض الرجل نفسه على الطبيب، أخبره الطبيب أنه يعاني من مرض عضال، وأخبره بضرورة الالتزام بمواعيد دوائه، وأن لا يتناول طعامًا يزيد من حالته سوءًا.

فالتزم الرجل بكل ذلك، ولكنه لم يشفَ، فسأل الطبيب عن ذلك، فلم يُعطه إجابة مقنعة، فذهب لمعبده حيث رجل الدين، وبادر رجل الدين قائلًا:

لقد فعلت مثلما أخبرتني يا سيد، وعرضت نفسي على طبيب، وما زلت أحتسي أدوية الطبيب وأسفها، كما أني ألتزم بنصائحه، ولكني لم أشفَ حتى الآن، فهل لديك ما تخبرني حتى يتم شفائي، أم أنني لن أشفى أبدًا، ولا بد لهذا المرض العضال بأن يكون قاتلي؟

فنظر الشيخ الطيب إليه بمحبة، وقال له:

منذ بداية الأمر، لم يكن عليك متابعة الطبيب فقط، بل كان عليك حسن الظن بالإله الشافي، فإن تحسن الظن بربك، فهذا ثلاثة أرباع الشفاء.

ثم كان عليك بعد ذلك التفاؤل وطرد المخاوف من نفسك، فإن أديت الثلاث، أضمن لك الشفاء بإذن الله تعالى.

فقال الرجل المريض: وأحتاج أيضًا لرجل صالح وحكيم مثلك حتى يدعو لي، وأحتاج لعمل صالح يقربني من إنعام ربي.

فقال الشيخ الحكيم: سأدعو لك، وإن كنت لا أرى نفسي صالحًا، لذلك سأطلب ممن أظنهم صالحين أن يدعوا لك بالشفاء، وعليك أنت بما قلته لك، وما ألزمت به نفسك.

وما هي إلا أسابيع قليلة مضت بعد حديث الرجلين، إلا وتم شفاء الرجل.

وبمجرد أن أنهى سعيد كلامه، حتى وجَد كوثر تضحك وتسأله: ماذا تقصد؟ ما هي النقطة؟

فضحك سعيد أيضًا، وقال لها: أقصد أن الإنسان لكي يعيش سعيدًا، يجب أن يلتزم بخطي العلم والإيمان، وأن من يظن أن هناك تعارضًا بينهما، هو للأسف شخص يستحق الشفقة عليه، لأنه لا تعارض بين العلم والدين في حقيقة أمرهما، وإن وجد تعارض، فإن هذا التعارض ينسجه الإنسان من خيوط أوهامه...

والآن أريد أن أطلب منكِ أمرًا يتعلق بالعمل، ولا تقولي لي إنه لا يتعلق بالعمل، لأني أؤمن أن أمر مرضكِ يتعلق بالعمل.

كوثر، وهي مبتسمة: كيف؟ أخبرني... بالله.

سعيد: أولًا، عليكِ أن تعلمي أن مرضكِ يؤثر على مزاج صاحب العمل، فيجعله قلقًا جدًّا عليكِ، مما قد يُخفض إنتاجه أو يجعل

إنتاجه رديئًا، لأنه يتعاطف معك كصديق قبل كونه معلّمِك أو رئيسِك.

كوثر، بدلعٍ طفولي: وثانيًا..

سعيد، وكأنه قد شعر بما ترمي إليه: لا شيء، لقد لخّصتُ كل شيء في أولًا.

كوثر: حسنًا، كما تريد.

سعيد: لنجعل ثانيًا أن أخبركِ أني حجزت لكِ في عيادة طبيبة أثق فيها، وموعد الحجز بعد ساعتين. فأنجزي أعمالك، ثم تعالي نذهب إليها.

كوثر: ولكن اسمع...

سعيد: ولا كلمة، أعرف ما ستقولين. لقد اتصلت بمدام أنطون وأخبرتها بأمر الحجز لدى الطبيبة، ورحّبت بذلك، ومنحتكِ إذنًا أن تتغيّبي لمدة ساعتين عن موعدِك لديها، وستَهتمّ هي بأمر الأطفال في المساء.

كوثر: أنت مشكلة، لقد تحدثت إليها دون أن تخبرني!

سعيد: لم أفعل ذلك إلا بعد أن أصبح أمر ضعفِك ونزول وزنِك يثيران قلقي، كما أني أخبرتِك أكثر من مرة، ولكنك في كل مرة كنتِ

تعديني أن تخبري ربة المنزل أنك بحاجة لإجازة حتى تزوري الطبيب، ولكنك كنت لا تفعلين شيئًا، حتى استبدّ بنا القلق جميعًا عليك.

وحاولت كوثر أن تنطق، ولكن سعيد قاطعها قائلًا: ولعلمك، أنا لم أتصل بربة عملك، ولكنها هي من اتصلت عليّ وأخبرتني بقلقها على صحتك، فاقترحتُ عليها أن يمنحك كلٌّ منا إجازة ولو لساعات قليلة حتى تذهبي إلى الطبيب، ثم طلبتُ منها أن تترك أمرك لي، وأني سأحجز لك عند طبيب أثق فيه. ولذلك فقد حجزتُ لك عند نورمينا، فهي طبيبة ماهرة جدًّا، كما أنها أنثى مثلك، لأني أعلم كم أنتِ خجولة، وقد يمنعك ذلك من التحدث إلى طبيب رجل. وهي أيضًا تشبهك من ناحية أنها صاحبة مشاغل كثيرة، فهي تقضي وقتها ما بين المشفى التي تعمل فيها وبين عيادتها الخاصة، وتؤثر خدمة الآخرين على نفسها.

وهكذا أقنع سعيد كوثر بالذهاب إلى الطبيبة، وبعد مرور ساعة من حديثهما، كلّمها على الهاتف من مكتبه، فظنّت أنه يريد شيئًا، فأخبرها أن تستعد حتى ينزلا معًا إلى الطبيبة. وكانت كوثر لا تريد أن تُتعبه معها، فقالت له: يمكن أن تبقى، وأن تعطيني العنوان حتى أذهب وحدي، فأنا لا أرغب في تعطيلك عن عملك. ولكن سعيد أصرّ، وأخبرها أنه يريد أن يستشير الطبيبة في أمر صحي يخصّه، إذ

إنه يريد أن يسألها عن فيتامين جديد نزل في السوق، وهل الطبيبة تحبّذ أن تصفه لمرتادي عيادتها، أم أنها ترى فيه أنه غير مناسب لبعض الحالات.

وبعد أن مر وقت قصير على هذا الحديث بين كوثر وسعيد، خرج سعيد من مكتبه ليمر على كوثر ويأخذها للطبيبة، وما إن وصلا إلى الطبيبة، وأعلم سعيد مساعدتها بموعد الحجز، حتى دلفت المساعدة لحجرة الكشف لتخبر الطبيبة، وإذا بها تخرج وتطلب من كوثر أن تدخل لحجرة الكشف، فأشار لها سعيد أن تدخل، وبقي هو في الخارج ينتظر انتهاء الكشف.

وفي حجرة الكشف، قامت نورمينا بعملها نحو كوثر، وسألتها عن أشياء تخص النساء، فاطمأنت بذلك على صحتها، ولكنها طلبت منها بعض التحاليل حتى تطمئن أكثر، وأخبرتها أن تطمئن، إذ يبدو أن لديها بعض الضعف، ولذلك وصفت لها بعض الفيتامينات. وأثناء الخوض في الكلام، سألت نورمينا كوثر عن اسمها، فأخبرتها بأنه كوثر، وبأنها أمازيغية من الجزائر، وما إن سمعت نورمينا الاسم والجنسية التي نطقت بهما كوثر، حتى شردت قليلًا، ولكنها نبّهت نفسها بسرعة حتى لا تلاحظ كوثر، وبحركة سريعة رفعت سماعة هاتف المكتب وطلبت من مساعدتها أن تُدخل الدكتور سعيد.

دخل سعيد متلهفًا ليعلم حالة كوثر، ولكن الطبيبة نورمينا طمأنته، وأخبرته أنها وصفت لها بعض الفيتامينات، كما أنها تود لو أجرت بعض التحاليل حتى تعرف الفيتامين المناسب لها، حيث إن تشخيصها لحالة كوثر لن يخرج عن نقص بعض الفيتامينات في جسمها. ثم سألها سعيد عن المكمل الغذائي الجديد الذي يريد أن يشتريه، فأخبرته نورمينا أنه من الأنواع الممتازة التي نزلت السوق مؤخرًا، ولكن حالة سعيد لا يناسبها هذا الفيتامين، لأن سعيد لديه ارتفاع في الضغط، وهذا النوع من المنتجات يسبب ارتفاعًا شديدًا في الضغط لدى مرضى الضغط.

وبعد خروج كلٍّ من سعيد وكوثر من عند الطبيبة، لاحظ سعيد عدم ارتياح كوثر، فسألها سعيد عن شعورها حيال الطبيبة نورمينا، فأجابته أنها إنسانة جميلة ولطيفة. فصارحها سعيد قائلًا: ولكن لماذا أشعر أنك لم ترتاحي لمقابلتها، وأنك شردت بعض الوقت بعد أن خرجنا من عندها؟

كوثر: أصدقك القول، إنه فقط حدث شيء منها لم أستطع تفسيره، وذلك أنها سألتني عن اسمي، وهل أنا من بلدك العراق؟

سعيد: وماذا في ذلك؟

كوثر: نعم، لذلك أجبتها باسمي وجنسيتي، ولكنها شردت فجأة، ثم حاولت أن تخفي شرودها، وحتى بعد أن دخلت أنت، كنت ألمح في عينيها وكأنها تريد أن تسألني عن أمر ما، لا أعلم، وكأنها تخفي أمرًا ما ذكرها به اسمي وجنسيتي.

سعيد: من يدري، لعلها أغرمت في الماضي بشاب جزائري اسمه كوثر!

فضحكت كوثر، وردت عليه كمن تلقفت منه كوثر الخيط، وقالت: إن تدّعِ، فلا تدّعِ اسمًا لن يرضى ذكر عربي أن يكون لصاحبه سميًّا بعدما تسبب فيما تسبب فيه من خلاف، وإن جهلَ المسمّى تاريخ الأمين، فلن يجهل أن الكوثر عذب اللما، ونكرته لا تصلح إلا علمًا مؤنثًا.

فضحك سعيد، وقال: عهدتكِ يا طفلتي ذكية دائمًا، ولكن هذه أول مرة تعرّفيني فيها بقرينتكِ اللغوية المؤرخة.

وبعد ذلك قام سعيد بتوصيل كوثر، وألحّ عليها إلحاحًا شديدًا لإجراء التحاليل، وعندما وصلت كوثر طمأنت عائلة أنطون على صحتها، فقد كانوا قلقين جدًّا عليها، وبعد حديث قصير مع صديقتها، طلبت منها أن تستريح، وأن تذهب لتخلد للفراش مبكرًا، ثم عليها في الصباح أن تُجري التحاليل، ولا تتقاعس أبدًا عن إجراء

تلك التحاليل. ووافقت كوثر كلام صديقتها، لأنها شعرت بمدى قلقها عليها، ويبدو وكأن الجميع كان قلقًا عليها وهي لا تشعر، وبالفعل دلفت كوثر إلى حجرتها المعدة لها في قصر الأقباط.

وفي الصباح، خرجت لتذهب للجامعة، ثم لتجري التحاليل المطلوبة منها، وعندما ذهبت للجامعة، وجدت أن سعيد كان قد دخل إلى مدير الجامعة وطلب منه بصورة غير رسمية أن يسمح لكوثر أن تتغيّب في هذا اليوم حتى تُجري التحاليل المطلوبة منها، ولكن المدير، كعادة الأوروبيين، أبلغه أن الأمر ليس بيده، ولكنه يرجع للمدرسين الذين تحضر عندهم الدروس، وهو منهم، فإن قبلوا بتغيّبها عن محاضرتهم اليوم، عندئذ لن تكون هناك مشكلة.

وبمجرد أن أخبر مسيو نيمو سعيد بما يجب أن تفعل كوثر، حتى تركه سعيد وذهب إلى مكاتب المدرسين، واحدًا تلو الآخر، ليطلب منهم الإذن بتغيّب كوثر، بسبب أنها مريضة، وبصدد إجراء بعض التحاليل، وكان سعيد يعلم أن كوثر لو تغيّبت، فذلك لن يؤثر عليها، وتستطيع بعد ذلك أن تقول إنها كانت مريضة، ولكنه أحب أن تبقى صورتها في نظر أساتذتها، كما عهدوها دائمًا، ملتزمة، وخلوقة، ونشيطة، كما أنه كان يعلم أن كوثر لن توافق على الغياب عن دروسها إلا إذا أذن لها مدرسوها.

لذلك قال لها سعيد بمجرد حضورها: لقد استأذنت من جميع الدكاترة اليوم لكي لا تحضري محاضراتهم، كما أني استقصيت في البلدة حتى وجدت مركز تحاليل محترم، وها هو عنوانه، وعليك أن تستديري الآن وتذهبي لإجراء تلك التحاليل.

فردّت عليه كوثر، قائلة: أنا شاكرة لك كل ما فعلته، وأُقدّر أنك ترهق نفسك لأجلي دائمًا.

ويبدو أن كلامها الرقيق أحرج الرجل، بدون أن تقصد، أو أن سعيد كان خجولًا يشعر بالإحراج إن أثنى عليه أحد، ولكن كوثر ليست أي أحد بالنسبة لسعيد، إنها الآن يعتبرها أجمل وأفضل ما حدث في حياته، لذلك كان وجه سعيد مصطبغًا بالحمرة، وهو يقول لكوثر: ولا يهمك، فتعبي من أجلِك هو كل الراحة بالنسبة لي.

ويبدو أن كوثر شعرت لوهلة بما يكنّه لها سعيد من مشاعر، فخجلت، واستدارت، وهي تنظر إلى الأرض، لتدلف مسرعة من باب الخروج، حتى إنها عندما استلمت الشارع لم تكن تدري كيف خرجت، لدرجة أنها أحسّت بدوار في أول الأمر، ثم سرعان ما استعادت نفسها، وأشارت لتاكسي حتى يوصلها للعنوان المطلوب.

وعندما وصلت كوثر إلى مركز التحاليل، استفسرت من عاملة الاستقبال عن ما تود أن تُجريه من تحاليل وفحوصات، فأرشدتها

العاملة إلى كل ما تريد معرفته، وأرشدتها للطبيب المختص. ثم قامت كوثر بإجراء كل التحاليل والفحوصات التي طلبتها منها د. نورمينا، وعلمت كوثر بعد ذلك من أطباء التحليل أن النتائج مطمئنة، وأنه ليس في التحاليل والفحوصات أي شيء يقلق، اللهم إلا أن التحاليل بيّنت أن كوثر تعاني من الضعف بسبب نوع حميد من الأنيميا، والذي يسهل معالجته بواسطة بعض الفيتامينات التي يصفها طبيب باطني مختص.

الجزء الثاني

لم يُخلق الحب يومًا للجبناء، الحبُّ للشجعان فقط، فإما أن تحبّ كلك، أو تنسحب كلك.

استيقظ عبد الله باكرًا، سحب نفسه من الفراش بنشاط ليطلّ من النافذة، حاول أن يفتح الشباك قليلًا لتصيبه تلك النسمة الصباحية الهائلة. لأول مرة يحسّ بتلك الطاقة العجيبة تدبّ في جسده بعد غيبوبة طويلة ووهن في الجسم والعظم، فسبحان مغير الأحوال من حال إلى حال.

نظر عبد الله إلى السماء، ولأول مرة يحسّ بتلك الانقباضة في صدره حول موضوع كوثر، ثم أخذ يتساءل: أتراها وجدت شخصًا آخر ومسحتني من قلبها وذاكرتها؟ وأنا الغائب الذي قيده الدهر، فلم يترك له حوًلا ولا قوة! ألا ليتني أستطيع أن أبعث لها رسولًا بشوقي، لكنني لا أملك إلا رسول قلبي في محاولة للتخاطر مع الحبيبة، إن كان لا يزال هناك بعضٌ من تلك المشاعر الجميلة.

فجأة، دخلت الممرضة كعادتها لتطمئن على عبد الله، فأصابتها الدهشة عندما رأته وهو عائد إلى الحياة من جديد، ثم توقفت هنيهة لتتأمل ذلك المنظر الذي يبعث على الفرحة والسرور. كانت في قمة السعادة وهي ترى ذلك الجسم المنهك المتهالك تدبّ فيه

الروح من جديد، ثم قالت له: بونجور، وهي تحدّق إليه بعينيها الزرقاوين السماويتين اللتين تشبهان في اضطرابهما أمواج البحر.

ردّ عليها عبد الله التحية، فقالت له: أرى مريضنا اليوم قد طاب وهو في قمة الحيوية والنشاط! فأجابها عبد الله: نعم، إنها بشائر الشفاء، وهذا بفضلكم.

فابتسمت، وقالت له: بل بفضل إرادتك القوية وإصرارك على الشفاء.

ثم طلب منها أن تستدعي له الدكتورة نورمينا لكي تقرر في أمر خروجه، فلبّت له الرغبة فورًا.

سرعان ما أتت نورمينا لترى عبد الله، وإذا بها تبتسم ابتسامة عريضة، وقد هاجت عيناها غبطة كما تهيج أمواج البحر في يوم صيفي مشمس، تغتاله هبّات الريح، فتلقي عليه لمعة شفافة بارعة الجمال، عندما لمحته في قمة التحسن.

نظر إليها عبد الله شاكرًا لها على كل ما قدمته له، ولكامل الطاقم الطبي، ثم سألها إذا كان من الممكن أن تسمح له بالخروج، لأنه سئم من الجلوس في المستشفى، وقد اشتاق إلى لقاء الأحباب ولأن يحيا من جديد.

ابتسمت نورمينا ثانية، لكن هذه المرة ابتسامة ممزوجة بالحزن، لكنها كانت إلى الفرحة أقرب، إذ نظرت إلى مصلحة المريض، وهي

تقول في قلبها: ما أقسى أن تكون الطبيب المعالج وتكون المريض المكلوم في نفس الوقت.

قالت له بأنها سترى في الأمر، ثم سألته إذا كان يريد أن يأخذ فطوره الصباحي، فأجابها بأنهما سيأخذانه معًا، لكن في الخارج، إذا لم يكن عندها مانع، ما دام أنها قامت بالمناوبة وستنهي عملها قريبًا.

ضحكت ضحكة رنّانة، قائلة له: ألهذه الدرجة أنت متأكد؟

فتبسّم عبد الله ضاحكًا من قولها، ثم هز برأسه مؤكّدًا على كلامه، وأخبرها إذا كانت تراهن على ذلك.

فأجابته الدكتورة نورمينا بأنها قبلت الرهان، على أن يدعو الخاسر صاحبَه للعشاء في إحدى مطاعم باريس الفاخرة.

ضحك عبد الله من قولها، وقبل الاثنان أن يخوضا التحدي.

لم يكن يخطر لعبد الله يومًا بأنه سيُعجب بفتاة أوروبية لتلك الدرجة. كانت نورمينا جميلة وذكية وهادئة، مثل نسمة صباحية تنعش أعماق النفس.

فحصت نورمينا عبد الله، وبالفعل تمّت موافقتها على خروج عبد الله، على أن تراجعه بشكل دوري.

خرج عبد الله من المستشفى وهو في قمة السعادة، مشى مع نورمينا إلى مقهى روتاندا ليحتسيا معًا فنجال قهوة ويتناولا أطراف الحديث، ثم انسحب إلى البيت، وقد أعطته موعدًا

يجمعهما حول مائدة العشاء.

ذهبت نورمينا لتحضّر لذلك اللقاء الساحر مع فارس الشرق.

فهل سيلتقي الشرق بالغرب؟

رجع عبد الله إلى البيت وهو يفكر: ماذا سيفعل؟ فلأول مرة شعر بالانجذاب إلى فتاة بهذه الطريقة غير كوثر.

أتُرى لأنها ساعدته؟ أم أنها سحرته بجمالها وقوة شخصيتها وكلامها اللبق اللطيف المعسول؟

سرعان ما فكر وقدّر، ثم عاد قلبه يبحث عن الحب القديم... كوثر.

فخطر في قلبه أن يبحث عنها، ولم لا؟ لكن كيف؟

ثم قال في خلده: الذي يحب فسيصل إلى محبوبته ولو في الصين.

ثم تذكّر عبد الله أجندته القديمة، كانت مدسوسة بين ركام ثيابه التي تغيرت رائحتها مع مرور الوقت.

فأخذ يقلبها قطعة قطعة، حتى وجدها مغموسة بين الثياب، أخرجها عبد الله بسرعة، وأخذ يقلبها حتى وصل إلى رقم أمرزاق،

فرَنّ عليه، وقلبه يخفق كعدّاء يجري بسرعة شديدة، بسبب اختلاط مشاعر القلق والشوق.

ردّ عليه الخادم مصطفى، سلّم عليه وسأله عن السي أمرزاق، فأخبره بأنه لا يزال مقيمًا مع أبنائه في الخليج، فطلب منه أن يعطيه رقمه الجديد. فسأله: من يكون؟

وعندما أخبره بأنه عبد الله، اندهش لفترة وهو يمسك السماعة، ثم قال: عبد الله بن عمر؟ يا إلهي، الحمد لله، أنت بخير؟ احلف بأنك أنت! كم كان الشيخ قلقًا عليك!

سأله إذا كان يملك شيئًا يكتب عليه الرقم، ثم أعطاه إياه.

أغلق عبد الله السماعة، معاودًا الاتصال بالرقم الخليجي، لكن المفاجأة هي أنه هذه المرة قد ردّ عليه الرجل العجوز، فقال: مرحبًا، من معي؟

فقال له: معك عبد الله بن عمر، أنت بخير يا عم؟

لم يكد الرجل أن يصدّق ما تسمعه أذناه، وظن بأنه يهذي، ولما تأكد أنه عبد الله، هلّل الله وكبّره، ثم ذرفت عيناه بالدموع من شدة الفرحة.

لم يتحدثا كثيرًا، بحكم كونها مكالمة دولية، سأله عن أحواله، ثم طلب منه أخبار كوثر، فأخبره أن آخر مرة اتصلت به فيها، كانت

طالبة في جامعة السوربون قسم التاريخ والآداب بعد انفصالها عن زوجها.

فكان وقع تلك الكلمة على عبد الله كالزلزال: وهل تزوجت كوثر؟ ثم من هذا الغبي الذي يطلق مثلها؟

فأجابه أمرزاق: نعم، بإصرار من عائلتها، لكنها عاشت الأمرّين، وهي الآن حرة.

فصل عبد الله السماعة وهو يحمد الله أنه على الأقل وجد من أخبارها، رغم زعله الشديد على أنها ذهبت لغيره بعد غيابه، لكنه حاول أن يقدّر الظروف.

وهو في شجن، وإذا بنورمينا، الحب الجديد، يتصل به بعد دقائق لتذكّره بموعده معها في المستشفى.

جهّز عبد الله نفسه، ثم انطلق إلى الموعد المحدد.

في المستشفى، كانت كوثر تنتظر دورها بسأم في قاعة الانتظار، يبدو أنها لم تكن مرتاحة لكلام الدكتورة نورمينا آخر مرة، بسبب كثرة الأسئلة التي أشعرتها أنها في تحقيق.

فحصت الدكتورة كوثر، ثم طمأنتها بأن حالتها في تحسّن أكثر من المرة السابقة، وبأنه عليها أن تواصل في أخذ المكملات الغذائية، وأن تحافظ على نظام غذائي متوازن حتى تأتيها بوادر الشفاء.

شكرت كوثر نورمينا، ثم همّت خارجة من القاعة، وعندما وصلت إلى باب المستشفى، تذكرت بأنها لم تُرِ للطبيبة ورقة التحاليل الطبية الخاصة بها، فرجعت ثانية إلى القاعة، وإذا بعينها تقع على عبد الله، ينتظر دوره كذلك في قاعة الانتظار.

يا للصدمة! وكأنها في حلم! عاد قلبها لينبض كأول مرة عند الشجرة، فما يسعها إلا أن تردد قول الشاعر:

"نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول.

كم منزل في الأرض يألفه الفتى

وحنينه أبدًا لأول منزل."

لم ينتبه عبد الله، إلا والدكتورة نورمينا تناديه: موسيو عبد الله.

ولكن كوثر اغتنمت الفرصة وقالت للدكتورة: عفوًا دكتورة، لكنك نسيتِ رؤية التحاليل.

فكانت الصدمة لما سمع عبد الله صوت كوثر، وكانت الصدمة الأكبر عندما استدار ليرى ذلك الوجه الملائكي.

تعانقا بالعيون، ولم يستطع أحد منهما أن ينبس ببنت شفة. دقيقة صمت رهيبة في سبيل الحب. أخبرت الدكتورة نورمينا كوثر بأن تنتظرها في القاعة حتى تجد وقتًا لرؤية التحاليل، لكن كوثر واصلت

الدهشة ولم تستوعب الكلام. وأخذت تتخيل نفسها تحتضن عبد الله بقوة وهي تبكي من الفرحة، ثم صحت على صوت عبد الله: يا إلهي! كوثر، هذه حقًّا أنتِ؟

لم يسع نورمينا إلا أن تترك مساحة من الخصوصية لهما، وإن كانت قد اضطرمت في قلبها نيران الغيرة، وكانت تحاول أن تحلل الموقف في عقلها لتستوعب ما هي طبيعة اللقاء بينهما، وهل ما زال كل منهما، العشيقين، يعشق الآخر؟ لكن كل ما في الأمر أنهما التقيا فعلاً، وكان ذلك في المستشفى.

ثم تذكر كلٌّ منهما، وعادت عقلية الشرق من جديد. احمر وجه كوثر خجلًا، وقالت لعبد الله: اعذرني، لكنني كنت تحت وقعة الصدمة، لذلك لم أكن أستطيع أن أنطق. الحمد لله على سلامتك، لم أتخيل في حياتي بأن يُكتب لنا هذا اللقاء في مثل هذا المكان.

ثم بادرت نورمينا قائلة بأن عبد الله يجب أن يدخل إلى قاعة العلاج، لأن هناك مريضًا ينتظر بعده.

فأجاب عبد الله نورمينا بأنه قادم فورًا، وأخبر كوثر بأنهما سيواصلان الحديث بعد انتهائه من الفحص. كانت نورمينا تحاول أن تخفي شرارة الغيرة في عينيها العسليتين الدافئتين، وهي ترسم ابتسامة مصطنعة. حاول عبد الله أن يشرح لنورمينا موقفه، وبأنه

تحت الصدمة، وأن كوثر عزيزة عليه، وبأنها جارته وابنة صديقه. لكن نورمينا قاطعته بقولها:

أفهم، لست مضطرًّا لأن تشرح لي كل ذلك. يا إلهي، عجيب كيف تحدث الأمور في هذا الكون عشوائيًّا، بدون أن يخطط لها الإنسان.

فأجابها عبد الله، جواب المؤمن:

نعم، بالفعل إنه المكتوب. ربي هو الذي كتب لنا هذا اللقاء، وبالذات في هذا المكان، منذ أكثر من خمسين ألف سنة، قبل أن يُخلق السماوات والأرض.

ربما لم يكن حبًّا، ربما كانت لمسة بريئة صادقة من الحنين والشوق، مشاعر فياضة مندفعة لا يتحكم فيها جدول أو مسار.

انتهت نورمينا من الفحص، ثم ذكرها عبد الله بموعد عشائهما في المساء. خرجت نورمينا لتخبر كوثر بأن التحاليل سليمة، وليس فيها شيء. همت كوثر بالذهاب، لكن عبد الله بادرها بالسؤال عن والدها أمزيان، فأخبرته بأنه بخير، وبأنها لم تره لأكثر من سنة، ثم طلب منها رقمها ليتواصل معها فيما بعد بحجة السؤال عن العم أمزيان وبعض أفراد القرية، إذا لم يكن عندها مانع في ذلك، فهزت كوثر رأسها بالموافقة على طلبه.

ذهبت كوثر إلى البيت، ولكنها بقيت شاردة الذهن طوال الطريق، تصطدم بمن حولها عندما كانت تمشي. لا شيء يشغلها سوى عبد

الله والحديث الذي دار بينهما، وكانت تفكر إذا كان سيتصل بها أم لا.

وعندما ذهبت إلى البيت، تلقت اتصالًا من سعيد ليطمئن عليها، ويدعوها خارج البيت مساءً، لكي يحدثها عن يومها كيف كان، ولكي يتناقشا حول إصدار المجلة الجديدة.

التقت كوثر بسعيد، ثم دعاها إلى مطعم أوبيرا. وبينما هما جالسان يتناولان أطراف الحديث، إذا بها تتفاجأ بدخول عبد الله إلى المطعم مع نورمينا! لم تكن كوثر تتوقع ذلك أبدًا. ماذا تفعل نورمينا مع عبد الله في المطعم؟ أصاب كوثر الدهشة. تقدم كل من عبد الله ونورمينا نحو الطاولة التي وجههما إليها النادل، وإذا بها الطاولة المجاورة لكوثر وسعيد. فلم يكن بوسعها إلا مراقبة ما يحدث في صمت مطبق، أما سعيد فقد بادر للسلام على نورمينا وهو في منتهى السرور والبشاشة، قائلًا لها:

ما هذه الصدفة الرائعة! وأخيرًا قررت دكتورتنا الجميلة الخروج من جدولها المغلق، لترتاح قليلًا من عبء عملها المجهد.

صافحت الدكتورة نورمينا سعيد، ثم قدمت له عبد الله، قائلة له:

عبد الله، أحد المرضى الذين أتابع علاجهم.

ثم التفتت إلى كوثر مبتسمة، فقالت لها:

أظنكما تعرفان بعضكما مسبقًا، فلا داعي لأن أعرّفكما ثانية.

ولكن كوثر اكتفت بالصمت، رغم أن نار الغيرة كانت تشتعل في صدرها لتعرف طبيعة العلاقة بين نورمينا وعبد الله، وقد كانت حائرة في مشاعرها بين سعيد، الشاب الكامل في عين عقلها، صاحب الفكر الراقي والعقل المنير، والذي يدعمهما نحو الأمام، ويدعم تحرر المرأة، مما جعلها تعجب به بشدة، وهو بالفعل الشاب الذي كانت لا ترى وجوده إلا في أحلامها،

وبين عبد الله، الحب البريء الذي دخل قلبها دون أن تعمل أي حساب، وبدون سابق إنذار أو استئذان.

وكانت تتساءل: لمَ يحصل معها كل هذا؟ ولماذا ظهر عبد الله في طريقها في هذا الوقت بالذات؟ فهل يمكن أن تكون لعبة القدر؟ أم أنه امتحان لقلبها، ومدى صدقها، وقوة بصيرتها في اتخاذ القرارات؟

احمر وجه عبد الله وهو يُلقي التحية على كوثر، لم تكن النار التي تضطرم داخله أقل من نار كوثر، إنما كانت أضعافًا مضاعفة، ليعرف طبيعة العلاقة التي تجمعها مع سعيد. ردت كوثر التحية، وفضّلت أن لا تكشف طبيعة العلاقة بينها وبين سعيد، دام أن عبد الله لم يشرح لها سبب تواجده مع نورمينا. ثم جلس كل من الفريقين على طاولته، لكن عين عبد الله لم تتوقف عن اختلاس النظرات إلى كوثر بين الفينة والأخرى. وبدأت نورمينا تلاحظ ذلك، مما جعلها

تتضايق، لكنها لم تفصح لعبد الله عن شعورها بالضيق، وفضّلت الصمت.

أكمل سعيد حديثه مع كوثر، تناقشا حول غلاف المجلة الجديدة، والعناوين، وتاريخ الصدور، والمواضيع التي سيتطرقون إليها. بينما حاولت نورمينا أن تشغل فكر عبد الله بأسئلتها حوله، وحول مشاريعه المستقبلية، لكي تستطيع أن تتقرب منه أكثر. وكان عبد الله يرد عليها بشغف ولهفة، وكانت كوثر ترميهم بطرفها بين الحين وأختها، وقد لاحظت كوثر بأنهما يتجاذبان معًا أطراف حديث يطول. فاستنتجت بذكائها أن طبيعة العلاقة أعمق من أن تكون بين دكتورة وأحد مرضاها.

احتجت كوثر بأنها تشعر بصداع في رأسها، لكي تستطيع أن تتفلت من السهرة سريعًا، ثم استأذنت، فرافقها سعيد. ثم سألها إذا كانت تريد أن يوصلها إلى البيت، لكنها أخبرته بأن البيت قريب، وبأنها تستطيع الرجوع بنفسها. لكن سعيد أصر على أن يرافقها، لأنه يعتبرها أميرته المدللة. ألقى سعيد التحية، قائلًا: سلامات.

ثم ذهب مع كوثر، ونظرات عبد الله تتبعهما حتى اختفيا عن الأنظار. فعلّقت نورمينا: أظن أن صديقي سعيد بدأ يقع في الحب.

فتقلب وجه عبد الله، وأجابها:

وما أدراكِ بطبيعة العلاقة بينهما؟

فهمت نورمينا فورًا انزعاج عبد الله، ثم قالت له: لا أعرف شيئًا، لكنني أحسست بشدة اهتمام سعيد بكوثر، وهو زميلي منذ أوقات الدراسة، ولم أره مع فتاة أبدًا طوال أيام الجامعة، لذلك كم ولا زلت أتمنى أن يجد الحب والهناء والسعادة.

حاول عبد الله أن يخفي جرعة غضبه وغيرته على كوثر، وذلك عن طريق سؤاله لنورمينا: وما هي وظيفة سعيد الحالية؟ هل يشتغل في قطاع الصحة مثلها؟

فأجابته نورمينا: لا، فسعيد شخص منفتح الفكر جدًا، دخل كلية الطب سنتين، ثم تركها ليحقق حلمه ويلتحق بكلية الآداب، فهو حامل لشهادتي الدكتوراه في الأدب العربي وفي الأدب الفرنسي من جامعة السوربون، وهو يشتغل فيها الآن بمنصب أستاذ محاضر منذ أكثر من خمس سنوات.

هز عبد الله رأسه موافقًا لكلام نورمينا، ثم بادر إلى ذهنه: الآن فهمت كيف التقت كوثر بسعيد.

ثم قال لها: تعرفين أنني قبل مرضي كنت أعد رسالة دكتوراه في هذه الجامعة؟

فأجابته نورمينا: حقًا؟ آه، لقد أخبرني والدك، أتذكر، وماذا كان موضوعك؟

فأجابها عبد الله: حول تاريخ الأمازيغ، وأن أصل الشعوب كلها واحد.

فهزت نورمينا برأسها، ثم قالت: آه، حقًا مذهل! أظن بأنه قد حان الوقت لتواصل موضوع بحثك، أعطني إشارة إذا احتجت إلى أية مساعدة من سعيد، فهو شخص خدوم ولطيف جدًا، ولديه معارف كثر في هذا المجال.

هز عبد الله برأسه موافقًا، ثم غاص كل من عبد الله ونورمينا في حديث طويل، وكانت نورمينا تحدثه عن أدب سيمون دي بوفوار وعن النسوية، وهو يوافق على كل ما تقول، مبدياً لها القبول، فالأمر مختلف تمامًا لما تتحدث نورمينا الأوروبية حول هذا الموضوع، وهو الذي كان يعارض من قبل كثيرًا من أفكار كوثر وأفكار المجتمع الغربي عندما كان في الجزائر، حتى مع كوثر، وكان لا يعترف سوى بحق المرأة في التعليم عندما كان يسمع شعارات النسوية تُرفع من قبل بعض الناشطات الحقوقيات.

وكان ينساب معها في حديث شيق حتى تذكر بأنه يجب أن يعود إلى المنزل، لأن لديه الكثير من المهام التي يجب عليه أن يقوم بها في الغد.

فشكر كل منهما الآخر على السهرة الممتعة وعلى حديثه الشيق، ثم هما بالخروج بعد أن دفعت نورمينا فاتورة المطعم بناء على أنها خسرت الرهان.

انصرف عبد الله إلى البيت، وقد أثقل التفكير رأسه طوال الليل بين مسألة كوثر، ولطف نورمينا الشديد الزائد نحوه، وتصريحاتها له بالإعجاب والانبهار.

بالنسبة لكوثر، فقد حدث معها نفس الشيء، ولما التقت سعيد، سألها لماذا يبدو على ملامحها الشحوب، فقد كانت بخير في آخر لقاء رآها فيه، وأصبحت تتحسن عند أخذها للفيتامينات ومتابعة علاجها عند نورمينا، فأخبرته بأنه ربما نقص النوم بسبب صداع البارحة.

لم ينتبه سعيد كثيرًا لموضوع عبد الله، لأنه لم يأتِ في ذهنه شيء، فقد بدت الأمور بشكل طبيعي، خاصة أنه وجده مع نورمينا، ولأن كوثر لم يسبق لها أن حدثته عنه، فهو لا يعرف إلا قصة سيد علي.

مرت الأيام، وتم إصدار أول أعداد المجلة، والأمور تسير بشكل طبيعي، وكانت كوثر مشغولة ومندمجة جدًا في العمل كسكرتيرة في المجلة، وكانت نورمينا تواصل معالجة عبد الله وتحاول أن تتقرب منه أكثر فأكثر، حتى أتى اليوم الذي رن فيه هاتف كوثر وهي في البيت، وكانت المفاجأة.

رفعت كوثر السماعة، فقال لها عبد الله: ألو.

أجابت كوثر بصوت طفولي ناعم: ألو، نعم، من معي؟

فأجابها بأنه عبد الله، وأنه اتصل ليهنئها بإصدار أول مجلة باسمها، ولكي يسأل عن أخبارها وعن أخبار والدها أمزيان، ثم دعاها ليحتسيا فنجال قهوة معًا احتفالًا بنجاحها.

فرحت كوثر جدًا باتصال عبد الله، لكنها ترددت كثيرًا في قبول عزومته، ثم رضخت له بعد أن رأت شدة إصراره على مقابلتها، وأخبرته بأنها ستعاود الاتصال به للتأكيد على الموعد، لكنها تفضل أن تؤجل لقاءهما إلى آخر الأسبوع إذا لم يكن عنده مانع.

فصلت كوثر السماعة، فجاءها اتصال من سعيد، فقد اتصل بها ليخبرها بأن هناك لقاءً أدبيًا سيقام على شرف الجامعة للاحتفال بصدور المجلة، فطلب منها أن تجهز نفسها جيدًا وتلبس ملابس جميلة، مع العلم أنه لم يكن يشك في أناقة وجمال ذوق كوثر الفريد، غير أنه فضل أن يخبرها لكي تعمل حسابها ولا تأتي بملابسها العملية التي تأتي بها لأجل الدراسة.

جهزت كوثر نفسها، لبست كوثر فستانها الكرزي مع حلق أبيض على شكل لآلئ، ورتبت شعرها بشكل أنيق وجميل في تسريحة شعر كلاسيكية على الطريقة الفرنسية، ثم ارتدت حقيبتها السوداء المخملية مع حذاء أسود مدبب الأمام، وانطلقت إلى وجهتها لتقابل

سعيد، تناقشت معه حول ما سيقولونه في الحفل الأدبي، ثم انطلقا معًا إلى قاعة الحفل.

وبعد انتهاء العميد من إلقاء كلمته، أتى دور سعيد لإلقاء كلمته، والتي شكر فيها الجامعة على إتاحة الفرصة للطلاب لتكون لديهم مساحتهم الإبداعية الخاصة، والتي يعبرون فيها بكل حريتهم، فيتنفسون فيها دررًا أدبية خالدة يعتزون بها ويتفاخرون.

ثم أثنى على كوثر مثال الطالبة النجيبة الموهوبة المجتهدة، وعلى كل من شارك بحرف، بفكرة، أو حتى بكلمة تحفيزية ليصل هذا المنتوج المثمر، ثم قدم كوثر لتلقي كلمتها، فتقدمت من المنصة بكل حماس.

وعند انتهائهما من الحفل، طلب سعيد من كوثر أن ترافقه إلى المطعم، وبأنه ليس لديها حق بأن ترفض، لأنه كان قد حجز لهما مسبقًا في مطعم راقٍ.

وعلى مائدة العشاء كانت المفاجأة، فقد جلس سعيد يتأمل في كوثر وكأنه يبصر لوحة فنية بارعة الجمال تداعب حس الروح، ثم قال لها مبتسمًا: عزيزتي كوثر، صحيح أننا لم نعرف بعضنا طويلاً، لكن يُقال بأننا نصادف ذلك الشخص لمرة واحدة في الحياة، فنعرف أنه الشخص المناسب مباشرة عند مقابلته، لأنه توأم القلب والروح.

ثم أمال يده في حركة خفيفة، وأخرج من جيبه علبة فيها خاتم ماسي، وفتح العلبة لكوثر، ثم قال لها: أميرة قلبي المدللة، هل تقبليني زوجًا لكِ في الحلو والمر، في السراء والضراء؟

فنظرت إليه كوثر في دهشة شديدة وهي تطالع الخاتم، وترددت كثيرًا، خاصة بعد رؤيتها لعبد الله في المستشفى، لكنها لم ترفض سعيد، خاصة بعد أن صادفت عبد الله مع نورمينا في المطعم، فربما هما يخططان معًا لمشروع مستقبلي يجمعهما إلى الأبد.

ثم فكرت، ولكن لماذا دعاها ليحتسيا معًا فنجال قهوة؟ ربما يكون ذلك ليطمئن عليها وعلى أهل القرية التي أكرمته.

أطرقت كوثر برأسها بدون أن تنبس ببنت شفة، لكن سرعان ما استدرك سعيد الأمر، فقال لها: أتركك تفكرين، لكن لا تطيلي علي.

فأجابته كوثر بأنها ممتنة جدًا للمشاعر التي يكنّها لها، وأخبرته بأنه لم ترَ عينها في الرجال قط مثله، وبأنه سيحصل على جواب منها في أقرب وقت.

ثم شكرته جدًا على العشاء، وعلى الحفلة، وعلى السهرة الممتعة.

وفي الغد، اتصل بها عبد الله ليؤكد لها عن لقائهما آخر الأسبوع في المقهى، فرح عبد الله كثيرًا بموافقة كوثر، ولكنه عندما ذهب للقاء نورمينا هذه المرة، أحدثت له بدورها مفاجأة لم تكن متوقعة أبدًا،

حيث اعترفت له بأنها تملك مشاعر اتجاهه، وبأنها تنظر إليه على أساس أنه أكثر من صديق.

اندهش عبد الله من الموقف، ولم يسعه إلا أن يخبرها بأنه يشكرها على المشاعر التي تكنّها له، وأنه رغم شدة إعجابه بها، لا يريد أن يستعجل في الحكم على نوع مشاعره اتجاهها بعد.

ففهمت نورمينا بذكائها بأنه ربما لا يزال في قلبه من آثار الحب القديم، أو بأنه لا يميز بعد إذا كان ما في قلبه لها حبًا أم إعجابًا شديدًا بها، وأيًا كان، فبالنسبة لنورمينا، الإعجاب هو أول مراحل الحب.

أتى الموعد المحدد، فاجتمع كل من عبد الله وكوثر لأول مرة خلال لقائهما في القرية.

كانت البهجة تملأ قلب عبد الله، وكان يشعر بأضعاف الانجذاب الذي أحس به أول مرة اتجاه كوثر، وكأنها زهرة ازدادت جمالًا وربيعًا أكثر من البداية في نظره.

وقابلته كوثر مرحبة به بغبطة ونفس منشرحة ونبرة صوت حنون.

طلب منها أن تخبره أين تريد أن تجلس، فأشارت إلى طاولة في أقصى أطراف القاعة، هكذا هي كوثر، متطرفة المشاعر، والأماكن، والاختيارات.

ثم غاصا في حديث عميق عن القرية، وعن العم أمرزاق، وأبوها أمزيان، ولالا تينهنان.

سألها عن كل شيء في القرية، عن كبيرها وصغيرها، ثم سألها عن حياتها، وعن خبر انفصالها، فقالت: قصة طويلة تدمي القلب، لا أريد أن أفتحها حتى لا أفسد بهجة لقائنا اليوم بجراح الماضي، وما لنا ومال الماضي، فالماضي قد مضى بحلوه ومره.

فأجابها عبد الله: أعرف، لكن أنتِ تعرفين بأنك شخص هام جدًا بالنسبة لي، وما يوجعك يوجعني، أريد أن أعرف من آذى هذا الملاك الجميل الجالس أمامي، لكنك حرة في ما إن كنت تريدين أن تحكي أحداث القصة أم لا، لكن تأكدي أنني كلي آذان صاغية.

الشيء الوحيد الذي ندمت عليه هو غيابي، الذي كان خارجًا عن إرادتي. احمر وجه كوثر خجلًا، ثم هزت رأسها، ونظرت إلى عبد الله نظرة امتنان، وابتسمت ابتسامة ملؤها القهر، كأنها كانت تلوم القدر الذي فرقها مع حبيبها، ثم قالت لعبد الله: لا ذنب لك في ذلك، إنه القدر، كل شيء بقدر. كل ما في الأمر أن الحياة والعِشرة أصبحت مستحيلة مع سيد علي، نظرًا لاختلاف عاداتنا وطبائعنا، بالإضافة إلى قيامه بأمور لا أرضاها أنا، ولا ترضاها أية امرأة لديها ذرة كرامة أو كبرياء، فلما رأيت ما رأيت، طلبت الطلاق، فرفض، فخلعت نفسي لكي أتحرر من أغلال تلك العلاقة المتعبة.

ثم حاولت تغيير الموضوع، قائلة: ماذا عنك يا عبد الله؟ أخبرني، ماذا فعلت في غيابي؟

فأجابها: كما تعلمين، كنت مريضًا في المستشفى، وحدثت في غيابي أمور عجيبة، إذ أصابني مرض ربما تعرفينه، اسمه الطيف القريني، وهذا يفسر رؤية الشخص الذي يشبهني في الطائرة.

فتحت كوثر فاهها تعجبًا مما تسمع، ثم أطرقت برأسها، قائلة: يا سبحان الله. المهم أنك عدت سالمًا غانمًا.

نظر عبد الله إلى كوثر بعمق بعد ذلك، ثم قال لها: ربما تستغربين لماذا دعوتك اليوم، ولكنني يا كوثر، أصبحت أملك الشجاعة الكافية، والنضج الكافي، لأخبرك بأنني معجب بك بشدة، بل أنا متأكد بأنني أحبك، ومنذ أول لقاء تحت الشجرة.

فكري في الموضوع، وأخبريني إذا كان لديك نفس الشعور، فأنا لا أرى مستقبلي إلا معك.

سكتت كوثر هنيهة، وهي تتأمل وجه عبد الله.

فيا لتواطؤ القدر على سعيد، فهل سينجو بكوثر أم لا؟

اندهشت كوثر من كلام عبد الله، واحمرت وجنتاها خجلًا، ثم تلعثمت، قائلة: لكنك كنت مع الدكتورة نورمينا في المطعم، ظننت بأن هناك شيئًا ما يجمعكما، أقوى من صلة طبيبة بمريض.

فأجابها عبد الله: صحيح أن نورمينا ساعدتني كثيرًا يا كوثر، لكنني أحبك أنتِ، يا أميرة قلبي الوحيدة، وقد تربعتِ عليه منذ أول مرة رأيتك فيها مع أخيك علاء.

تهلل وجه كوثر فرحة، لكنها كانت تحاول جاهدة أن تخفي فرحها.

ثم أردف عبد الله، قائلًا: لستِ مجبرة على إعطائي الجواب الآن، لديكِ حتى آخر الأسبوع، سأعاود الاتصال بك.

قالت له: هل أفهم من ذلك أنك تخطبني؟

فقال لها عبد الله: أجل يا كوثر، أرجو أن أقاسمك الحياة والحب إلى الأبد.

انسحبت كوثر خجلة، ثم ودعت عبد الله على أمل لقائه قريبًا.

ذهبت كوثر إلى البيت وهي مصدومة من الذي حصل معها، فلم تكن تدرك أن الأمور ستصل إلى هذه الدرجة؛ خاطبان ينتظران الجواب آخر الأسبوع.

فكرت كوثر كثيرًا وحارت بين حب العقل وحب القلب؛ الرجل الكامل الذي كان يعتني بها دائمًا، ويدللها ويدعمها ويريد أن يراها نجمًا يعلو في السماء بدون أي مقابل، وحبيبها الأول الذي اختفى فجأة بدون سابق إنذار ثم وجدته صدفة في مطعم مع فتاة أوروبية يصغي لها بكامل الإعجاب والاهتمام.

وفي آخر الأسبوع، رن الجرس، فتحت كوثر الباب فإذا به ساعي البريد أحضر لها باقة ورد وبطاقة، ثم طلب منها الإمضاء على التسليم، وإذا بالبطاقة مكتوب فيها:

"أفكر فيك وأسابق الزمن لتكوني لي إلى الأبد، أيتها الحب الأبدي.

لاقيني عند قوس النصر على الساعة الثانية إن كنت موافقة.

أرجوكِ، قولي نعم.

سعيد."

أغلقت كوثر الباب، وفكرت كثيرًا في الأمر ساعة كاملة بدون أن تتحرك، ثم قررت أن تخضع لسعيد، لأنه الرجل المثالي القوي الذي ترى مستقبلها ومستقبل أبنائها معه.

ثم انطلقت إلى العنوان لتصل إلى برج النصر، حيث وجدت سعيد قد أعد لها حفلة كبيرة أمام الكل يعلن فيها عن خطوبتهما.

وفي غيابها، حاول عبد الله التواصل معها كثيرًا، لكن الهاتف كان يرن بدون إجابة، وعندما عادت كوثر إلى البيت، اتصلت بعبد الله وقالت له بأنها تشكره جدًا على مشاعره الطيبة، لكنها اختارت سعيد ليكملا معًا حياتهما، لكنها ترجوه أن يبقيا صديقين للأبد، إذا كان يريد ذلك طبعًا.

تأثر عبد الله كثيرًا، لكنه شكر كوثر على جوابها الصريح، وفصل السماعة وعيناه تذرفان الدموع.

انتبَهت كوثر إلى نبرة قلبه الحزينة، كانت تتعذب أكثر منه، لكنها تظن بأنها لا تستطيع أن تخطئ هذه المرة في قرارها، فالقدر يغفر

ربما مرة واحدة، ولكنه لا يفعل ذلك اثنتين، فعليها أن تكون حاسمة في قرارها من كل النواحي، لأنها ستمضي حياتها كلها مع هذا الشخص، وربما سيكون بينهما أولاد.

كما أن المرض الذي يعاني منه عبد الله، ربما تكون نورمينا أنفع له منها من هذه الناحية.

ذهب عبد الله في حزن شديد إلى لقاء نورمينا، فماذا سيحصل بينهما؟

استقبلته نورمينا بأذرعٍ حانية، ثم تشجعت بعد أن سمعت بخطبة كوثر من سعيد، وطلبت منه الزواج بها.

فكر عبد الله مليًّا وتردد كثيرًا، ثم أجاب بالرفض، لأن الرجل إذا أحب من قلبه فلا يستطيع أن يكون إلا مع من أحب، مهما كانت الإغراءات والتوافقات.

وانتهى الأمر إلى انفصالهما والحفاظ على علاقة صداقة، بينما كوثر وسعيد سافرا ليعيشا في العراق وفتحا جامعة خاصة يعلّمان فيها التاريخ والآداب.

الفصل الأخير

كانت لالا فاطمة طاغية بمعنى الكلمة، فبعد انفصالها عن زوجها المغربي وارتباطها بزوجها الجديد، تاجر الماس، كانت تجمع المال ولا تهتم لمشاعر وسعادة أحد، حتى أبناءها الذين هم من صلبها.

وبعد أن قطع سيد علي الأمل من عودة كوثر، أدمن على المخدرات والذهاب إلى الحانات، حتى التقى بشابة فرنسية اسمها جوزيفين في حفلة ساهرة في أحد الملاهي، وقد شدّ انتباهه إليها رشاقة وجمال جسمها، وأنها كانت ترقص ببراعة وتداعب كل أنواع الموسيقى والأغاني في انسجام وتأقلم عجيب بينهما.

أقبل سيد علي على الفتاة، ثم نظر في عينيها العسليتين بعمق، وطلب منها الرقص معه.

كانا يرقصان في جو رومانسي رائع، وفي تناسق شديد تحت وقع تصفيقات المحتفلين، كما أن روح الفتاة المرِحة قد أضفى جوًّا جميلًا على كل من في الحفل.

رقص سيد علي معها حتى لاحظ تعبها، ثم طلب منها إن كانت تريد مشروبًا، فأجابته بأنها تريد كوبًا من البيرة.

ذهب سيد علي ليلبّي طلبها، فأحضر كأسين من البيرة، ثم جلسا إلى طاولة، فسألها عن اسمها، فأجابته: جوزيفين.

فعرفها بنفسه، ثم سألها ماذا تشتغل في حياتها، فأخبرته بأنها طالبة في قسم الفنون الجميلة، وبأنها تحلم بأن تصبح ممثلة بارعة مشهورة كمارلين مونرو، أيقونة الجمال الأمريكية.

فأُعجب سيد علي بها بشدة، وأصبحا يلتقيان كل يوم في السهرات، حتى توطدت علاقة وطيدة جدًا بينهما، حتى أدمن سيد علي وجودها في حياته.

وكانت جوزيفين لا تتردد في طلب الأموال والمجوهرات من سيد علي، ونظرًا لغنى عائلة سيد علي ودلال أمه الزائد له، فقد كان سيد علي لا يتردد في إغراقها بالهدايا والمجوهرات.

وكانت جوزيفين لا تريد إظهار علاقتها مع سيد علي أمام العائلة والأقارب، وكانت تتهرب كلما عرض عليها سيد علي ترسيم العلاقة، بحجة أن عائلتها يمينيون متطرفون، وبأنهم يكرهون فكرة ارتباطها برجل عربي مسلم، فأبوها يؤمن بشدة بضرورة أن تبقى فرنسا للفرنسيين.

وكانت تعده بأنها في يوم من الأيام ستُعلن لهما عن علاقتها بسيد علي، لكن ببطء، وإلى ذلك اليوم، فهي تفضل أن تبقى العلاقة بينهما سرية لأقصى درجة.

فكان سيد علي يواسيها طبعًا، ويُواتيها في قرارها بحكم حبه الشديد لها.

ولم تكن جوزيفين بريئة أبدًا، فقد كانت بحكم جمالها وشهرة عائلتها محاطة بشباب ورجال كثر، كلهم من شرائح راقية من المجتمع، وقد كانوا جميعًا يعشقونها ويهيمون فيها حبًّا، غير أن جوزيفين لم تكن تطلع سيد علي على ذلك، وكانت دائمًا تخفي عنه ذلك.

وكان أبرز هؤلاء العشاق شاب اسمه أنطونيو، وكان أنطونيو شابًا أخضر العينين، أشقر، فارِه الجمال، كما أنه كان مدمن خمرة لا يتوقف عن السكر، وكان يعامل جوزيفين بقسوة شديدة، وكان يأخذ منها كل الأموال، وكان يضربها ضربًا مبرحًا عندما يغضب، ثم يعود ويغدق عليها الحب إغداقًا، ويبكي بين يديها راجيًا منها أن تسامحه.

وقد كانت جوزيفين تحبه بشدة رغم كل ذلك، وتتعاطف معه، لأن أنطونيو قد ملك شغاف قلبها، وقد كانت جوزيفين تحب هذا النوع من الرجال، وتكون له الأميرة الملبية.

وكانت في قرارة نفسها تشمئز من ضعف شخصية سيد علي، ومن خضوعه المستمر لطلباتها وتركها لحريتها المطلقة، فلم يكن يومًا يقول لها: افعلي كذا، أو: لما فعلتِ كذا؟

واستمر الوضع هكذا، وكانت جوزيفين كل يوم تزيد في غواية سيد علي، حتى أتى اليوم الذي اكتشفت الدولة فيه عصابة الماس،

فألقت القبض على أم سيد علي معهم، بحكم أن كل الأوراق قد جعلها زوجها الجديد عمر قباني باسمها، بينما فرّ هو إلى سويسرا، حيث كان قد نجح في تهريب بعض تلك الأموال.

فدخلت أم سيد علي السجن، فتأثر سيد علي كثيرًا، وعندما أصبحت تزوره جوزيفين، لاحظت بأنه لم يعد يستطيع أن يلبي طلباتها من أموال ومجوهرات، كما أن سيد علي أصيب بمرض خطير في إحدى كليتيه، فدخل إلى المستشفى.

لكن جوزيفين لم ترحم سيد علي، وكانت تعايره بمرضه في كل لحظة، ولم تكن تزوره عندما كان في المستشفى، بل كانت تواصل طلبها للأموال تحت ضغط حبيبها المدلل أنطونيو، وعندما أخبرها بأنه لم يعد يملك مالًا، وبأن عائلته كانت قد أفلست وانهارت، قررت جوزيفين تركه بدون أية رحمة أو شفقة.

ولكنها لم تكتفِ بذلك، فقد قامت بإرسال صوره إلى زوج أخته نفيسة، رغم معرفتها بشدة توتر العلاقة بينهما، وذلك لتستفز كل العائلة لأجل الحصول على الأموال.

ولما بلغ الأمر سيد علي، دخل في حالة جعلته يتناول جرعات زائدة من المخدرات لكي ينتحر، فوجدوه ميتًا في بيته في نهاية مأساوية يُندى لها الجبين.

بينما نالت أم سيد علي جزاءها في السجن، فقد حُكم عليها بخمس وعشرين سنة، رغم كل محاولات المحامي.

أما زوجها الأول، فقد كان يرعى أبناءها بشدة، وكان قد أبقى على علاقة جيدة جدًا معهم، وقد تزوج فتاة تشبه نفيسة إلى حد كبير جدًا، وعاشوا معًا في غبطة وسرور.

مرت ثلاث سنوات على سفر كوثر وسعيد، كل شيء كان على ما يرام، وأنجبا طفلة جميلة اسمها نور، إلى أن أتى اليوم المشؤوم.

خرج سعيد في رحلة بحرية مع أصدقائه، ولم يكن يرد على اتصالات كوثر، حتى قلقت جدًا عليه، استمر الوضع ثلاثة أيام، قلقت كوثر جدًا من الوضع، واتصلت بالشرطة، وللأسف فقد قام سعيد بحادث سيارة، توفي فيه بالمستشفى.

أُصيبت كوثر بنوبة من الفزع والهلع، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، لكنها قابلت الخبر بنفس راضية مطمئنة بما قسم الله لها.

أصبحت كوثر أرملة فجأة، بدون سند، كان لها كل شيء.

مرت فترة على كوثر لا تكلم فيها أحدًا، ثم سافرت إلى الجزائر لترتاح بعض الوقت، ولما وصلت هناك، ذهبت لبيت العم أمرزاق، وهناك كانت المفاجأة؛ صادفت عبد الله ثانية، لقد كان على علم بالأمر، أخبره العم أمزيان، فجاء ليعزي كوثر.

قابلته بابتسامة مصطنعة بين الألم والدهشة، ثم سألته عن أخباره، فعرفت بأنه فتح عيادة كبيرة بالجزائر، وأنه لا يزال عازبًا، لم يتزوج، وأن اسم العيادة كان "كوثر".

لأول مرة، ابتسمت كوثر بعد تلك الجرعة من الحزن العميق، سألته: لم لم تتزوج نورمينا؟

فأخبرها بأنه لم يحس بروحه معها أبدًا، وأنه لا يستطيع أن يعيش مع إنسانة لا تميل لها روحه، مهما تمسك بها عقله.

فجأة، أتت نور، فسلمت على عبد الله وجلست في حجره، ثم هتفت: بابا.

فهرس

الإهداء ٥
مقدمة ٧
الفصل الأول ٩
الفصل الثاني ٢٧
الفصل الثالث ٤١
الفصل الرابع ٥٣
الفصل الخامس ٦٥
الفصل السادس ٧٣
الفصل السابع ٨٧
الفصل الثامن ٩٥
الفصل التاسع ١٠٣
الفصل العاشر ١١١
الفصل الحادي عشر ١١٩

الفصل الثاني عشر ١٣٥
الفصل الثالث عشر ١٥١
الفصل الرابع عشر ١٧١
الفصل الخامس عشر ١٨١
الفصل السادس عشر ١٨٩
الفصل السابع عشر ١٩٣
الفصل الثامن عشر ٢٠٣
الفصل التاسع عشر ٢٠٩
الفصل العشرون ٢١٣
الفصل الحادي والعشرون ٢٢٥
الجزء الأول ٢٢٥
الجزء الثاني ٢٥٥
الفصل الأخير ٢٧٩